

أركانوسه المحصرية



دار الجياد
بيروت - لبنان

تأليف
عرجي زيدان

أَرْكَانُ فَوْسَتِ الْخَضِرِيَّةِ

جميع الحقوق محفوظة
لدار الجيل
الطبعة الثانية

رِوَايَاتُ تَلَكُّمِجِ الْإِسْلَامِ

أَرْسَالُ نَوْسَةِ الْمُحَصِّرِيَّةِ

فيها تفاصيل فتح مصر والاسكندرية على يد عمرو بن العاص
في صدر الاسلام (٦٤٠ م) مع بسط حال العرب وعاداتهم
وأخلاقهم وأزيائهم وحال الاقباط والرومان في ذلك العصر

تأليف
عرجي زيدان

دار الجيّد
بيروت

ابطال الرواية

: امبراطور الرومانيين	* هرقل
: فاتح مصر	* عمرو بن العاص
: والي مصر عندما فتحها العرب	* المقوقس
: ابنة المقوقس	* ارماتوسة
: ابن هرقل وخاطب ارماتوسة	* قسطنطين
: مربية ارماتوسة	* بربارة المصرية
: ابن الاعرج القائد الروماني	* اركاديوس
: ابن المقوقس	* ارسطوليس
: صاحب يحيى النحوي	* زياد العربي
: مولى عمرو بن العاص	* وودان
: احد قواد العرب	* عبادة بن الصامت
: قائد جند الروم	* المنذور الاعرج

مراجع رواية أرمانونمة المصرية

هذه المراجع هي التي اعتمد عليها المؤلف في سرد حوادث الرواية :

- ★ الخطط للمقريزي •
- ★ تاريخ الطبري •
- ★ تاريخ مصر الحديث لجرجي زيدان •
- ★ تاريخ الواقدي •
- ★ تاريخ ابن هشام •
- ★ تاريخ ابن الأثير •
- ★ تاريخ ابن خلدون •
- ★ حسن المحاضرة للأسيوطي •
- ★ تاريخ عبد اللطيف البغدادي •
- ★ مؤلفات : شامليون ، ومارسيل ، وماريت ، وولكنسن ، وشارب •
- ★ العقد الفريد •

- ١ -

فذلكة تاريخية

فتح الرومانيون وادي النيل ، وأقاموا به قرونا ظهر في أثناءها الدين المسيحي وانتشر في العالم ، ودخل الديار المصرية فاعتنقه المصريون ، وهم الاقباط ، ثم اتخذته الدولة الرومانية دينا لها بدلا من الوثنية ، وهدمت نمايلها .

ولكن ما كادت تستقر الامور حتى حدث نزاع ديني بين كهنة القسطنطينية عاصمة المملكة الرومانية الشرقية ، وكهنة الاسكندرية عاصمة الديار المصرية ، واشتد هذا النزاع حتى تسكنت الضغائن بين الرومانيين ، وهم الفئة الحاكمة ، وبين الاقباط وهم الشعب المحكوم . وعرف المذهب الروماني بالملكي ، والمذهب المصري باليعقوبي . فآل ذلك الى ثور الاقباط من الرومانيين واستبدادهم ، والى رغبتهم في التخلص من نيرهم بأية وسيلة .

وفي أوائل القرن السابع للميلاد ، كان يحكم مصر وال يوناني ، الأصل ، اسمه المقوقس حنا بن قرقت ، وقد يدعونه بأسماء أخرى ، وكان

متنسيعا لأهلها ومذهبهم وتقاليدهم • وأقام الاسكندرية شأن ولاية
الرومانيين الى ذلك العهد ، لأنها كانت عاصمة الديار المصرية ومقر
الامارة فيها • ولم تكن القاهرة قد وجدت بعد ، بل كان في مكانها
بساتين وغياض يتخللها بعض الأديرة والكنائس ، وقليل من البيوت
مبعثرة بين جبل المقطم والنيل • والى جنوبها بلدة صغيرة اسمها بابل ،
بناها الفرس حين قدموا مصر قبل الميلاد ودعوها باسم عاصمة دولتهم •
وكان موقعها فيما هو الآن دير مار جرجس وما جاوره من البيوت ،
وجامع عسرو ، وبعض مصر القديمة •

* * *

وكان في وسط تلك البلدة حصن كبير يدعى حصن بابل ، أو قصر
الشمع ، مبنى على الطراز الروماني ، هو الذي يقوم في مكانه الآن دير
مار جرجس • وكان النيل يجري أمامه ، وتلاطم أمواجه بابا كبيرا
من أبوابه ، ما زال رسمه باقيا في سوره الغربي حتى الآن ، وقد طمرت
الأتربة أسفله حتى لم يعد ظاهرا منه الا عتبه العليا • الى أن أزالته
الحكومة تلك الأتربة ، فظهر الباب كله • وهو قائم بين برجين كبيرين
مستديري الشكل ، في أحدهما كنيسة المعلقة حتى الان ولكن
بنائها تهدم •

* * *

أما مصر القديمة — ما بين هذا الحصن الى النيل — فلم يكن لها
أثر البتة ، لأن النيل كان يجري في موضعها بجانب الحصن كما قدمنا •
وكان بين هذا الحصن وجزيرة الروضة جسر من السفن ، يمر عليه الناس
من البر الشرقي الى الجزيرة ، وجسر آخر من الجزيرة الى البر

الغربي يسرون عليه الى الجزيرة ومنها يذهبون الى منف - عاصمة مصر القديمة - حيث كان المقوقس يقيم بعض أشهر الشتاء : برغم أنها في عهده كانت قد انحطت وكادت تقول الى الخراب .
ولم يكن للأقباط هم في تلك الايام الا التخلص من الرومانيين والتحدث بنظائر أعمالهم وظلمهم واستبدادهم : ولكنهم لم يكونوا يستطيعون المجاهرة بعداوتهم . خوفا من سخطهم وزيادة الضغط عليهم .

- ٢ -

أرمانوسة بنت المقوقس

كان للمقوقس ابنة في ريعان الشباب ، جمعت بين الجمال الروماني واللفظ المصري اسمها « أرمانوسة » . وقد خصها الله بلبين الجانب وحسن الخلق حتى ضرب المثل بجمالها وذكائها . وكان والدها يحبها حبا جبالا لأنه لم يكن له الا هي وابن اسمه ارسطوليس ، فأباح لها التصرف في بيته وجعل لها الامر والنهي في خدمه وحاشيته . وكان هرقل امبراطور الرومانيين قد سمع بها فخطبها لابنه قسطنطين ، وشاع ذلك وذاع حتى تحدث به الخاص والعام وحسدها الناس عليه ، لكنها لم تكن راضية بهذا الزواج وان لم تظهر شعورها لثلاث يصيبها أو يصيب والدها سوء ، بل كظمت غيظها وصبرت على مضض ، حتى يأتي الله بأمر من عنده .

وفي سنة ٦٤٠ للميلاد كان المقوقس مقيما بالاسكندرية على عادته ومعه حاشيته ، وكلها من المصريين والمصريات وبعض الاحباش ، وليس

فيها أحد من الروم . وكانت أرمانوسة في قصره بمنف ، في البر الغربي من النيل وراء الجزيرة . وكان ذلك القصر فخما عظيما أقيم بأنقاص بعض هياكل المصريين القدماء ويشرف على النيل ، وتحف به حديقة غناء ، وفيها من أغراس الكرم والنخيل والشجر ذي الثمر والرياحين ما يبهج النظر وينسا هي في قصرها ذات ليلة صافية الجو اذ أحبت الخروج للتنزه في النيل ، فكلفت خادمتها الخاصة - واسمها بربارة - أن تكلف بعض الخدم باعداد قارب تنزل فيه ، فأعدوه لها ، ونزلت وقد لبست ثوبا مساوي اللون يجرد ذيله وراءها ، وضفت شعرها من أعلاه ضفيرة واحدة بالكيل صغير من الحجارة الثمينة مصنوع على شكل رأس الحية مثلما صنع قدماء المصريين ، وأرخت الضفيرة على كتفيها ، والجواري محدقات بها ، وخادمتها الخاصة تحل طرف ثوبها من ورائها لتلايمس الأرض ، ولو أنه مسها لا خوف عليه لأنها مرصفة بالرخام النقي ، ولأن طرق الحديقة مرصوفة بالفسفساء . فتجاوزت الحديقة الى بابا الشرقي ، وكان شاهقا قد نقش على عتبته العليا رسم أوزيريس باسطا جناحيه ، ومصرعاه من خشب الجميز الصلب ، وعليه من النقوش البديعة ما يشغل النظر ، وأمامه من الناحيتين تشالان كبيران لأبهي الهول . وسارت بين صفين من شجر الجميز حتى أتت الشاطئية ، فنزلت الى القارب على رصيف قديم البناء عليه نقوش هيروغليفية . وكان القارب مفروشا بالبسط المزركشة فجلست في صدره وبين يديها جواريها ، وقد أرخى النوتية الشراع فسار القارب الهوني يخترق عباب النيل ، والجوصاف وأشعة القمر تنعكس على سطح الماء وتكسر وتتلاها ، والى كل من جانبي النيل غياض ومفارس للتخيل والدوم ، ومن ورائها كروم العنب وغيرها ، تتخللها قرى صغيرة وأبنية فخمة معظمها من الهياكل والتماثيل ، وأعظمها قصور منف تتخللها الهياكل والاصنام العظيمة ، لأن

هذه المدينة برغم عوامل الحدثان كانت ما زالت أبنيتها شامخة تناطح السحاب ، وبخاصة أهرامها المعروفة الآن بأهرام سقارة .

وسار القارب بأرمانوسة وجواربها بين يديها ، وقد أخذن يعزفن على الآلات ، وعلى ضفة النيل شجر البردى متكاثف يتمايل كالسكارى ، ولم يكن يسمع عند سير القارب الا صوت الموسيقى يتخلله حفيف ورق البردى ونقيق الضفادع بين أغصانه ، وقد اختفى بين هذا وذاك صوت القارب في اختراقه عباب الماء ، والطبيعة هادئة والنسيم لطيف ، وبربرة لا تقتر لحظة عن تسليّة سيدتها بطريف حديثها وغريب قصصها . أما أرمانوسة فكانت مضطربة البال لا تبتسم الا تكلفا ، كأنها تريد نسيان ما يخامرها من الهواجس ، وتود الانشغال عنها بمنظر الطبيعة . فلما أدركت وصيبتها ذلك جعلت تبالغ في تسليتها تارة بالأحاديث المضحكة ، وطورا بالانطاب في جمالها ، وقد لحظت انقباضها من قبل وحاولت استطلاع كنهه فلم تستطع .

وبعد أن سار القارب مسافة ، رأت أرمانوسة انها قد بعثت عن المدينة فخافت أن يهاجم التمساح القارب فأمرت النوتية بالرجوع ، فأدارو الدفة وعادوا ، وكفت العازفات عن العزف فاستولى السكون على الجميع كأنهن شاركن الطبيعة صمتها ، وكل منهن تنظر الى ما حولها من الماء والشاطئ ، تتأمل ذلك المنظر وتستأنس بنقيق الضفادع ، وعلى وجوههن أمارات السرور الا أرمانوسة ، فانها ما برحت منقبضة النفس ، ثابتة النظر الى جهة من جهات الشاطئ عن بعد ، وبربرة تسارقها اللحظ وترقب حركاتها وسكناتها ، فاذا بها قد أخرجت منديلا من جيبها مسحت به عينها وهي تحاذر أن يراها أحد ، فأمعنت بربرة النظر في تينك العينين المكحلّتين بالسواد فاذا بهما تتلاان وقد تناثرت الدموع منهما بقتة ، فاضطرب قلبها وأرادت الاستهزام منها عن السبب ، ولكنها أمسكت حتى لا

تخرجها . وعولت على استطلاع الحقيقة عند عودتهن الى القصر .. على انها أخذت تتقاذفها الهواجس . اذ لم تدر موجبا لبكاء سيدتها وقد توافرت لها كل أسباب السعادة . وليس في وادي النيل فتاة أحسن حالا ولا أسعد حظا منها ، فانها ابنة الحاكم الأمرة الناهية ، وكل أهل البلاد في خدمتها . وقد خصتها العناية الالهية بجمال وصحة وسعة عيش حتى نالت حظوة في عيني أمباطور الرومان فخطبها لابنه . فخافت بربارة أن يكون أمرا ذا بال .

* * *

عاد القارب الى منف ورسا بهن الى جانب القصر ، فنهض الجميع ونزلت أرمانوسة وسارت بين شجر الجيز والخدم بالمصاييح أمامها حتى أتت باب الحديقة فوقت لحظة مسندة يدها الى أحد التثالين ، والتفتت الى النيل كأنها لم تشبع بعد من منظره ، ثم دخلت الحديقة وتحولت الى بعض طرقها ففهمت الجوار أنها تريد التجوال بين الأزهار والرياحين قبل دخول القصر ، فتحولن كل الى مخدعها الا بربارة فقد رافقت سيدتها وهي لا تزال تراقب حركاتها وسكناتها ، فرأتها قد مشت في الحديقة لا تدري الى أين تسير ، ولا يلفتها صوت النعام السارح ببعض جوانب الحديقة ، ولا أصوات الكراكي وغيرها من الطيور هناك ، ثم تحولتا الى القصر فدخلتا وسارتا توا الى غرفة النوم ، وكانت الجواري قد أضأنها بالشموع والمصاييح ، وجعلن اكليلا من الزهور في اناء على مائدة فاخرة في وسط الغرفة مصنوعة في سوريا . من خشب الأرز ، تفوح منها رائحة زكية ، كان قد أهداها الى أبيها بعض أصدقائه الرومانيين في صيدا .

لكن أرمانوسة ما لبثت أن انسلت من الغرفة الى شرفة مظلة على

الحديقة والنيل وراءها ، ورائحة الأزهار قد ملأت الجو ، وهناك كرسي مجلل بالحرير جلست عليه ، ووقفت بربارة تنتظر أمرها وتسترق النظر اليها فلاحظت أنها لا زالت مضطربة : لم تزدها تلك النزهة الا انقباضا . وبعد قليل قامت أرمأنوسة الى سريرها ، ونزعت حليها بمعاونة بربارة ثم استلقت تبغي الراحة لا النوم فلبثت بربارة واقفة تهم بسؤال سيدتها عن سبب اضطرابها فيمنعها التأدب ، ثم نظرت اليها فاذا هي تتلهى بالنظر الى ما على جدران الغرفة من الصور الملونة ، وفيها رسوم الطير والحيوان : ثم رأتها أطرقت تنظر الى أرض الغرفة كأنها تتأمل اشكال النرسوم الجميلة المطرزة على الأبسطة ، وهي تردد الزفرات وتتنهد خفية وقد أعيأها الانقباض ، فلم تستطع بربارة مغالبة البكاء لفرط حبها لسيدتها وغيبتها عليها ، فجعلت تمسح عينيها حتى أدركت أرمأنوسة ذلك ، وخافت اقتضاح أمرها فخطبت بربارة قائلة : « ما بالك يا بربارة » هل تبكين ؟ »

فتقدمت بربارة الى جانبها تحاول مغالطتها وقالت : « ليس هناك يا سيدتي ما يبكيني وأنت بنعمة الله في صحة تامة وعيش رغيد ، اني سعيدة ما دمت أنت كذلك ؟ »

قالت : « ولكنني أراك تبكين ؟ ! »

قالت : « كلا يا سيدتي ، واذا رأيت في عيني دموعا فان هي الدموع الفرح ، اذ كل ما من الله به عليك من أنعامه وبركاته انما هو مدعاة لفرحي ، ألا تعلمين أن أصدقاءك ينيطونك وأعدائك يحسدونك على ما قدر الله من وقوعك موقع الاستحسان لدى مولانا الامبراطور حتى خطبك لابنه ؟ ولا ريب عندي أنك أهل له وهو أهل لك ، فان قسطنطين من أحسن الناس جاها ، وكفاه فخرا انه ابن الامبراطور هرقل ، وعما قليل يعود من حروبه مع العرب فتتم سعادتك بالاقتران به »

فتنهت أرمأنوسة تنهدا خفيا كأنها تذكرت مصائبها ، وأسفت لما هي
 به من الكدر مع ما خصتها به العناية من أسباب الرفاهية ، ومالت السر
 مكاشفة وصيفتها بكنونات قلبها عساها أن تفرج كربتها ، وكانت تشق
 بها كل الوثوق لأنها ربتها منذ نعومة أظفارها ، وقد اختبرت صداقتها
 واخلاصها ، ولكن الحياء غلب عليها فأمسكت عن التكلم لحظة وهي
 شاخصة الى نافذة غرفتها المشرفة على النيل « وقد امتلا بضوء القمر ،
 ولكنما ما لبثت أن أجهشت بالبكاء على غير ارادتها •

فتقدمت بربارة الى جانب السرير وجثت على ركبتها ، وأمسكت
 يد أرمأنوسة بين يديها وجعلت تقبلها تكرارا ودموعها تتساقط عليها
 وهي تقول : « من منا الباكية يا حبيبي ؟ أتسأليني عن سبب بكائي
 وأنت تبكين ؟ أستحلفك بالله أن تطلعيني على سبب اضطرابك ، فقد ضاق
 صدري وأنا ممسكة نفسي عن الاستفهام حتى عيل صبري » • قالت
 ذلك وطلت الى سيدتها فاذا بها قد أغرقت في البكاء ، وجعلت المنديل
 على عينها لتخفي ذلك عليها ، فأمسكت يدها الثانية وألحت عليها وقبلت
 يدها : ثم قبلتها بين عينيه وترامت على قدميها وقالت لها : « أستحلفك
 بحياة سيدي أليك أن تخبريني عن سبب بكائك ولا تخفي علي شيئا ،
 وأنت تعلمين تعلقي بك واخلاصي لك ، لعلي أستطيع تفريج كربتك •
 أم أنت لا تثقين بي ؟ » •

قالت : « اني واثقة بك كل الوثوق يا بربارة ، وأنت تعلمين ذلك •
 ولكن ليس ثمة ما أخفيه عليك وما أنا باكية ولا ... » •
 فقطعت عليها الكلام قائلة : « كفى اخفاء ومغالطة ، رأيت منك
 هذا الانقباض منذ أيام ، وكنت أخشى أن أثقل عليك بالاستفهام ، أما
 الآن وقد عيل صبري وصرت أخاف عليك فلن أسكت حتى تخبريني
 أو تطرديني من هذه الغرفة ! » •

فأمسكت أرمانونسة بيدها وهمت بالجلوس قائلة : «حاشى لي
أن أهينك بمثل ما تقولين ، فانك بمنزلة الأم عندي ، فقد ربيتني منذ
طفولتي ، ولكن ليس عندي ما أخبرك به ، أو لعلني اذا أطلعتك عليه
تضحكين مني أو تهزئين بي ! » فوقفت بربرة قائلة : «معاذ الله أن
يصدر ذلك وأنت سيدتي ومصدر نعمتي ، بل أنت روحي وحياتي ، فلا
تخشي بأسا من مكاشفتي بما في قلبك ، وسأكون مفرجة لكربك باذن الله .
فثقي بي ، واكشفي لي عن سر هذا الاضطراب فقد فقد صبري » .

فصمت أرمانونسة لحظة ثم وقفت ودنت من المنضدة وجعلت
تتشاغل بتقليب ما كان عليها من التماثيل الصغيرة ، وفيها أشباه أبي
الهلل والجمالان من الذهب والفضة ، ثم عادت الى السرير مرتبكة تتلهى
بشئ منديلها بين أناملها ، وهي تنظر اليه وتحاول التكلم ويمنعها الحياء .
فهضت بربرة وقبلتها وقالت لها : « تكلمي يا حبيتي لا تخفي علي
شيئا وأنا أقسم لك بمریم العذراء صاحبة هذه الكنيسة (وأشارت
الى جهة حصن بابل حيث كنيسة المعلقة) أن أحفظ سرك في قلبي ،
وأكون لك عوناً في كل ما تريدين » .

فنظرت أرمانونسة اليها من طرف عينا ، وهمت بالكلام فارتج
عليها ثم قالت : « أنظري هل لا يزال أحد من الخدم مستيقظاً ؟ » .
قالت : « لا تخافي فليس من يتجراً على الدنو من غرفتك ، وسأذهب
لأستطلع الامر » . وخرجت والمصباح في يدها تاركة سيدتها وحدها
في الغرفة .

لبثت أرمانونسة تنتظر عودتها ، فلما رأتها أبطأت ، شغل بالها
واستولى عليها القلق ، ولما ملت الانتظار نهضت من السرير ودنت من
الشرفة ، وأطلت على الحديقة فسمعت ضوضاء الناس عند الضفة فازداد
ضطرابها ، فأصغت فاذا بأصوات رجال ، ولحت عند الشاطئ قوارب

عديدة وقد خرج منها ثم يسرعون نحو القصر ، وأرادت أن تنادي أحدا تستطلع منه الخبر ، فإذا ببربارة قد عادت وعلى وجهها أمارات الدهشة ، فابتدتها أرمانوسة قائلة : « ما سبب هذه الجلبة ، ومن هم هؤلاء الرجال يا بربارة ؟ أخبريني » .

قالت : « طيبي نفسا يا سيدي ولا تضطربي ، فليس ثم غير الخير إن شاء الله » .

قالت : « قولي ما الخبر ، وما الداعي لهذه الجلبة ؟ » .
فقلت : « انها من دواعي سروري وسرورك ، فان سيدي أباك قد بعث بجماعة من خاصته بمعدات الاحتفال ، ليذهبوا بك الى عين شمس حيث يوافيهم أبوك لكي تسيروا جميعا الى بليس ، فتقيمي في انتظار خطيبك ريشا يسير بك الى القسطنطينية » .



اضطربت أرمانوسة عند سماعها الخبر ، واشتد بها اليأس حتى تناثرت الدموع من عينيها وغلبها البكاء ، فازداد تعجب بربارة وهي لا تفهم لهذا البكاء سببا . فتقدمت اليها وقبلتها وضمتها الى صدرها ، وجعلت تتوسل اليها أن تخبرها بكنه الامر الى ان قالت : « لملك شعرت بالوحشة عندما علمت بالسفر ومفارقة أليك ومنزلك ، ألا تعلمين يا سيدي أنك ستنتقلين من قصر الى قصر أعظم منه ، ومن بيت مجد الى بيت مجد أرفع منه ؟ » .

وكانت أرمانوسة تمسح دموعها بيدها فلما سمعت كلام بربارة مدت اليها يدها وقبضت على ذراعها وقالت : « لا تذكرني القصور والمنازل ، فان السعادة ليست في الابنية ولا في العواصم ، ولكنها في القلوب والعواطف . دعيني يا بربارة من هذه الاوهام وعزيني بغيرها ! » .

فعمجت بربرة من هذا الكلام واستغربته ولم تفهم ما وراءه ،
 وقالت : « بالله يا سيدتي افصحي عن حقيقة أمرك ، فقد أشكل على فهم
 الواقع هل تكرهين الاسفار أم ... » .
 فقطعت أرمانونسة الكلام قائلة : « ليس ذلك ما يكدرني ، ولكنني
 لا أريد السفر الى بليس ! » .
 قالت : « وهل تكرهينها ؟ قولي لأبيك فلا يبعث بك اليها ، ويكتب
 الى الأمباطور أن تنتقلي رأسا من هنا الى القسطنطينية » .
 فصاحت أرمانونسة : « لا .. ولا أحب القسطنطينية ولا ساكنيها
 ولا من تسمى باسمها ، ولا أحب البقاء في الدنيا من أجلها ! » .
 فأدركت بربرة أن سيدتها لا تريد الاقتران بقسطنطين ، ولكنها
 تجاهلت وأعدت السؤال بالحاح قائلة لها : « الى هذا الحد تخفين
 مقاصدك علي ؟ أم لعلك لا تريدن قسطنطين ؟ » .
 فأجابتها على الفور : « نعم لا أريده . لا أريده ! » .
 فهتت بربرة عند سماعها ذلك وقالت : « ولماذا يا مولاتي ؟ » .
 فابتدتها أرمانونسة قائلة : « لا تسأليني ، فاني لا أريده ، ولن
 أريده ! » .
 وأجهشت في البكاء حتى علا صوتها ، فجعلت بربرة تخفف عنها
 وتهون عليها الى أن قالت : « اذا كنت لا تريدينه فديعه وشأنه ، ولا
 تحزني ولا تكدرني نفسك » .
 فتنفست أرمانونسة الصعداء وقالت : « نعم لا أريده ، ولكنني لا
 أستطيع التخلص منه ، وأبي قد اتفق مع أبيه على أن يلقيني بين يديه ،
 ولست أفقه غرضه من ذلك ! » .
 فقالت بربرة : « اذا أصر أبوك على عزمه ، ولم تري سبيلا
 للخلاص فأرى أن تطيعه وأنا واثقة كل الوثوق أنه لم يقبل زفانك

الى قسطنطين الا وهو يرى ذلك سببا لسعادتك ، ولا أظن تمنحك الا خوفا من الاغتراب والابتعاد عن البيت الذي ربيت فيه ، وهذا ما تشعر به كل فتاة تنتقل من بيت الى آخر ، أو من مدينة الى أخرى عند الزواج . أما اذا سم الامر وصرت كنة الامبراطور ، فسيذهب عنك هذا الخوف ويسكن روعك » .

فتنهت أرمانونة وقالت : « كيف يسكن هذا القلب وهو ليس معي فاذا سافرت الى القسطنطينية فاني أسافر بلا قلب ! » .
فأدركت بربرة أنها عالقة بغير قسطنطين وان هذا سبب عزوفها عن الاقتران به : وأرادت استطلاع مكنونات قلبها فأمسكتها يدها وخرجت الى الشرفة لتليها عن هواجسها ، ثم تمود فتستلهمها حقيقة أمرها .

وكان الليل قد انعكس نور القمر على صفحته حتى تلالأت كالبلور ، وظلال شجر البردي والنخيل قائمة على الشاطئ كأنها سابحة في الماء ، فلبثت أرمانونة صامتة مأخوذة ، غارقة في بحار الهواجس لم يشغلها شاغل ، ولا اتبعت لحركة القوارب الراسية هناك ، ولا الى لفظ الذين جاءوا لحملها الى بليس . أما بربرة فصمت هي الاخرى ولبثت تنتظر ما يظهر من سيدتها وهي تتأمل حالها وتجول بأفكارها ، وتراجع سيرة حياتها لعلها تتذكر حكاية تكشف لها عن هذا اللغز فلم تهتد ، فعادت الى حديثها فقالت وقد أرادت أن تمازحها : « ولكنني لم أفهم مرادك من قولك انك تسافرين بلا قلب أ فأين تتركين قلبك ؟ الا تخافين عليه العدو ونحن في حرب ؟ » .

فقالت : « لا أخاف عليه الحرب . ومهما يكن من أمره فانه يصبح في حال آمن له من حاله في القسطنطينية ! » .
فأرادت مداعبتها ثانية فقالت : « ولكن القسطنطينية آمن له ، فالبلاد

هنا بين خطرين عظيمين ، اذا سلمت من أحدهما لا تسلم من الآخر ! » •
 فوق قول بربرة من أرمانوسة موقعا غريبا فأجبت معرفة حقيقة
 الواقع ، وسألتها : « وكيف ذلك ؟ » •

قالت : « هل يخفى على سيدتي حالنا مع الروم واضطهادهم ايانا ،
 وما بين أبيك وبينهم من الضغائن ، وكم سامونا نحن الوطنيين أنواع
 العذاب ، لما بيننا وبينهم من اختلاف في المذهب ؟ انهم يقتلون كهنتنا
 وينفون بطاركتنا ونحن كاظمون الغيظ ، صابرون على البلوى ، حتى
 لقد سمعت سيدي والدك يتمنى أن يأتينا من يخلصنا من جور هؤلاء
 الحكام ؟ » • فقطعت عليها أرمانوسة الكلام وقالت : « انني أعجب
 لشكوانا وشكواكم » وأتم المصريون أهل البلاد أكثر عددا من هؤلاء
 الروم وهم غرباء قليلون ! فلماذا لا تخرجونهم من بلادكم ؟ » •

فبست بربرة وقالت : « صدقت يا حبيتي انا أكثر عددا ولكنهم
 أصحاب السلطة ، وفي أيديهم الحصول والمعاقل ، وهم الحاكمون ومنهم
 العساكر والقواد ، ولا تظني أن المصريين لم يحاولوا هذا الاستقلال ، ولكن
 دولة الروم كبيرة فكانت تبعث الينا جنود لا قبل لنا بهم • وأنت تعلمين
 ان أباك يوناني الاصل ولكنه يحب أبناء البلاد ويبيع الى الاحزاب الوطنية
 لأنه يراهم على حق • وخلاصة القول اننا أبناء وادي النيل لا نجب هؤلاء
 الرومانيين مهما يبالغوا في اكرامنا ، فقد كرهتهم نفوسنا ، وبخاصة لأنهم
 أهانوا بطاركتنا ، ولا يزال بطريقنا بنيامين قارا من وجوههم لا يعرف مقره
 الا القليلون ، وكلنا نشكو جور البطريق الروماني المقيم بالاسكندرية
 مع رجاله وجنده ، على أني سمعت سيدي والدك مرارا يتحدث عن قرب
 الفرج والتخلص من نير هؤلاء • ومما حكاه مرة لرجال مجلسه – وقد
 سمعته خفية – انه جاءه منذ سنين رجل من بلاد العرب الذين يسكنون
 جنوبي هذه البلاد يحمل رسالة مكتوبة باللغة العربية ترجمها الترجمان

الى لنتنا القبطية فاذا هي من كبير العرب ، وهو رجل عظيم سن دينا
جديدا وتبعه جمع غفير ، وكل رجاله أشداء أقوياء وقد طلب منه في ذلك
الكتاب أن يترك ديانة السيد المسيح ويتبع ديانتهم . وبينما كان سيدي
يروي قصته أخرج الكتاب من جيبه فاذا هو جلد جاف مكتوب بلغة
انقوم . وقد سر سيدي بمجيء هذا الكتاب ولكنه لم يرد أن يغير دينه
فبعث الى ذلك الجربي الكبير هدايا من بينها ثلاث جوار احداهن مارية ،
التي كانت عندك وكنت تحبينها ، ومعهن أيضا مقدار من العسل الذي
يحمل لنا كل سنة من مدينة بنها ، وأرسل اليه يقول انه لا يستطيع
أن يسلمه البلاد بلا أمر من صاحبها هرقل ملك الرومانيين وهو في
القسطنطينية . وبعد أن أتم سيدي قصته ، ذكر أنه يفضل أن يتولي
العرب على هذه البلاد لينجو من هؤلاء الظالمين ، وسمعت جميع
الحاضرين يصوبون رأيه ، ولكنهم أصروا جميعا على أن يبقوا على دينهم .
» وقد مضى على ذلك عدة سنوات ، الى أن حدث منذ بضعة أشهر
أن جاء قارب فيه رسول من البدو قد التف بالشملة وعلى رأسه ثوب
مطوي وطلب مقابلة سيدي فأذن له ، فدخل وأعطاه كتابا ، ولا أدري ما
دار بينهما ، ولكنني رأيت سيدي قد سافر الى الاسكندرية في اليوم
التالي وطلب الى كل من رأى ذلك البدوي ألا يذكر عنه شيئا . ولبت
من يوم ذهابه أفكر في سبب قدومه ، وطننته جاء في مهمة خاصة . وقد
فهمت من بعض هؤلاء القادمين أن العرب قد قاموا من بر الشام ولعلمهم
قادمون الى مصر ، ولكننا لا نعلم من أي طريق يأتون . وفهمت من هؤلاء
الرجال أيضا أن مولاي أمر الجند الذي تحت أمرته أن يذهبوا مع
قائدهم الرومي (المندوقور الاعيرج) ويقموا في حصن بابل مقابل الجزيرة ،
ولعله يريد بذلك أن يسع العرب اذا قدموا من دخول عاصمة البلاد .
وكانت أرمانوسة أثناء كلام خادمتها مصغية كل الاصغاء وعلى

وجهها امارات الوجبل ، فلما وصلت الى قولها : « وأمر الجند أن يذهبوا مع قائدهم الرومي الأعيرج » . علا وجهها الاحمرار بفتة ۝ ولكنها أخفت ذلك وقالت : « كيف تقولين ان أبي يريد أن يسلمهم البلاد ليخلص من الروم ، ثم تقولين انه يستعد لقتالهم ودفعهم ؟ ۝ » فقالت بربارة : « نعم انه يود ذلك ، ولكنه لا يصرح به ، بل يسره في ضميره ، لأن القوة القاهرة هنا كلها للروم ۝ وكل جند القطر المصري منهم ، فاذا علموا قصده فلا شك أنهم يقتلونه ويقتلوننا كلنا » .

فلما سمعت أرمأنوسة ذلك صمتت لا تبدي حراكا وكانت قد جفت دموعها وزالت هواجسها ، ولكنها عندما ذكرت بربارة الحصن والاعيرج عاودتها تلك الهواجس وعاد الانتقاض الى وجهها ۝ وقالت بلهفة : « وهل أتى الأعيرج الآن الى الحصن ؟ » .

قالت : « نعم أظنه قدم ومعه كل رجاله » . قالت : « وهل جاء معه أولاده أيضا ؟ » .

قالت : « لا أعلم ، وفي كل حال ، ماذا يهمنا من أولاده لا ابقاه الله ولا أبقى أولاده فانهم يستوجبون النار ! » .

فأمسكتها أرمأنوسة من يدها وقالت : « لا تلغني ولا تسخطي ! » . وترقرقت الدموع في عينيها ، فعجبت بربارة لهذه المظاهر ولكنها حملتها على محلل الخوف ، وأنها أبت اللعن تورعا لكيلا يصاب والدها بسوء فقالت لها : « ألا تجوز اللعنة على القوم الظالمين يا بنيتي ؟ » .

قالت : « هي انها تجوز ولكن ۝ ۝ ! » . وصمتت وراحت تبكي ! فقالت بربارة : « ما بالك تبكين يا سيدتي وما الذي حملك على البكاء ، ونحن لم نكد نصدق أنك كفت عنه ؟ » .

فتنهدت تنهدا عميقا وألقت بنفسها على صدر بربارة ، وقد خارت قواها وأخذ منها الهيام مأخذا عظيما ؛ ثم تحولت الى الغرفة وهي تقول :

« اني أنشد نصحك يا خالتي فدبريني برأيك ، واكتمي أمري ، وساعديني في مصيبي . فان كانت حالتي تستحق البكاء قبل أن رويت لي حكايتك هذه ، فانها الآن تستوجب النوح والندب .. آه من هذا القلب .. آه يا أركاديوس ! » •

فنهضت بربارة وضمتها الى صدرها وقبلتها ، ومسحت دموعها وعرقها المتساقط من جبينها ، وأخذت تهون عليها ، وفهمت من حديثها أنها مولعة بأركاديوس بن الأيبرج الروماني ، وهو شاب جميل شجاع يحبه كل من عرفه ، وكان يأتي أحيانا لزيارة المقوقس مع ما بين هذا والرومانيين من التنافر ، وكان اذا التقى بأرمانوسة تسارقا اللحظ وتراسلا بالرموز وقلما تكلموا .. لكن بربارة تجاهلت فضمت أرمانوسة الى صدرها قائلة : « مرحبا بك يا سيدتي وحبيبتى ، اني رهينة أمرك قولي ما بدا لك ، واشرحي حالك ، لا تخافي على شرك ، فقد قلت لك مرارا أن هذا الصدر خزانة أسرارك ، وهذه الحواس كلها تقوم على خدمتك ، لا أراك الله ضيما » •

فجلست أرمانوسة على مقعد وتناولت المنديل بيدها ومسحت عينيها ووجهها ، وأرسلت شعرها الى الوراء ، وكان قد استرسل على خديها عندما ترامت على مريبتها ، وأجلست بربارة الى جانبها و نظرت اليها بطرف ذابل قد تكسرت أهدابه من البكاء وغلب عليها الحياء وقالت : « ماذا أقول لك وحالي ظاهرة مع مبالغتي في اخفاء حقيقتها عنك ؟ آه من الحب ما أحلاه وما أمره ! » •

فأمسكتها بربارة بيدها وأخذت تقبلها قائلة : « قولي يا حبيبتى .. ليس في الحب عار . ألم أقل لك أنك بمنزلة ابنتي ، وقد ربيتك وعقدت النية على خدمتك الى آخر حياتي ؟ » •

فتنهدت أرمانوسة وأسندت رأسها الى كتف بربارة برهة في صمت ،

ثم عادت فقالت لها : « اني قد وقعت في الحب ولكن لا سبيل الى بلوغ مرامي . لاني أحب عدوا لوالدي كما نطقت أنت ! اني أحب أركاديوس بن الأجيرج . فكيف لا أندب حظي ؟ » .

فقبلتها بربارة وجعلت تخفف عنها قائلة : « لا تيأسي يا بنيتي من نعمة الله . فانا نصيرة لك ولحيبك الى المساء . أما أنت فانك بالغة مرادك باذن الله . فلا تخافي وعلي تدير هذا الأمر . طيبي نفسا ولا تجزعي » . فاتعشت أرمانيوس وصاحت قائلة : « أصحيح ما تقولين ؟ هل تسح الايام بذلك ؟ آه اني ان نلت مرامي أكن أسعد فتاة على وجه هذه البسيطة . والا فانا أشقى خلق الله ! » .

فقالت لها : « لا تسح الله بما يضرك . قري عينا واعتصمي بالصبر الجليل . وعلي فسان ما تريدن . ولكن أخبريني كيف عرفت هذا السبب وكيف علقته به ؟ وهل هو يحبك مثل حبك له ؟ » .

فتأوهت أرمانيوس وقالت : « لا تسالي عما جرى كيف جرى . فهذا هو الواقع . أما حبه لي فلا أشك فيه وربما كان عنده ضعف ما عندي ، وقد عرفت ذلك جيدا فدبري الامر بحكمتك » .

فقالت بربارة : « سكتي روعك الآن . ولنعمل الفكرة في وسيلة توصلنا الى المرام . فاتركي هذه المخاوف . وهلمي الآن الى الفراش فقد آن وقت الرقاد . وفي الغد نرى ما يكون ! » .

فقالت أرمانيوس : « من أين يأتي الرقاد وأنا على هذه الحال ؟ ولكنني سأذهب الى فراشي التماسا للراحة . وأرجو أن تتحققتي أكان أركاديوس في جولة من دخلوا الحصن مع المدافعين أم هو باق في الاسكندرية أو في مكان آخر ، لنرى ماذا يكون من أمره وأمر أبي وذلك الخطيب . آه منه ! » .

فقالت : « طيبي نفسا وقري عينا وتوكلي على الله . أما أبوك فلا

تعارضيه واذهي الى بليس كما أراد ، وسنرى كيف ينتهي الامر ولا ظهري شيئا من تفورك لتلا يزداد الخرق اتساعا » .

فقال أرمانوسة : « كيف أستطيع الرضا بهذا الحكم الحائر ؟ وكيف أذهب وأنا أخشى ألا أعود ؟ » . قالت ذلك وأخذت في البكاء ، فضمتها بربارة الى صدرها وأخذت تطمئن بالها وتعددها بانقاذها من كل شر تخافه وان تدبر ذلك بنفسها . وكانت أرمانوسة شديدة الاعتماد عليها فأجابت طلبها وذهبت الى فراشها ، ولكنها لما خلت بنفسها عادت اليها هواجسها ولم تستطع الرقاد تلك الليلة قبيل الفجر .

أما بربارة فذهبت الى غرفتها وهي تعجب لما وقتت عليه من أمر أرمانوسة ، وقد خافت عليها من وطأة الحب ، ولا سيما أن حبسها من أعداء أيها ، والبلاد في حالة حرب لا تتيح لها السعي فيما تريد ، ولكنها وطلت النفس على ما في وسعها خدمة لسيدتها .

وكانت بربارة ذات رأي صائب وحيلة محكمة ، وسيطرة على من في القصر من الخدم ، لأنها من أكثر الناس تقربا من المقوقس الذي كان يحترما ويصغي الى مقالها . وكانت هي تحب أرمانوسة كثيرا ، فلما أقبل الصباح جاءت الى سيدتها وقد استيقظت من رقادها فأعدت لها ثيابها وأمرت الخدم أن يهيئوا معدات السفر فأعدوا المراكب وأنزلوا فيها للوئ ، وجاءوا بقارب خاص لأرمانوسة وحاشيتها . ومضى ذلك اليوم في الاستعداد وأرمانوسة لم تذق طعاما . فلما جن الليل أظلمت الدنيا في عينها ، وهاج بلبالها لعلها انها تاركة قصر والدها في الصباح وقد لا تعود له ، فقضت الليل في البكاء خفية ، وأهل القصر فرحون بسفرها لللاقاة خطيبها ، وهم لا يعلمون بمكنونات قلبها الا بربارة فانها سألتها قائلة : « أأذهب معك أم أبقى هنا لأستطلع أمر أركاديوس ؟ » . قالت : « ان ذهابي وحدي يشق علي كثيرا اذ ليس بين هؤلاء من أركن

إليه فأبته شكاتي » ولكنني كذلك أود ذهابك الى الحصن لتري
أركاديوس . لعله اذا علم بما سيحل بي شاركك في تديير وسيلة لا تقاذي .
وأنا أعلم أنه باسل اذا أراد أمرا لم يرجع حتى يناله . وها اني ذاهبة
الى عين شمس لأرافق آبي الى بليس . وسأنتظر خبرا منك قبل وصول
ذاك الذي لا أحبه ولا أريده . فاذا أبطل الفرج فقد تسعين ما لا يسرك ! »
قالت ذاك ونرقرقت الدموع في عينيها . فبكت بربرة لبكائها وهونت
عليها قائلة : « لا . لا سح الله بان يحدث غير ما يسرك . فاذهي على
بركة الله وعلي تديير الأمر .. »

وفي صباح اليوم التالي . ارندت أرمانوسة أفخر ثيابها . ونحاف بها
انخدم والجواري . وأنزلوها الى زورقها الخاص بين الالحن والانغام .
وهي تجر ذيل ثوبها المزركش بألوان تبهج الناظرين . وقد نسفت
نعرها وزينته . وتقلدت عليها الفاخرة وفيها رأس الثعبان المرصع على
رأسها . والاقراط في أذنيها . وجعلت على صدرها قلادة من الذهب تتدلى
منها زوائد من الذهب . وفي يدها سواران من الذهب الخالص كذلك على
شكل ثعبانين ملتصين على معصيهما ، وفي موضع عيونهما حجارة من الزمرد
الشين . وتنسقت بمنطقة من الحرير المزركش بالقصب النقي . وأرخت
طرفه الى جنبها .

فلما وصلت الى الزورق أجلسها البحارة في مكانها . وجواربها بين
يديها فيهن الحبشيات والنويات وبعض الروميات . ونزل الرجال في
زوارقهم وقد نشرت الشراع وتحركت المجاديف ، حتى اذا مرت الزوارق
بالقرب من حصن بابل وقفت برهة ريثما يفتح لها الجسر الموصل بين
الحصن وجزيرة الروضة وهو مصنوع من قوارب مشدود بعضها الى
بعض ، تغطيها ألواح غليظة من الخشب قتلتت أرمانوسة نحو باب الحصن
الجنوبي لئلا ترى حبيبها مارا أو واقفا ولكن القوارب مرت دون أن
تراه .

- ٣ -

أركاديوس

مكثت بربرة بقية ذلك اليوم في القصر ، وهمت في اليوم التالي بالمسير الى الحصن قبل قدوم الجيش ، فركبت سفينة حتى اتت الجسر الممتد بين الجزيرة والروضة فقطعت على قدميها الى الجزيرة ، ثم عبرت الجسر الآخر الممتد بين الجزيرة والحصن ، فدخلت من بابه الجنوبي الكبير فلم يعترضها الحرس لأنهم يعرفونها ، فصعدت الى كنيسة المعلقة فلاقته راهبات هناك واحتفين بقدومها لما يعلمن من منزلتها عند المقوقس ، فتظاهرت برغبتها في زيارة الكنيسة وتقبل الايقونات ، ثم أخذت تفكر في طريقة توصلها الى مرامها ، فلما كانت الظهيرة انتشر خبر قدوم الجنود في الحصن ، وأخذت الراهبات يتساءلن عن سبب ذلك ، فلما علمن بحقيقة الحال جعلن يصلين ويتضرعن الى الله تعالى أن يلفظ بهن ويهيء ما فيه الخير . ورأت بربرة أن تمكث هناك تلك الليلة تنتظر ما يكون ، فلما كان المساء وصل الجنود مدججين بالسلاح ، وفي مقدمتهم موكب يرأسه أركاديوس بن الأعيرج وعليه لباس قواد الرومانيين . فلما رآته خفق قلبها قلقا على سيدتها ومكثت تلك الليلة ساهرة تدبر الحيلة ، بينما الجند يعدون معدات الدفاع من هدم وبناء ، والراهبات يتضرعن الى الله أن ينجيهن من عاقبة تلك الحرب .

ولما خيم العسق ، سمعن طرقا عنيفا على باب الدير ، وجلبة وقرقة نصال ، ففرغت الراهبات ، وذهبت احداهن لفتح الباب وفرائصها ترتعد . فلم تكذ تفتحه حتى دخل منه جماعة من الجند الرومان يتقدمهم شاب في لباس فاخر على رأسه الخوذة الرومانية والى جانبه السيف الصقيل ، وقد

نقلد الخنجر في منطقته وارتدى ضيلسانا يجر ذيله وراءه ، فلما رآته بربرة عرفت أنه أركاديوس . وسعته يكلسونها بلسانهم فلم يفهم مرادهم . ثم تقدم واحد منهم وكلمها بالتبعية قائلاً : « ان القائد يأمركن باخلاء هذا المكان ليجمعه معقلا لفرقة من الجند لأنه واقع فوق باب الحصن » . فنادت بربرة رئيسة الدير وأفهتها الامر . فضرعت هذه اليهم أن يختاروا مكانا غير الدير لأنهن لا يعرفن مكانا يلتجئن اليه سواه ، ولكنهم أصروا على عزمهم ، ولم ينتظروا رضاهن بل جعلوا ينتهرونهن ويصيحون بهن فخرجن يولولن ويصحن باكيات . وخرجت بربرة معهن ، ولم يكن أحد من هؤلاء الرومانيين يعرفها ، ولو عرفها أركاديوس أو عرف ما جاءت من أجله لأذعن لما أرادت . فذهبت الراهبات وبربرة معهن الى مأوى تحت الكنيسة كن يدخرن فيه مؤوتتهن من الطعام والشراب . فجلسن هناك وقد علا صياحهن وعويلهن ، فدنت بربرة من الرئيسة وخاطبتها على افراد ، ووعدتها باعداد وسيلة تنجيهن من تلك الحال .

فقالت الرئيسة : « وما الوسيلة وقد أصبح هؤلاء الجند أبغض الينا من عدو يقاتلنا ؟ أما كفانا ما يسوموتنا من الخسف والجور واهانة رجالنا وقتل بطاركتنا ، حتى جاءوا يخرجوتنا من هذه الكنيسة ليجعلوا أماكن العبادة معاقل وحصونا ؟ » .

فقالت بربرة : « طيبي نفسا ولا بد من أن يقتصر الله من أهل الجور والفجور ، ولا بد لحكمهم من نهاية ، وأرجو أن يكون ذلك بخروج هذه البلاد من أيديهم ، وما على الله عسير » .

فوقفت الرئيسة وقد خنقتها العبرات ، وقالت وهي تسح دموعها بسنديلها : « أطلب من الله بكرامة العذراء مريم صاحبة هذا الدير أن يسقط في أيديهم ويخرجوا من هذه البلاد على أعقابهم فان أية أمة تحكمنا بعدهم

أخف وطأة علينا منهم » فقالت بربارة : « آمين ، وكل آت قريب »
 وكن أثناء ذلك يسمعن جلبة الجند فوقهن ، ينقلون العدة والذخيرة
 وأدوات الحرب ، أما بربارة فما فتئت تفكر في وسيلة تضمن لها الفوز بقضاء
 مهمتها ، وتذكرت سيدتها والحالة التي فارقتها عليها فافطر لها قلبها ،
 وجعلت تبحث عن طريقة توصلها الى أركاديوس . ثم رأت انها ان وصلت
 انه فلن تستطع مخاطبته لأنها لا تعرف اللغة اللاتينية ، ثم تذكرت انه ربي
 في مصر وتعلم لغتها وهو يفهمها ويحسن التكلم بها ، خلافا لبقية أبناء
 جلدته فقد كانوا يحتقرون لغة الوطنيين وينفرون ممن تعلمها ، أما هو
 فكان ميالا الى معرفة تاريخ البلاد ، كما كان يحب أهلها اكراما لحبيته «
 ولكن كيف تصل اليه وهو فيما هو فيه من الانهالك والتأهب للحرب ؟
 وقضت معظم الليل في هذه الهواجس لا تستطيع رقادا .

أما أركاديوس فقد دخل الكنيسة مع رجاله ليجعلوها معقلا لهم
 وتركهم ينزعون الايقونات ، ويحطمون كل ما في طريقهم من الآنية أيا
 كان نوعها ، وأخذ هو يهيئ منازل رجاله ويرتب فرقهم ، فجعل كل
 منهم في موقفه بسلاحه ، ثم نزل الى الأماكن الأخرى يرقب الجند بالنيابة
 عن أبيه الى منتصف الليل . فلما انتهى من مهمته هذه عاد الى كنيسة
 المعلقة . وكان الجند قد أعدوا فيها غرفة مشرفة على النيل من نافذة
 صغيرة « فدخل الغرفة ونزع خوذته وسلاحه ، وجلس بجانب النافذة
 وأطل على النيل وهو يجري بجانب الحصن من غريبه ، ويحيط به من
 الجهات الاخرى البساتين والغياض ، وفيها شجر النخيل والكرم ، وقد
 امتد شجر الدوم على ضفاف النيل يتخلله البردي . ومد بصره الى البر
 الثاني عن بعد فأشرف على ضفته الغربية ، بر الجيزة وما وراءها .
 وكانت الليلة مقمرة كما قدما فوق ظره على الهرم المدرج في جهات
 سقارة بقرب منف فاستأنس به لقربه من مقام حبيبته ، فتذكر حاله معها

وجهه لها ، فهاجت عواطفه ، وود لو كانت له أجنحة تحمله إليها ، وهو على يقين انها تحبه مثل حبه لها « ولولا ما بين أيه وأيهما ، وبين طائفتيه وطائفتها من النفور لهان عليه الامر ، ولكن المركب خشن ودون بلوغ المنى خرط القتاد !

* * *

لبث أركاديوس على تلك الحال حيناً لا يتحرك ، وقد هداً الجو ورق النسيم « واستولى السكون على الحصن فلم يكن يسمع فيه صوت غير خرير الماء وملاطمة مجراه لجدار الحصن من جهة ، وخفيف سف النخل على ضفاف النيل من جهة أخرى . ثم هب من غفلة بغتة فتذكر صديقه أرسطوليس شقيق أرمافوسة وما بينهما من الود والالفة ، فقال في نفسه : « لماذا لا أكشف هذا الصديق بما في قلبي من لواعج الغرام لعله يفرج كربتي أو يرفع غمي أقبال هذا الكتشان ، فإذا عرف قوة حبي لأخته فقد يأخذ بيدي وينصرني » . وفيما هو في تلك الهواجس اذ سمع وقع أقدام قرب الغرفة وإذا القادم واحد من رجاله جاء ليخبره بأن القائد أرسطوليس بالباب ! . فمجب لهذه المصادفة وأذن بدخوله ، فلما دخل تصافحا وتعانقا ، ثم سأل أركاديوس صديقه أرسطوليس عن سبب مجيئه في ذلك الوقت ، فقال : « انما جئت أيها الصديق ملتصا منك أمرا لا يصعب قضاؤه » .

قال : « قل ما شئت ، اني فاعل ما تريد » .

قال : « جاءني بعض من كن في هذا الدير من الرهبانيات يشتكين ما قاسينه من الاهانة بأخراجهم من بيوتهم ، وأنت تعلم أنهم محترمت لا تقطاعن للعبادة والتشف ، وقد كان في امكانكم حفظ كرامتهم ، فارجو أن تخلي لهم مكانا يقمن فيه أو يخرجن من هذا الدير باكرام » .

فقال أركادايوس : « ولكننا لم نخرجهم الا لتتخذ هذا المكان حصنا
ندفع به الأعداء عنا وعنهم . ومن اذا بقين فيه لا يعملن عملنا أو يدفعن
مهاجما ؟ » •

قال : « لا يدفعن مهاجما ولكن كدرهن ونقمتن على الجند لما
لاقينه من الاهانة : ودعاهن على المسيء اليهن ، يقف عثرة في سبيل
دفاعنا فاننا نعتقد أن دعاهن مجاب » •

قال : « نحن لا نرى ذلك . ولكني على استعداد للقيام بما تشير به ،
على شرط ألا يكون في ذلك ضرر على الجند • أما هذا المكان الحصين
فلا تتخلي عنه لأحد . فاذا رأيت أن يختزن لهن مكانا غيره فاني أساعدهن
في الحصول عليه » •

قال : « سأستخيرهن في مكان يختزنه غير هذا المكان ، واذا رآين
الخروج من الحصن فاني أرسل معهن من يوصلهن الى حيث شئن » •
ثم أمر أركادايوس باخلاء مكان لهن بالقرب من الدير أقمن فيه ،
وعاد الى صديقه فقال : ■ وأنت ماذا فعلت ؟ هل أعددت العدة
لجندك ؟ ■ •

قال : « أعددت كل شيء تقريبا ومتى جاء والدانا فاننا تتم تدبير
الأمر • فمتى يأتيان ؟ ■ » •

فقال أركادايوس : « أما أبي فأظنه يصل الى الحصن غدا • وأما أبوك
فلا أدري يوم مجيئه ، ولا ريب أنك أعلم مني بأمره . ولا أراه الا مترددا
في شأن هذه الحرب ، ولم يغرنني منه التظاهر بالاستعداد وادخالك
في هذه الحيلة ، ولا أنه يوناني الاصل ، فان ماضي أعماله يخالف كل
ذلك ، فهو قبطي المشرب قائم بدعوة الوطنيين ، لا يريد لنا سلطانا
عليهم ! »

فوقف أرسطوليس بغتة وهو يحاول دفع هذه الإتهمة عن أبيه

فقال : « كيف تقول ذلك وأبي أول مدافع عن دولتنا ، فحالما سمع
بقدوم العدو أخذ في التأهب للدفاع ، ووجودي في جندكم أكبر دليل
على رغبته هذه ؟ » •

فتبسم أركاديوس مستخفا بتلك الحجة ، وقال له : « مهلا أيتها
الصدیق ! فأنت تعلم حبي لك ، ولا تجهل اني أحترم قدر أهلك ، ولا
أنكر عليك تحامل رجالنا ودولتنا على جماعة الاقباط ، وما أنا بناس
تفورهم لأن نفور أصحاب البلاد من فاتحها أمر طبيعي لا مفر منه ،
وبخاصة اذا لقوا منهم ما لقي أهل مصر من تحامل بعض حكامنا ، وما
سبب ذلك الا الاختلاف في المذهب الديني الذي تعلمه • ولكنني لا أسلم
بأن والدك المقوقس غير قائل بقولهم ، وانه يود من صميم فؤاده
خروج هذه البلاد من حوزتنا ودخولها في حوزة غيرنا مهما يكن جنسهم •
أما دخولك في جندنا فلا تتخذ حجة لدفع هذه التهمة عنه بل قد يكون
مؤيدا لها • ولكن ما زلنا ولذلك الآن ، فسوف يظهر الحق ويهتق
الباطل • أما نحن فسندافع عن هذه البلاد جهد طاقتنا الى آخر نسة من
حياتنا ، وفي أيدينا أوامر مشددة بالمحافظة على هذا الحصن ودفع العرب
عنه ، وأظنهم يحسبون الظروف تساعدهم هنا كما ساعدتهم في بلاد
الشام وبيت المقدس ، ولو كان في رؤوس حامية تلك البلاد الشهامة
الرومانية ما سلموا منها حجرا ، ولكنهم فسدوا وغدروا ولم يكن عندهم
بشل هذا الحصن المنيع ولا رجال مثل رجالنا » • قال ذلك وكأنه شعر
بما يتخلل عبارته هذه من الحدة فصمت برهة ريثما خفت حدته ، ثم
عاد فخطب أرسطوليس قائلا : « أخبرني الان هل أذهبت الرجال لعمل
التحصينات كما أخبرتك ؟ » •

قال أرسطوليس : « وقد بدأوا بعملها منذ وصولنا ، ولكنهم
ناموا الآن التماسا للراحة ولا يقبل الصباح الا وهم قيام على اتمامها •

وقد جئت بكل معدات التحصين وفي جملتها حस्क الحديد لنبذره في قنوات الخندق فلا يستطيع البدوي عبوره قبل أن تدمى قدماه ويمعجز عن المشي ، هذا اذا لم تقتله بسهامنا عند الاسوار قبل وصوله الى الخندق » •

فقال أركاديوس : « وأين هم الأعداء الآن ؟ » •
قال : « أنبأنا الجواسيس أنهم قاموا من العريش بمدتهم ورجالهم . ولكن دون وصولهم الى هذا الحصن خرط القتاد » •
وكان أرسطوليس عالما بمقاصد أبيه حق العلم ، وقد تحقق أن الحامية لا يمكنها دفع العرب ، وكان يحب أركاديوس كثيرا فأراد أن يكشفه بذلك لئلا يكون في جملة من تقع عليهم المكيدة ، ولكنه خاف افتضاح الامر قبل أوانه فتضيق أعمال والده سدى فأبقاه مكتوما الى حين ، ونهض فودع صديقه وخرج يلتمس الرقاد بقية ذلك الليل فودعه أركاديوس وعاد الى مقعده فعادت اليه هواجسه •

أما أرسطوليس فتحول عن الغرفة الى السلم وهو يفكر في شأن أبيه مع الرومانيين ، وقد حمل سيفه بيده لئلا يصطدم بجدران السلم فيوقظ أحدا من الجند • فلما بلغ آخر درجة سار في زقاق ضيق مظلم قاصدا الى غرفته ، فسمع صوتا منخفضا يناديه من جانب الزقاق ، فنظر فاذا شبح قادم اليه أمسك بيده وهو يقول : « لعلك سيدي أرسطوليس ؟ » • فجذب أرسطوليس يده قائلا : « نعم . ومن أنت ؟ » • فسمع صاحب الصوت يقول : « أنا خادمتك بربارة يا سيدي ! » • وعرف صوتها فقال لها : « وما الذي جاء بك الى هنا ؟ وكيف تركت البيت ؟ » • قالت : « جئت لأمر ذي بال سأطملك عليه اذا أذنت لي بخلوة » قال : « تعالى معي الى غرفتي » •

وسارا حتى دخلا بعض جوانب الحصن وأرسطوليس يحاذر أن

يراها أحد خوفاً من وقوع الشبهة عليه ، فلما دخل الغرفة وأضاء المصباح تأمل في وجهها فإذا هي هي بعينها فقال لها : « ما خبرك ؟ » .

قالت : « جئت بالامس لزيارة كنيسة المعلقة كمعديتي ففوجئت بالجنود يدخلون الحصن ويخرجون من في الكنيسة من الراهبات فخرجت معهن يا سيدي ، وكان من أمرنا ما قد علمت ، فلبثت في ذلك الممر أنتظر الصباح لأعود الى منف . وفيما أنا أخاطب رئيسة الدير أخبرتني أن راهبا جاء في صباح الامس يسأل عن سيدي المقوقس ومعه كتاب ، فسألته عن ذلك الراهب فذكرت أنه خرج من الكنيسة في ضحى هذا اليوم ولم تعد تراه ولا تعلم أين هو ، ولكنه من رهبان دير في بركة تيباس يحمل كتابا من البطريق بنيامين الذي فر من بطريق الاسكندرية الى هناك ، ولما علم بقدوم الجند الرومانيين الى الحصن خاف أن يفتضح أمر الكتاب ، فدفعه الى الرئيسة لتخفيه ريثما يستطيع حمله الى أبيك ، فأخفته في صندوقها بين ثيابها ولم تكن تعلم أنهم سيخرجونها مع الرهبان ، فلما جاءوا الدير وأخرجوه من منه لم تستطع لسرعتها ودهشتها أن تخرجه ، فبقي في الصندوق وأخاف أن يصل الى أيديهم وربما كان فيه ما يؤخذ سيدي عليه ! » .

فلما سمع أرسطوليس كلامها سكنت لحظة وهز رأسه كأنه أدرك المراد من قدوم الراهب بذلك الكتاب ، ولكنه خاف سوء العاقبة فاختلف عليه أمره وقال لبربارة : « وما السبيل الى الحصول على الكتاب الآن وأنا لا أستطيع أن أطلبه من أركاديوس صريحا ؟ » .

قالت : « اذن أعطني كتابا الى أركاديوس تقول فيه ان رئيسة الدير تود أخذ أيقونة من صندوقها للصلاة ، وتطلب منه أن يأذن لي في الدخول الى الكنيسة لأخراج تلك الأيقونة فقد تنفع هذه الحيلة » .

فسر أرسطوليس بحيلتها وأخرج قطعة من ورق البردي كانت

معه ثم ناولها إياها بعد أن كتب عليها ما أشارت به عليه « وقال لها :
« لا تطيلي الغيبة فاني في انتظار رجوعك » . فقالت : « طب نفسا ان
غياي لا يتجاوز فجر الغد » .

وهنا تذكر أرسطوليس شقيقته ، فاستوقف بربرة وقال لها : « هل
سافرت سيدتك أرمأنوسة الى بليس ؟ » . قالت : « نعم يا سيدي » .
قال : « ولماذا لم تذهبي معها ؟ » . قالت : « استأذنتها في البقاء
بضعة أيام لأني نذرا علي ثم ألحق بها » . وودعت وذهبت مسرعة .

ولبت أرسطوليس بعد ذهابها وحده ، فنزع خوذة وسلاحه وتوسد
مقعدا يلتمس الراحة بعد ما قاساه من التعب في تصفيف الجند أثناء
النهار : وأخذ يفكر في أمر الراهب وكتابه فأدرك أن الكتاب مرسل من
بنيامين بطريك الاقباط الى والده ، يحثه فيه على مسالمة العرب وبذل
الجهد في التخلص من نير الرومانيين .

أما بربرة فسارت توا الى الرئيسة فتناولت منها مفتاح صندوقها
ومضت الى كنيسة المعلقة فاعترضها الحراس فأرثهم كتاب أرسطوليس الى
أركاديوس فأذنوا لها في المرور .

وكان أركاديوس لا يزال غارقا في هواجسه وقد أطل من النافذة
على النيل يفكر في محبوبته ويبحث عن وسيلة توصله اليها ، وظل مترددا
بين اليأس والامل لا يدري كيف يبلغها قصده ، وكان أكبر همه أن
يطلعها على شدة حبه لها ، ويقنعها ان ما بين أبيه وأبيها لا يحول دون
اقتراحها اذا بادلتها هي حبه . على أنه كان يخشى عاقبة أمره اذا أطلع
أباه على ذلك لعلمه بما في قلبه من الضغائن على المقوقس ، وما بين
الامتين من النفور . ولكن الحب سهل عليه كل عسير حتى أنه أحب أمة
الاقباط كلها من أجل محبوبته ، ومال الى التشجيع لهم رغبة في مرضاتها ،
ونقم على الساعة التي ولد فيها رومانيا ، وعلى الأحوال التي جعلت أباه

يتشيع للأقباط ، لأن كلا الامرين حائل بينه وبينها .

وفيما هو في ذلك اذ دخل عليه أحد رجاله يخبره بأمر بربرة وكتابها فعجب لأمرها وقال : « هات الكتاب منها » فقال : « انها لا تريد أن تسلمه الا بيدها » . قال : « فلتدخل » . فدخلت وحدها وقبلت يد أركاديوس فحالما رآها استأنس بمنظرها ، وخيل اليه أنه رآها مرة من قبل ، ولكنه لم يتذكر اسمها ولا الموضع الذي رآها فيه ، على أنه ابتسم لها وتناول الكتاب منها وسألها عن أمرها فقالت : « نسينا الايقونة يا سيدي في الصندوق ، وهذا هو المفتاح ، فهل تأذن لي بفتحه واخراجها ؟ » . فلما سمع أركاديوس كلامها ازداد استئناسا بها ، وأحب استطلاع حقيقة حالها فقال لها : « كيف تدخلين وحدك بين الجنود وهم يملأون الغرف ؟ » .

قالت : « وماذا يخيفني اذا كنت قادمة الى سيدي أركاديوس ؟ » . وكانا يتخاطبان باللغة القبطية ، فقال لها : « لملك من أهل هذا الدير ، ولكنني لا أرى عليك لباس الراهبات » .

قالت : « انما أنا نزيلة جئت للصلاة ووفاء بعض النذور ، فلما جاء الجود خرجت مع الراهبات ، وقد كلفتي رئيسة الدير أن آتيها بالايقونة » .

فقال : « ولماذا لم تأت بنفسها أو ترسل احدي راهباتها ؟ » .

قالت : « انها لا تجرؤ على مخاطبة سيدي أرسطوليس في شأنها ، فعمت بي لأكله في شأنها ، فأعطاني هذه التوصية » .

فقال : « وكيف تجرأت أنت على ذلك ؟ » .

قالت : « لأنني من بعض خدم قصره » .

فلما سمع أركاديوس ذلك خفق قلبه ، وتوسم الخير من حديثها ، فعمل على تسهم أخبار محبوبته منها فقال : « وأي قصر نعنين ؟ » .

قالت : « قصره بمنف ، لأنني وصيفة لشقيقته سيدتي أرمأنوسة » .
فلما سمع اسم محبوبته همت لها بجوارحه . لكنه تجلد وقال :
« لعلك خادمتها الخاصة ؟ » .

قالت : « نعم يا سيدتي ، بل أنا مريثها ، وإذا ثبت فقل اني بمنزلة والدتها » .

فتنهذ حينئذ أركاديوس ودعا بربرة الى الجلوس فجلست وأخذ يخاطبها همسا لئلا يسمعه أحد « وهي تناجي نفسها : « ها قد قربت من بلوغ المرام ! » .

فقال أركاديوس : « قد أصابت أرمأنوسة باتكالكها عليك ، لاني قرأت صورة الاخلاص على محياك .. فهل عندك للسر مكان ؟ » .
قالت : « اني جعبة أسرار عميقة ، فقل ما بدا لك ولا تخف » .
قال : « هل تعلمين من تخاطبين ؟ » .

قالت : « نعم يا سيدي اني أخاطب أركاديوس بن الأعيرج قائد الجيوش الرومانية في مصر » .

قال : « وهل تعلمين ما بين الرومانيين والاقباط في مصر ؟ » .
قالت : « اذا كنت تعني غير النور بينهما فربما لا أعلم » .
قال : « لا بل اياه أعني ، ويظهر لي انك تعلمين من الاسرار ما لا يعلمه أعظم رجالنا » . فهل تعلمين بما في قلب أرمأنوسة ؟ » .

قالت : « نعم أعلم انها تحب أباهها ووطنها » .
قال : « لا تخيبي ظني فيك ، فأنا لم أسألك عما يخالج صدر كل قبطني ، ولكني أسألك سؤالا أرجو أن تجيبني عنه جوابا يفسح لي مجالا للكلام معك فيما لم أكلم به أحدا بعد » .

قالت : « وما الداعي للتحفظ في الكلام ؟ قل وافصح ولا تخف فان نفسي في قبضة يدك ، وأقسم لك بحبيتي أرمأنوسة ان سر لا يتجاوز

• هاتين الشفتين الا باذنك » •

قال : « قد أحسنت الجواب . فاعلمي ان لي مآربا عند سيدتك
أرمانوسة ، وقد أحبتها حبا شديدا • فهل تعلمين شيئا من ذلك قبلا ؟ » •

قالت : « وأي شيء تعني ؟ » •

قال : « ألم تخبرك بأمر هذا الحب : أو لمحت من حديثها انها

تجبنني ؟ » •

قالت : « يجدر بي أن أكون السائلة هذا السؤال » •

قال : « وماذا تعنين » •

قالت : « أعني أنك أعلم مني بذلك ، فهل تشعر أنت أنها تجبك ؟ » •

قال : « أراك تحاولين اخفاء الحقيقة ، فأنا لم أسألك اذا كنت أنا

أحبها ولكنني سألتك اذا كانت هي تجبنني » •

قالت : « وهذا ما أردته من سؤالي لأن قلب المحب دليله كما يقال ،

فاذا كنت تحبها حبا حقيقيا ، فلا شك في أنها هي أيضا تجبك ! » •

قال : « اني أحبها وعلى هذا فهي تجبنني ، وهذا ما كنت أظنه ،

وقد أحسنت الدفاع عنها وكنتم حبها خوفا مما يخافه أهل الهوى في

مثل هذه الحال • أما وقد تحقق ظني فأنا أعترف لك اعترافا قليلا اني

أحب أرمانوسة حبا جبا يهون على كل صعب » •

فقالت : « ما الفائدة من حبك لها وأنت تعلم ما يحول دون الوصول

اليها ، ولا أظن أن أباك يرضاها لك لما قدمت من الأسباب ، فما

الفائدة من هذا الحب ؟ » •

فهز رأسه وتنهد ثم قال : « لا أرى دون الوصول الى أرمانوسة

صعبا لا يذلل حد هذا السيف » • وأشار الى سيفه •

فقالت : « أنا أعلم أن عزائم الرجال تذلل الصعاب ، ولكن الامر

أمر حقوق قد تكون أرهف حدا من الصوارم • فهل تعصى أباك يا

سيدي ؟ أرى الا تعرض نفسك لغضبه ، فانك أدرى بما ينجم عن ذلك . ولكن هب أنك ذلت كل هذه المصاعب فماذا تصنع بقسطنطين ؟ »
فأدرك مرادها وكان قد سمع بخطبتها له ولم يصدق فقال :
« وأي قسطنطين ؟ »

قالت : « قسطنطين بن هرقل الامبراطور »
قال : « وما علاقته بهذا الامر ؟ »
قالت : « يا للعجب كيف تتجاهل شيئا لا يجهله أحد من أهل مصر ؟ »
قال : « وما هو ؟ قولي ! »
قالت : « ألا تعلم أنها مخطوبة له ؟ »
قال : « مخطوبة ؟ هذا شيء عجيب ، وهل قبلت هي ؟ »
قالت : « لا أدري ، ولكنني أعلم أنها سارت في صباح الامس من قصرها تصحبها الماشية مع أبيها الى بليس لتكون في انتظار خطيبها »
فلما سمع أركاديوس ذلك نهض عن كرسيه بغتة وصاح بها :
« ويحك .. ماذا تقولين ؟ »

قالت : « أقول الصدق يا سيدي ، فانها برجت القصر قبل أن أبرحه أنا ، وهي الآن في طريقها الى بليس »
فاشتد غضبه وجعل يخطر في الغرفة ينظر تارة الى بربرة وطورا الى النافذة ، ثم يتشاغل بقتل شاريه وأخيرا وقف بغتة وقال لها : « يلوح لي أنها قبلت قسطنطين ، فكيف تقولين انها تحبني ؟ لعل قسطنطين أقرب الى قلبها مني ؟ »

فقالت : « لم أقل يا سيدي انها أحبته أو آثرته عليك ، ولكنني قلت انها سارت مع والدها الى بليس ، وأظنها فعلت ذلك ادعانا لأمره ، وهو لا يستطيع مخالفة الامبراطور . ومهما يكن من أمر فانها الآن في طريقها الى بليس ، ولا تدري متى يأتي خطيبها للاقتراح بها . ها اني أخبرتك

بالأمر كما وقع ، وأما قلبها فاسأل قلبك عنه » .
فنظر اليها مغضبا وقال . « أما قلبي فيحدثني بأنها لا تميل الى
سواي ولو أدى ذلك الى عصيان أبيها » .
فقالت : « كيف تتوقع منها ذلك وهي فتاة ، وقد رأيتك وأنت شاب
باسل تتردد في مخالفة أبيك اذا منعك منها » .
فحملق وقد احمرت عيناه وقال : « كيف تقولين اني أتردد وأنا
أقول لك انه لا شيء يمنعني من نيلها الا الموت » . ووضع يده على
قبضة حسامه وقال : « ما دام هذا الحسام الى جانبي فلن يحولني
شيء عن ودها ولو قاومني قسطنطين ، بل لو قامت علي جنود أبيه
برمتها ، فما أنا براجع عن عزمي الا اذا كانت هي راضية به .. ولكن
من يخبرني بما في ضميرها » .
فأدركت بربرة أنه مصمم على الاقتران بها ولو حالت دونه المصاعب
فقالت : « أن في معرفته حلا لهذه المشكلة » .
قالت : « هب أنها لا ترضاه وأنها باقية على حبك ، فما عقبى
ذلك ؟ »
فالتفت اليها وقد استل حسامه وهزه قائلا : « أما اذا تحققت
بقاءها على ودي فاني أحارب في سبيل الوصول اليها جنود هرقل كلها ،
ولا أنفك حتى أنالها أو أقتل ا » .
قالت : « خفف عنك ، واعلم أن ليس دون ذلك جنود هرقل فقط ،
ولكن دونه أيضا غضب أبيك وأبيها » .
فقال : « ولكن اذا كان قلبها مثل قلبي فانا لا نخشى شيئا ، ولو
قامت علينا جيوش الدنيا كلها ! فاخبريني عن كنه نيتها ، وليكن في كلامك
هذا القول الفصل : فأما أن أوطن النفس على أرمافنوسة وأناضل عنها بهذا
هذا السيف ، وأما أن أقول عليها وعلى الدنيا السلام . قولني ولا تطيلي

الكلام .

فلما رأت ما هو فيه من الغضب نظرت اليه مبتسمة وقالت : « اذا كنت تحب أرمانوسة فتفضل واجلس لأنيك بمكنون قلبها » .
 فأجابها وقد هدأ غضبه : « نعم اني أحبها . . قولي اذن » . وجلس .
 فقالت : « اعلم يا سيدي أن أرمانوسة تحبك حبا ليس بعده غاية المستزيد ، أما قسطنطين فهي لا تعرفه ، ولكن قلبها عالق بأركاديوس البطل الهام . ولم آت هذا الدير الا لأستطلع مكنونات قلبك وأعلم مقدار حبك لها . أما وقد عرفت ذلك فقد هان الصعب وخاب قسطنطين ، ولن يدرك شجرة من رأسها . وها أنذا قد أخبرتك الحقيقة فتدبر الامر »
 ولا ريب عندي أنها ثابتة في حبك ولا ترضى عنك بديلا ، مهما يكلفها ذلك من المشاق ، وبخاصة اذا علمت بما دار بيننا قبل مجيئي اليك . وقد فارقتها على أن أقابلك وتتواطأ على وسيلة تنقذها من مخالب ذلك الرجل » .

فأبرقت أسزة أركاديوس ونظر الى بربرة وقد فرح قلبه وأشرق وجهه وقال : « أما والحال على ما تقولين فلا نخاف أحدا ، وأنا لها وهي لي ، ولا عبرة بما يسعى فيه الناس ، فهم انما يضربون في حديد بارد . أما قسطنطين فاذا لم يؤخذ بسيوف العرب في حرب الشام فاني قاتله بحد هذا الحسام ، ولكنني أحب أن تعلم أرمانوسة ذلك لتزداد ثباتا حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا . وما عليك الآن الا أن تذهبي اليها وتخبريها بعزمي وتقولي لها ان أركاديوس حبيب ثابت في محبتك ثبات الجبال ، فائتيني أنت وانتظري النرج من عند الله ومن سيف أركاديوس » .
 فقالت : « أما أخبرها بهذا فعلي أنا العاجزة التي تتعهد ببذل نفسها في سبيلكما ، فطيبا نفسا وقرا عينا ، وغدا ان شاء الله أدبر حيلة في الذهاب اليها وأطمئنها على ما دار بيننا وأعلمك بما سيكون ، فقد سرنسي

كثيرا ارتباط قليكما » •

ثم فكرت قليلا وقلبا فرح بها علت فرأت أن تثبت قوله بالعمل وتعود الى سيدتها بما يحقق أملها فقالت : « ولكن يا سيدي ما الذي يثبت قولي لها ويوطد علاقة المحبة بينكما وأتما الى الآن لم تتشافها صريحا ؟ » •

فلبت أركادبوس يفكر ثم قال : « صدقت .. ولكن ماذا عساي أن أرسل اليها ، وما أنا على استعداد لذلك ؟ ثم مد يده الى خاتم في بنصره يريد اخراجه ولكنه توقف هنيهة ممسكا بالخاتم كأنه يهم بسحبه ويعترضه خاطر فيمنعه ، وأخيرا نزع وقدمه الى بربرارة وقال : خذي هذا الخاتم فإنه خاتمي ، وقد نقش عليه النسر الروماني واسمي ، وسلميه اليها يدا بيد ، واحذري أن يعلم أحد بذلك • وأعلمي ابي قد سلتك شرفي ، ووضعت فيك ثقتي ، وهذه هي أول مرة خاطبتك فيها فلا تخيبي ألمي • وأطلب اليك أن تحفظي ما دار بيننا ، واحذري أن تفوهي به أمام أحد • فانك اذا أصغيت الى مقالي وسلكت مسلكا يرضيني نلت خير الجزاء • أما اذا بحت بالأمر أو خالفت وصيتي فأنت تلعين جزاءك » •

فتناولت الخاتم وقبلته وقالت : « طب نفسا وقر عينا ، فاني الخادمة الائمة لك ولسيدتي التي هي أعز لدي من روحي » •

ثم نهضت فقبلت يده وطلبت اليه أن يأمر بمن يوصلها الى صندوق رئيسة الدير ، والا يتعرض لها أحد بشيء ، فنادى خادمه الخاص وأوصاه أن يرافقها الى حيث تريد ، فسارت وأخرجت الكتاب خلصة وتظاهرت بحمل الايقونة ، ونزلت حتى أتت مقام الرئيسة والراهبات فأعطتها

الايقونة ، وأخبرتها أنها أطالت المكث هناك حتى تمكنت من تدبير الحيلة لآخراج الكتاب وكانت قد خبأته في جيبيها ، وأرادت الذهاب به لتوها الى سيدها أرسطوليس ولكنها خافت أن تقع في أيدي الحراس فيفتضح الامر ، فلبثت بقية ذلك الليل حتى اذا أقبل الصباح ذهبت بالكتاب اليه ، فاذا بمو في انتظارها على مثل الجمر ، فلما رآها مقبلة نهض للملاقاتها وأدخلها غرفته وسألها عن الكتاب ، فمدت يدها الى ثوبها وأخرجت اسطوانة من القصب الفارسي دفعتها اليه ، فتناولها وقد علم أن الكتاب في داخلها ففتحها من أحد طرفيها وأخرج الكتاب فاذا هو رق من جلد مطوي ، اذ كان أكثر استخدام الرق للكتابة في بلاد العرب وعند سائر أهل البادية ، أما المصريون فكانوا يكتبون على البردي ، ففص الكتاب وقرأه فاذا هو مكتوب بالقبطية من البطريك بنيامين الى المقوقس قتلاه وهاك ترجمته :

« ولدنا بالرب يوحنا قرقت حاكم مصر »

« قضي علي بالاثراء في هذا الدير ، وأنت تعلم اني انما أبعدت اليه ظلما وعدوانا بأمر أعدائنا دينا ووطننا ورئيسهم البطريق الاسكندري ، لأنهم ضلوا سواء السبيل وحرفوا كلام الله عن مواضعه . ولست أنا أول من صبر على هذا الاضطهاد ، فأنت تعلم أن كثيرين من البطارقة ذهبوا ضحية هذا الضلال . وأنا لا أطلب لهم الا الهداية الى الحق ، ولا أدينهم ولكن الله يدينهم . وأما ما أوجب كتابة هذا اليك فهو أنني علمت عن ثقة أن العرب الذين قد ظهروا بالدعوة الى الاسلام والجهاد في سبيله قد حاربوا الروم في العراق وفارس وسورية وفلسطين وتغلبوا عليهم . وأخذوا البلاد من أيديهم . والنصر من عند الله يؤتية من يشاء من عباده . وقد علمت أنهم قادمون الى مصر لاتتزعما من أيدي أعدائنا ، وأنا أعلم انك لا تستطيع المخاطرة بالانحياز اليهم كما أخبرتني غير مرة ، لئلا يعود

ذلك علينا بالوبال » وقد أعجبني ذلك منك لأنه دليل على الحزم والدراية ولكنني واثق بثباتك مع سائر أولادنا جماعة الاقباط الذين أقتل الدهر كاهلهم بالاستبداد والعسف ، وقد مضت عليهم قرون وهم يشنون من وطأة هذا الظلم ولا مجير لهم •

« وقد رأيت في ليلتي هذه حلما تفاءلت منه خيرا ، وعلمت ان هؤلاء العرب أرسلهم الله لانقاذنا من أيدي الروم • على أننا لو أردنا دفعهم ما استطعنا اليه سبيلا ، لأن الله منحهم النصر فيما قاموا به ، فلم يهاجسوا حصنا الا فتحوه ، ولا نازلوا جندا الا هزموه ، ولا يخفى عليك أن الروم قد دالت دولتهم ، ولو أراد الله نصرهم ما خرجت بلاد الشام من أيديهم • واعلم أيضا أن هؤلاء العرب قد قاموا يدعون الناس الى دينهم ، فأما أن يقبلوا الدعوة أو يحاربوا الى آخر نسمة من حياتهم أو يستسلموا ويدفعوا الجزية • أما أنا فلا أرى أن تخرجوا من دينكم الذي ولدتم عليه ، ولكن الاستسلام ودفع الجزية لهؤلاء العرب أولى بنا وأقرب الى خلاصنا من الظلم • فاذا كنت لا تزال على ما أعلم فافعل وأنقذ البلاد من الشر ، واحذر أن تتحول عن عزمك ، وها اني أصلي ليلا ونهارا وأدعو الله أن يأخذ بيدك ويلهمك ما فيه خيرك وخير البلاد •

« وأخيرا أهديك البركة وأدعو لك ولسائر أبنائنا وأخواننا بالروح ، والرب يحفظكم •

البطريك بنيامين

فما جاء على آخر الكتاب حتى كلال العرق جبينه ، وتذكر ما قام بين القبط والروم من الضغائن وما قاساه الأولون من الاستبداد والجور ، ثم لف الكتاب وخبأه في مأمن وقال لبربارة : « اذهبي بسلام واذا رأيت أبي فاخبريه بأن له معي كتابا أريد اطلاعه عليه » • فقبلت يده وعادت تريد

الخروج فتأداها فرجعت فقال : « الى أين تذهين الآن ؟ » • قالت : « الى الدير » فقال : « لا تطيلي مقامك هنا لئلا تستبطنك سيدتك فيضطرب بالها لما نحن فيه . فأسرعي بالرجوع وأخبريها أننا في خير » •
قالت : « ولكنني أخشى ألا أدركها في عين شمس فيصعب علي المسير وحدي الى بليس » •

فقال : « وما العمل إذن ؟ » •

قال : « الرأي رأيك يا مولاي ، وحبذا لو أذنت أن يرافقني اثنان من رجالك الى عين شمس . فاذا كان الراكب لا يزالون هناك انقضت اليهم وعاد الرجلان ، والا رافقاني الى بليس ، والأمر أمرك » •
فقال : « هل علمت أن أبي سار برفقة أرمأنوسة ؟ » •

قالت : « بعث النيا ونحن في منف أن نسير بسيدتي الى عين شمس حيث يكون هو في انتظارنا فيرافقها الى بليس » •
قال : « الأرجح أنك ستشاهدين سيدك في عين شمس ! فإليك هذا الكتاب وأدفعه اليه يدا بيد واحذري أن يراه أحد غيره » • ومد يده وأعطاهما الاسطوانة وفيها الرق المعهود •

فتناولته وقالت : « وأين أخبئه ؟ فإني أخاف اذا رآه أحد من الروم أن يأخذه مني وينكشف الأمر ! » •
قال :: « اجعليه في ثيابك وهم لا يفتشونك لأنك امرأة . فضلا عن أنك من خدم أبي » •

ثم أمر باثنين من رجاله ، فأتيا ، فأوصاهما بأن يرافقاها الى عين شمس وهي على مسيرة ساعتين أو ثلاث من الحصن ، فاذا ظفرا بركب والده هناك تركاها وعادا ، واذا كان الراكب قد أقلع رافقاها الى بليس • وأعطاهما كتابا الى أركاديوس ليأذن لهما بالخروج من الحصن ، وأمر لهما بركبة يجرها ثوران قويان ، فأخذتا الكتاب وسارا الى دير المعلقة ،

وكان أركادايوس هناك يفكر في بربرة وأرمانوسة فلما جاءه الجنديان بكتاب أرسطوليس أذن لهما ، وقرر الى بربرة بطرف خفي كأنه يوصيها باتمام الأمر مع أرمانوسة والعودة اليه بالجواب حالا ، فأشارت اليه بعينيها مجيبة •



خرج الثلاثة من الحصن وقد مالت الشمس الى المغيب وليس في طريقهما الى عين شمس الا الفياض والبساتين من الكرم والجميز والتخيل وبعض الابنية ، ومعظمها كنائس وأديرة ، وفي بعض هذه البقعة مما يلي جبل المقطم بنيت بعد ذلك القسطنطينية والقاهرة •

وركبت بربرة المركبة وتناوب الجنديان الركوب على الثورين فمروا بتلك الحقول ، وما زالوا يجدون السير حتى دنوا من عين شمس وكانوا قد عرفوا مكانها من مسلتها التي تشاهد عن بعد ، والمدينة اد ذاك قد تداعت الى الخراب وتهدم سورها سوى جزء صغير منه ، أما هيكلها الذائع الصيت فبعد أن كان مدرسة تتسابق اليها الأمم من سائر أقطار العالم لاقتباس علوم المصريين وفلسفتهم وكهاتهم أصبح خرابا بلقعا ينقع فيه البوم ، ولم يبق منه الا بعض الجدران والاعمدة • وأما المسلمتان العظيمتان عند بابه فكاتتا لا تزالان قائمتين شامختين تناطحان انسحاب ، يكلل رأس كل منهما تاج من النحاس قد صديء واخضر فلما نزل عليه المطر سال الصدى على ما تحته ، أما الاصنام الهائلة التي كان المصريون القدماء يعبدونها ابان دولتهم فكانت لا تزال قائمة ، وقد غشاها الذل وغطاها التراب ، على أن ضخامتها ما برحت داعية الى الرهبة •

فلما بلغوا المدينة ترحلوا واجتازوا السور فاذا بالمدينة خالية خاوية ،

فأرادوا الاستفهام عن أمرها فشاهدوا بيوتا حقيرة قائمة على أنقاض
السور من الخارج فتقدم الرجلان الى بيت منها وهما في لباس الجند ،
فلما رآهما أهل البيت ذعروا وفروا وتركوا البيوت وشأنها . ثم سمع
الجنديان نباح الكلاب وشاهدوا كلبين كبيرين هجما عليهما ينبحان
ناحا شديدا فناديا أهل المنزل فلم يظهر أحد ، ثم سمعا خوار الثورين
فالتفتا فاذا بهما قد ذعرا لنباح الكلاب فخافا أن يفرا بالركبة ويتبها بين
الأشجار ، فرجع أحدهما وأمسك الثورين وشدهما الى شجرة بجبل من
ألياف النخيل ، وعاد الى رفيقه وبربارة وكانا قد مشيا وهما يحاذران
أن يعضهما كلب حتى بلغا بيتا منها فاذا بالباب مغلق فطرقاه فلم يجيبهما
أحد فعجبا لذلك ، وخافا أن يكون في الامر خطر ، فمضيا الى بيت آخر
والكلاب تنبح ، فلاقهما رجل شيخ يتوكأ على عصاه وقد حناه الكبير
وكله الشيب ، وأرسل شعر حاجبيه على عينيه وتدلّت لحيته على صدره ،
فتقدما اليه وسلما فحياهما وجلس الى حجر يلمس الراحة ، فسأله
عن سبب ما شاهدوه من نقور هؤلاء الفلاحين وفرارهم فقال : « وهل
أنتم من جند الروم ؟ » . قالوا : « بل نحن من جنود مولانا المقوقس ، وما
سبب سؤالك ؟ » .

قال : « ان على سؤالي هذا يتوقف جوابي ، أما وقد علمت أنكم
من اخواننا القبط وتحققت ذلك من لهجتكم فأخبركم أن سبب نقور
هؤلاء الناس منكم أنهم رأوكم بلباس الجند فظنوكم من جنود الروم ،
ولا يخفى عليكم ما آلت اليه حالنا من معاملتهم لنا بالقسوة والجفاء ، وكم
مروا بنا مثل مروركم هذا وكلفونا ما لا طاقة لنا به من الأثقال حتى
كانوا اذا رأوا عندنا متاعا أخذوه ، أو حيوانا ساقوه ، أو طعاما أكلوه .
وآخر ما لاقيناه منهم منذ بضعة أيام اذ مرجاعة منهم يريدون قصر الشمع
فلم يعادروا شيئا في طريقهم الا أفسدوه ، فداسوا الزرع ، وساقوا

الماشية ، ونهبوا البيوت ، ولما كلمهم ابني وتضرع اليهم أن يشفقوا على حالتنا أوسعوه ضربا ولكم ! فلا لوم على قومنا في الفرار ، وأنا والله لولا عجزى عن الركض ما وقتت أمامكم . فالحمد لله على ما حصل ، واعلموا أننا رهن اشارتكم في كل ما تريدون ، فانزلوا على الربح والسعة » .

قال أحد الجنديين واسمه مرقس : « ألى هذا الحد تخافون رجال حكومتكم ؟ » . فتأوه الشيخ تأوها عميقا ورفع نظره اليهما وقد بل الدمع عينيه ، وقال : « كآلي بكما لغضاضة شبابكما وحدائة سنكما لم تذوقا ما ذاقته هذه الشيبة » ولا قاسيتما ما قاساه هذا الشيخ ! الحق أن حالتنا مع هؤلاء الروم يتفتت لها الصخر ، وقد مضى علي ثمانون عاما لم أذق فيها الراحة يوما ، ولا سمعت خيرا مفرحا . وقد وقعت في الخطر مرارا ، وذقت المذاب ألوانا . وكلم تمنيت أن يملك بلادنا هذه أهل البجة أو أهل العيشة ، فانهم أقرب الى الشفقة والرحمة من هؤلاء . ويلوح لي ان الزمن المنتظر قد اقترب ! » . وكان يكلمهما وهو مطرق لانحناء ظهره وهما مصغيان لكلامه حتى شغلا عن سيدهما والسؤال عنه . ولكن بربرة ذكرتهما بما جاءوا من أجله ، فقال مرقس للشيخ : « لقد سرنا حديثك ولذا لنا كلامك الذي هذبتة الايام وحنكته السنون ، ولكننا نسألك قبل اتمام الحديث عن ركب مولانا المقوقس ، هل مريكم من هنا ؟ » . قال : « نعم انهم باتوا البارحة هنا وأصبحوا فجر هذا اليوم وأقلعوا شرقا وهم الذين بشرونا بقرب الفرج » .

فلما رأى الجنديان الا بد لهما من الذهاب الى بليس مع بربرة ، وان الشمس قد مالت الى المغيب ، عولا على المبيت حيث هم ، فاذا أصبحوا ساروا الى بليس . فمكثوا وقد طاب لهم حديث ذلك الشيخ وقال له مرقس : « هل تأذنون لنا بالمبيت عندكم الليلة ؟ » .

قال : « على الرجب والسعة يا ولدي » . ونادى أولاده فظهروا من وراء الجدران حيث كانوا مختبئين ، وأسرعوا مهرولين ، بعضهم قد ركب على ثور ويجر خلفه حمارا يحمل بعض البرسيم ، وآخر يسوق أمامه الماشية ، وفيهم شاب قد ربط يده الى عنقه ، وكان مع ذلك يحمل بيده الاخرى عصا طويلة يسوق بها سربا من الأوز ، فالتفت الشيخ الى مرقس وقال : « هذا هو أصغر أولادي الذي أشبعوه ضربا كسا خبرتك » . فتقدم الاولاد وهموا بتقبيل يدي الجنديين وهم يرتجفون خوفا ، فابتدرهم والدهم قائلا : « انهما يا أولادي من رجال المقوقس ، فلا تخافوا » . وأمرهم بأن يعدوا لهما طعاما ومقاما للمبيت ، وأن يقدموا علفا للثورين ويربطوهما بعمود بالقرب من البيت .

فقال الجنديان : « هلم بنا يا شيخنا ندخل هذا الهيكل فنتم حديثنا هناك ، واذا تمبت أسندناك » . فنهض على عكازه وأعاناه بعض أولاده فدخلوا جميعا من ثغرة في السور حتى بلغوا الهيكل فاذا بأثار وطعام وأقدام ، فعلموا أنها آثار المقوقس وحاشيته ، ثم جلسوا على أحجار ملقاة هناك وكانت من أحجار الهيكل فسقطت وفي جملتها قطعة من مسلة ، وقد قام في صحن الهيكل شجرة من الجميز هائلة تظلل ذلك المكان ، فجلس كل منهم على حجر وأخذوا بأطراف الحديث والشمس قد آذنت بالزوال ، وأخذ الشفق في الظهور واستولى السكون على تلك الخرائب حتى يكاد الرجل يخشى رهبة المكان ، واذا التفت حوله فلا يرى الا انصابا عظيمة تناطح السحاب ، وأصناما ترعب قلوب الأبطال ، ولولا ذلك ما دأب لها القراءة العظام ! .

فلما استتب بهم المقام قال مرقس للشيخ : « رأيناك تبشرنا بقرع الفرج ، فماذا عنيت ؟ » .

قال : « قلت يظهر أن الفرج قد اقترب وأعني أن الله قد أراد ابتذاننا

من هؤلاء الظالمين • ولكنني أتكلم الآن وأخاف أن يسمعي واحد منهم » • فقال الجنديان : « قل ولا تخف ، ليس منهم أحد هنا » • فقال الشيخ : « سمعت من بعض جالية الشام أنه ظهر في بلاد العرب رجل عظيم دعا الناس الى دين جديد ، والتفت حوله عصاة قوية من الرجال الاشداء ، حاربوا الروم في بلاد الشام وغلبوهم ، ويلوح لي أنهم لا يقعدون عن طلب مصر فانها أخصب بلاد الروم وأكثرها تنجاً ، ولا أظنهم يلاقون في فتحها مشقة • وقد سمعت بالامس من بعض رجال مولانا المقوقس أن هؤلاء العرب قد عولوا على القدوم إلينا ، والظاهر أنهم لا يزالون بعيدين » •

فقال مرقس - وكان أفصح من رفيقه جرجس وأكثر منه جرأة :
« ما الموجب لظنك ببعدهم ؟ » •

قال : « لأنني أرى سيدي المقوقس ذاهبا بموكبه يهتم بتزويج ابنته أرمافوسة بقسطنطين بن هرقل ، وهذا ما علمته أيضاً من هؤلاء ، فلو كان العدو على الابواب ما حمل ابنته الى بليس وهي في طريق العدو اذا جاء من ناحية الشام » •

فقال مرقس : « ان المصائب قد كتبت علينا ولا ندري عاقبة هذه الحروب ، ولكننا نرجو النصر لنا ، لأن حصوننا ومعقلنا منيعة ، وليس هؤلاء العرب الا فئة قليلة من البدو يركبون الجبال ويرعون الماشية ، وأما جنود الروم فرجال محنكون ، وأما هرقل فانه شديد البطش • وقد حدثني أبي أنه هو الذي أخرج الفرس من مصر بعد أن ملكوها ورسخت أقدامهم فيها » •

فهز الشيخ رأسه ومشط لحيته بأصابعه كأنه تذكر أمرا ساءه ، وقرر الى مرقس وقال : « لقد ذكرتني يا ولدي أموراً كادت تذهب من ذاكرتي • نعم أن هرقل أخرج الفرس من مصر بالقوة ، ولكنه لا

يستطيع دفع العرب عن بلاده • والظاهر لنا من حاله وحالهم أن دولته قد دنا أجلها لأن النصر مرافق لهؤلاء القوم ، فلم يهاجموا مدينة الا فتحوها ، حتى ملكوا الشام والقدس والعراق واليمن وغيرها ، ولم تستطع جنود الروم الوقوف أمامهم ، وما ذلك الا لما أراده الله من انقسامنا وقيام بعضنا على بعض ، والا ما كان العرب ولا غيرهم يقوون على جندنا • وكيف يستطيع هرقل دفع هذا العدو عن بلاده وهو على ما تعلم من حاله معنا ؟ أظن القبط اذا جاءهم العرب محاربين يقاومون حبا في الروم ؟! بل أقول لك وأنا أحد الأقباط اني أفضل أية دولة تحكم هذه البلاد على دولة الروم لما قاسيناه من جورهم واستبدادهم! نعم انهم مسيحيون مثلنا ولكن الوثني خير منهم ، أسألوا هذه الشبية فتنبئكم بما قاسيناه من ذلك ، فكم هدموا من كنائسنا ، وأهلكوا من بطاركتنا ، وجردونا من أملاكنا ! أهذه أعمال مسيحين ؟ • أظنوا اني هذه البساتين فاني أعسل في فلاحتها مع أولادي وأحفادي فنزرعها كرما ونخيل فلا يبقى لنا من النخيل الا بعض القطع نجعلها سقوفا لبيوتنا ، وقليل من التمر نأكله ، ولا يكاد يبقى لنا من الكرم الا بعض العنب نصطنع منه شيئا من الخمر ، وأما الباقي فيأكله المارون من جند انروم ويقتصبه الجبابة وغيرهم ، فضلا عما يسوموننا من الخسف والذل • أما ماشيتنا فنصيبها مثل نصيب الزرع أيضا ، وبعد أن كانت ثيراننا عشرة نستخدمها للركوب أو لجبر الأثقال لم يبق لنا منها الا هذا الثور • وقد سمعت من رجل قدم من الشام حديثا أن العرب بعد أن فتحوا الشام أمنوا النصارى على أموالهم وأعراضهم ، وأباحوا لهم الصلاة في معابدهم لا يعارضهم أحد في ذلك ، أليسوا اذن خيرا من الروم ؟ » • ولكن آه من حظنا نحن المصريين فان الشقاء قد كتب علينا ! وأذكر يوم جاء الفرس بلادنا منذ أربعين سنة - وقد كنت كهلا ، وكان

مقامي في الاسكندرية أتجر في الغلال والذرة وكنت في سعة من العيش -
 أنا سمعنا أن دولة الفرس قامت على الروم ، وكان ملك الروم اذ ذاك
 يدعى (قوقا) وكان ضعيفا فحاربوه وفتحوا الشام وقدموا مصر .
 وكان ملك الفرس يدعى كسرى وقد اشتهر بشدة البأس ، فلما سمعنا
 بقدوم جنده الى مصر قلنا في أنفسنا عساهم أن يكونوا خيرا لنا من
 الروم فننجد من جورهم ، ولكن والأسفاه ! لم يمض زمن حتى علمنا
 بدخولهم بلادنا ، وكانوا كلما دخلوا بلدة قتلوا أهلها وخرّبوا
 كنائسها ، وكسروا نخيلها ، وقد أحصى عدد ما أحرقوه من الاديوار
 فبلغ ستمائة ، فأسقط في يدنا وخفنا عاقبة أمرهم الى أن وصلوا الى
 الاسكندرية وأخذوها ، فأظهروا لنا في بادئ الامر أنهم يريدون بنا
 خيرا ، ولكنهم عاملونا بمدئذ مغاملة لم يعاملنا بمثلها الروم ، وذلك أنهم
 دعوا أهل المدينة الى الاجتماع زاعمين أنهم يريدون الانعام عليهم
 واکرامهم ، فتقاطر الناس أفواجا الى مكان الاجتماع ، ولم أستطع
 الذهاب اليه لبعده وانشغالي بعملي . وكان اجتماعهم في قاعة كبيرة
 منيعة السور ، في المكان الذي كان أجدادنا المصريون يعبدون فيه
 الصنم سيرايس . وحكاية هذا الصنم تذكرني بما أتاه أباطرة الرومان
 القدماء من الخيز لبلادنا . وما جاء به هؤلاء المتأخرون من الشر ! »

- ٤ -

المسيحيون ومظالم الرومان

قال مرقس للشيخ وقد حلا له حديثه لكثرة ما أفاد منه : « وما
 حكاية الصنم سيرايس يا سيدي ؟ » فقال الشيخ : « لا يخفى عليكم

يا أولادي أن أجدادنا المصريين كانوا يمدون الاصنام التي ترون بعضها أمامكم ، وأمثالها كثير في أنحاء القطر ، وبعد أن ظهرت الديانة المسيحية ودخلت هذه الديار تنصر أجدادنا الاقباط وبقي حكامنا الروم على اعتقادهم الوثني ، وأذاقونا العذاب والاضطهاد ألوانا ، وأشد تلك الاضطهادات ما هو معلوم بيننا من أمر الامبراطور دقلديانوس المشهور بظلمه ، وهو الذي قتل الشهداء منذ ثلاثة قرون أو أكثر فكان ذلك شر ما جناه الروم علينا ، حتى اذا ما تولى قسطنطين الأكبر اعتنق الديانة المسيحية وحى المسيحيين . وكانت أمه القديسة هيلانة التي ذهبت وعثرت على صليب المسيح كما تسمعون .

« غير أننا ما زلنا نقاسي الاضطهاد ممن خلفوه الى أن تولى العرش الامبراطور الطيب الذكر ثيودوسيوس الأعظم منذ قرنين ونصف قرن ، وكان حسن الايمان فأفرج عن الاقباط ، وبعث الى مصر بهدم الهياكل الوثنية وبناء الكنائس على رغم الشعب الروماني . وكان في الاسكندرية هيكل اسمه هيكل (سيرايس) فيه صنم هائل كسروا فكه بالفؤوس فتراكضت منه أسراب من الفيران كانت تعيش فيه فسقطت منزلته لدى الوثنيين أنفسهم . ومن عهد ثيودوسيوس هذا ثبتت الديانة المسيحية وأخذت تنتشر ، وعمد المصريون الى اقامة الكنائس حتى قام ما قام من الانشقاق بين لاهوتي الاسكندرية ولاهوتي القسطنطينية بسبب منبالة الطبيعة والطبعتين ، مما جر علينا هذا البلاء ، والبقية تعرفونها . »

قال مرقس : « وماذا كان من أمر الفرس واخواننا الاقباط بعد أن جمعوهم في مكان واحد ؟ » . قال الشيخ : « سمعنا أنهم قتلوا الآلاف منهم صبرا ، فلما سمعت بالواقعة حملت أولادي وأهلي وما خف حملهم من المال ، وخرجت حتى جئت هذا الموضع وأقمت به ، وقد خرت كل ما ملكت يداي ، ورضيت بالفقر والمسكنة تخلصا من الموت . أما

الفرس فأنهم تمكنوا من دخول القسطنطينية وهي عاصمة الروم كما تعلمون ، ثم علمت أن الروم لما رأوا ضعف ملكهم (فوقا) عزلوه ونصبوا (هرقل) هذا ، وكان قبلا واليا على افريقية ، فجاء القسطنطينية وقتل فوقا وأخوته ، وحارب الفرس مرارا ، ثم يس من الفوز ، فعزم على أن ينقل مقر ملكه الى تونس ، ولكن ذلك عظم على الروم ، وقام البطريرك اذ ذاك وشد أزره ، فرجع الى محاربة الفرس ، فمكث الله منهم حتى دفعهم عن بلاده ، وعادت مصر الى حوزته ، ولكنه عاد الى ما كان عليه أسلافه من الاستبداد بنا واضطهاد بطاركتنا ، وكان على الاسكندرية البطريرك بنيامين التقي الورع فاضطهده واستبدل به بطريركا اسمه قورش ، وأراد هذا القبض على بنيامين ففر من الاسكندرية الى بيرة أسقيط ، وأقام في (تيباس) حيث يكثر نصارؤه وهو هناك الى الآن .

« على أن هرقل لم يكتف بهذا العمل ، فلما فاته القبض على البطريرك قبض على أخيه مينا ، وكان لا يزال في الاسكندرية وأرسله مغلولا الى القسطنطينية . وقد سمعت أن هرقل تملقه استجلابا له حتى يسلم برأيه وهو التعليم بالمشيئة الواحدة والطبيعتين ، فلم يذعن له ، فأمر به فطرح في النار حتى كاد يحترق ، ثم أخرجه منها وجعل يلكمه على فكيه حتى سقطت أسنانه ، وأمر بكيس فمليء رملا ثم وضعه فيه وأمر بالقائه في البحر حيث مات شهيدا ا » .

وسكت الشيخ قليلا ، ثم استأنف حديثه فقال :

« هذه حكايتنا يا ولدي حكيته لكم كما شاهدتها ، وتحديثي النفس أحيانا أن هؤلاء العرب يعاملوننا معاملة الفرس والرومان فتكون البلية الثانية سرا من الاولى ، ثم تخطر ببالي معاملتهم للبلاد التي افتتحوها الى الآن فأراهم أفضل لنا من الروم » .

ولم يستطع الشيخ أن يتم حديثه لشيخوخته وضعفه ، وكان الجنديان

وبربارة وسائر الحضور مصغين اليه وقد ارتاحوا الى حديثه واستأنسوا به ، فالتفت مرقس اليه وقال : « قد سرنا حديثك أيها الشيخ ، ولك شكرنا على ما جئتنا به من الفوائد ، وقد صدقت في قولك بأننا خلقنا لنشقى » ولكننا نتوسم في قدوم هؤلاء العرب خيرا . أما اذا غلبتهم الروم فانتنا في حوزة الروم نحارب بسيفهم ، لنا ما لهم وعلينا ما عليهم ، والا فاننا نكون مع الغالب » .

ثم نهض من مجلسه ودنا من الشيخ وهمس في أذنه قائلا : « ان مولانا المقوقس مصمم على ما ذكرت ، فاذا رأى الغلبة للعرب انحاز اليهم ، وهو سيدنا ووالينا ، ولولا الحامية الرومية المراقبة لأعماله لفتح للعرب صدر بلاده ولم يرم عليهم نبلا » .

فقال جرجس - الجندي الآخر - وكان يسمع حديثهما : « ولكن كيف يكون هذا عزمه ويزوج ابنته لقسطنطين بن هرقل ويحملها بنفسه الى بليس ١٩ » .

فقطع الشيخ عليه الكلام قائلا : « لا تتجاهل يا ولدي الحقيقة . كيف تستغرب ذلك وأنت تعلم أن تمنعه يجر وبالا على جميع الأقباط ، وهو يود كتمان هذا الامر عن كل انسان الى أن يقضي الله ما يشاء » .

أما بربرة فكانت مستأنسة بالحديث فلما ذكرت حكاية أرمافوسة وقسطنطين تذكرت سيدتها وما تحمله اليها من الاخبار المهمة ، وخافت أن يسبق السيف العدل فيأتي قسطنطين ويأخذ سيدتها قبل وصولها اليها بخبر أركاديوس ، فقالت للشيخ : « اسمح لي أن أتطفل عليك بالسؤال عن أمر يهمني ، سمعتك تقول خلال كلامك أنك عرفت رجلا قادما من الشام ، وهو الذي أخبرك عن معاملة العرب لأهلها ، فهل أخبرك بشيء عن مجيء قسطنطين » .

قال الشيخ : « أفئنه قال لي ان قسطنطين قتل في بعض المواقع ،

ولكنني لم أتحقق الخبر » •

فلما سمعت بربارة ذلك اختلج قلبها في صدرها من الفرح » وأحبت أن ترى المخبر فقالت : « ان الخبر اذا تحقق كان من الالهية بـمكان ، اذ يترتب عليه عودة سيدتي أرمانوسة الى منف » •

فقال جرجس : « هل تظنين أنها تحزن اذا مات قسطنطين ؟ » •
قالت : « لا أدري يا سيدي ، فقد تحزن لأن اقترانها بابن أمبراطور الرومان شرف عظيم ، ولكن الله يفعل ما يشاء ، وأود كثيرا أن أعرف الحقيقة لأن أرمانوسة سيدتي وأنا وصيفتها ، ويهني هذا الخبر كما يهنيها ، فهل أستطيع لقاء ذلك الرجل ؟ وأين هو ؟ » •

فقال الشيخ : « لا أعرف ، ولكنه كان هنا منذ بضعة أيام وقد سافر لزيارة بعض الاديرة ، ولا أدري أين هو الآن ، على أن الخبر كان صحيحا فلا أظنه يخفي على مولانا المقوقس والمواصلات جارية بينه وبينهم ، والجواسيس منبهة في سائر الانحاء ، ويغلب على ظني أن العرب أشاعوا هذا الخبر تبيطا لعزائم الروم ، وعلى كل حال فلا خفي الا سيظهر » •
وبينما هم في الأحاديث اذ جاء أحد أبناء الشيخ حاملا علبة من الخشب قدمها الى الشيخ وفيها شيء من الخمر المصنوعة من التمر ، فتناولها الشيخ وأعطى الجنديين إياها قائلا : « اليكما قليلا من الخمر فانها من بقايا غلة نخيلنا هذا العام ، وهي لذيدة » • فتناولا العلبة وشربا قليلا وأعطيا الشيخ فشرب •

ثم قال الغلام : « أن الطعام قد حضر ، فهل تفضلون بتناوله ؟ » •
فنهض الجميع وكان الجوع قد أخذ منهم مأخذا عظيما ، وعادوا الى البيت فاذا بمصطبة صغيرة قد مد عليها سباط بسيط عليه بعض الألمعة في آنية من خشب الجميز وأقداح من الخزف وبعضها من الخشب أيضا فيها بعض الخمر ، والمصطبة مصنوعة من الخزف الملون ، وقد مد فوقها

سقف من جذوع النخل وسعفه ، قائم على دعائم من خشب السنط .
وجعل الشيخ يعتذر لضيوفه عن تقصيره في ضيافتهم ، فتناولوا ما
حضر وقضوا هزيعا من الليل في الاحاديث الى أن جاءهم النعاس فناموا .

* * *

فلتركهم نياما ولنذهب بالقارىء في رفقة موكب المقوقس الى
بليس . أما الموكب فكان مؤلفا من عربة المقوقس وهودج أرمانوسة ،
ورجال الحاشية وفيهم الراكب والراجل ، وكان يحمل الهودج ستة
من العيد : أربعة من الورا واثنان من الامام ، ووراء المركبة رجل
يحمل مظلة من ريش النعام . ومركبة المقوقس يجرها فرسان من جياذ
الغيل عليهما السروج الفضية يقودهما سائسان في زي خاص بهما ،
وكلما مر الموكب بقرية أو بلدة خرج أهلها لاستقباله بالزهور والرياحين ،
وكانوا قد برحوا عين شمس في الفجر على أن يدركوا بليس مساء ذلك
اليوم ، فمالت الشمس نحو المغيب وقد أشرفوا على بليس ، وهي قائمة على
أرض مرتفعة قليلا ، وفي منتصفها قصر شامخ أعده لاستقبال العروس ،
وما دنوا من المدينة حتى خرج حاكمها وجندها ورجال حكومتها بالازهار
والموسيقى فاستقبلوا الموكب ، وتقدمت جباة من الجوارى تتقدمهن
نساء الحاكم بأكاليل الازهار الى خارج السور ، فرافقته حتى اقترب
من القصر فأنزلن العروس من هودجها ، ودخلن الحديقة بين عزف
الموسيقى وترتيل المرتلين ، حتى وصلن الى القاعة المعدة لاستقبالها ، وهي
مفروشة بأحسن الأثاث من الخز والديباج ، ومزينة بأحسن الرسوم .
ثم جاءت جواربها يعددن لها ملابسها لتغيير ثياب السفر بعد أن قدمن
نما المرطبات والمنعشات ، وكانت امرأة الحاكم تعد نفسها سعيدة لنزول
تلك الضيفة عليها .

أما الحاكم فاستقبل المقوقس وحاشيته وأزلههم على الرحب والسعة ،
 وقد أووا الى الفراش مبكرين التماسا للراحة من وعشاء السفر . وفي الصباح
 أوصى المقوقس حاكم بليس خيرا بابنته وودعها على أمل اللقاء قريبا ،
 فسكت هي لفراقه بكاء مرا ، خوفا من أن يكون الوداع الاخير لملهما
 بما هي فيه وما قد أعد لها من الشقاء ، وجلست بعد سفره وحيدة تفكر
 في حالها ، وقد هاج بلبالها ، وهي لا تستطيع بث شكواها لأحد وشرعت
 بافتقارها الى بربرة خادماتها الامينة اذ كانت لا تعلم بما جرى لها بعد
 دخولها الحصن ، ولما تصورت الحصن تذكرت أمرها مع أركاديوس
 وقسطنطين ، فاشتد عليها الحزن حتى بكت وهي تحاذر أن يراها أحد .
 قضت سحابة ذلك اليوم في تلك الهواجس لا يهدأ لها بال ، ولا
 تنفك مطلة تارة من هذه النافذة وطورا من تلك ، تنتظر مجيء بربرة ،
 وتحسب شجر النخيل عن بعد أشباحا آدمية لفرط قلقها .

أما بربرة فقد باتت والجنديين في عين شمس على نية التبرك الى
 بليس ، فلما أصبحوا أعدوا المركبة وأطمعوا الثورين علقا كافيا ، ولكنهم
 خافوا ألا يكونوا على بينة من طريقهم فسألوا الشيخ : هل يعرف أحد
 أولاده الطريق ؟ فقال : « أن ولدي هذا يعرفها جيدا ، وكثيرا ما ذهب
 لابتياح بعض الاقمشة وبيع ما يفيض عندنا من غلة أرضنا » . ثم ناداه
 فحضر فقال : « عليك يا ولدي برفقة أصحابنا الى بليس راكبا الثور
 أينس فتصل بهم اليها ثم تعود بلا ابطاء لئلا تقلق عليك » .

فلما سمع مرقس اسم أينس تذكر اسم المعجل الذي كان المصريون
 يعبده قديما فقال : « أراك دعوت ثورك باسم اله المصريين القدماء » .
 فضحك الشيخ ثم قال : « انما دعواته بذلك لحكاية غريبة اتفقت لنا
 وكانت سببا لنفع عظيم ! »

قال : « وما هي حكايته ؟ » . فقال : « ان هذا الثور قوي العضل ،

قد عودناه المناطقه ففاق جميع الثيران ، ولا يخفى عليكم ان مناطقه الثيران عادة قديمة في هذه البلاد ولكنها نادرة اليوم ، أما هذا الثور فقد حافظ على تقاليد أجداده من اتقان هذا الفن ، فاتفق ان بعض الناس ممن يأتوننا للمبادلة على الغلة بالكرم كان عندهم ثور مناطح ، وكانوا معجبين ببشئه ، فطلبوا الينا أن نراهم على مناطحته ثورنا فراهمناهم على بقرة تأخذها منهم اذا غلب ثورنا أو نعطيهم غلة نخيلنا هذا العام كلها اذا غلب ثورهم ، فقبلنا الشروط ، وتناطح الثوران ، وكانت الغلبة لهذا الثور ، اذ كسر قرن ثورهم ، واستولينا على البقرة ، ودعواه من ذلك الحين (أيس) اشارة الى براسته في المناطقه مثل أجداده ثيران المصريين القدماء ! »

فمجب الجنديان لهذه الحكاية ، ثم أسرع المسافرون بالرحيل بعد أن تناولوا شيئا من الطعام ، وحملوا معهم التمر الجاف يتناولونه في أثناء الطريق اذا جاعوا لئلا يمتنع عليهم الطعام في طريقهم ، وملأوا قريبتين من الماء ، وساروا يتقدمهم ابن الشيخ راكبا الثور أيس وقد كمنه لئلا تخطر له المناطقه في الطريق مع الثورين الآخرين ، وودعوا الشيخ والقرية وساروا .

وما انفك الجندي مرقس منذ يرحوا الحصن في شغل شاغل ، وكان قد تمنى عند خروجه من الحصن الا يجد المقوقس في عين شمس رغبة منه في الشخصوس الى بليس لحاجة في نفسه بالقرب منها ، ولكنه أسرها ولم يخبر بها أحدا . فلما جاءوا عين شمس وعلموا باقلاع المقوقس سر كثيرا ، وعند ركوبهم في الصباح عزم على أن يمر بالبلدة التي له فيها ذلك الغرض دون أن يعلم رفيقه .

فساروا سحابة يومهم ، وبربارة قلقة خوفا من تأخر الرسالة ، فلما كانت الظهيرة وقموا للاستراحة والغداء بالقرب من مزرعة لبعض الفلاحين ،

فيها ساقية تظللها جميزة كبيرة ، ثم نهضوا وواصلوا سيرهم حتى أدركهم
المساء وهم على مسافة طويلة من بليس : « فأرادت بربرة أن يواصلوا
السير حتى يصلوا إليها ولو ليلا ، فقال مرقس : « الأفضل أن نبيت الليلة
في هذه البلدة ونصبح بليس في الغد ، لأن الطريق لا يخلو من الخطر » .
فاستحسن الرفاق رأيه وعرجوا على بلدة بالقرب منهم ، وطلبوا مبيتا في
منزل قسيسها فرحب بهم وبخاصة لما عرف أنهم من جند المقوقس ، فنزلوا
عنده ، وأقامت بربرة في دار النساء فبالغن في اكرامها وهن لا يعرفنها »
أما صاحب أبيس فاستأذنهم في العودة لاستغنائهم عنه فأذنوا له وحملوه
السلام لوالده .

* * *

سر مرقس كثيرا لنجاحه في مأربه ، وما كادوا يصلون الى بيت
القمص حتى ترك رفيقه هناك وسار الى طرف البلدة الآخر ، حتى بلغ
منزلا على ترعة صغيرة ، وقد خيم الفسق ، ووجد الباب مقفلا وعليه بعض
الجند ، فلم يعبأ بهم بل طرق الباب طرعا خفيفا فناده مناد من الداخل :
« من الطارق ؟ » . فأجاب : « أنا مرقس ، افتحوا ! » وكان ينتظر
منهم انهم حالما يسمعون صوته يتهللون فرحا ، ويبادرون الى الباب
يرحبون بالقادم ، ولكنهم تباطأوا وسمع لغطا وبكاء . ثم فتح الباب
واذا بصاحب البيت وهو رجل شيخ يخرج وفي يده مصباح ، فلما رآه
مرقس سلم عليه وهم بتقيل يديه ، فقبله الشيخ في عنقه ، فشعر مرقس
بدموعه تتساقط فبغت ونظر اليه وسأله عن سبب ذلك فقال : « ادخل
يا ولدي لأنبتك بما جرى » . فدخل الى غرفة الاستقبال وأقفل الباب
وراءهما ، فاذا بامرأة جالسة حزينة ، ومنديلها يدها تمسح به دموعها ،
فازداد ذهوله وألح في السؤال عن السبب وقال : « ما بالك يا خالة ؟

ماذا جرى لكم ؟ وأين هي مارية ؟ » • فقالت المرأة وقد علا بكأؤها :
 « وأية مارية تعني يا ولدي ؟ » • فأجاب وقد بغت : « أية مارية ؟ أين
 هي مارية ؟ » قولي لي » • قالت وقد خنقتها العبرات : « ان مارية يا
 ولدي سيأخذونها بعد يومين ، ولن تراها عيوننا • آه منهم ! » • قالت
 ذلك وشرقت بدموعها •

فصاح مرقس وقد ثارت فيه الحمية : « والى أين يأخذونها ؟ ومن
 هم ؟ » •

قالت : « سيأخذونها منا ويقدمونها ضحية للنيل يا ولداه ! » •
 فعلم مرقس ان الاختيار قد وقع عليها في هذه السنة لتلقى في النيل
 كما هي العادة عند المصريين ، اذ كانوا يلقون كل سنة في النيل فتاة
 بحلها استدرازا للفيث ورغبة في الفيضان ، وتحقق لديه ان حبه لها
 وخطبته اياها قد ذهب أدراج الرياح ، ولكن الحب غلب عليه فنادى بأعلى
 صوته : « انهم لن يأخذوها واني لأقتديها بروحي ومالي •• أريد أن أراها
 الآن » •

قالت : « وأين تذهب بها ؟ ألم تر الشرطة واقفين بجوار البيت
 يترقبون حركاتنا وسكناتنا ؟ فاذا أتينا أمرا فانما نجني على أنفسنا » •
 فقال : « ولكن العادة الا يأتوا هذا الامر الا برضاء أيها ، فهل
 رضي عبي بذلك ؟ » •

فقطع عمه عليه الكلام قائلا : « كيف أرضى بهذا الامر ؟ لقد حاولوا
 ارضائي فأبيت ، فأرادوا أخذها بالعنف بدعوى أنهم ينفذون قضاء الله
 وأن القرعة في السنة الماضية وقعت على فتاة اسرائيلية ، وفي هذه السنة
 وقعت القرعة على مارية » •

فصاح مرقس : « لا فاض النيل ولا ارتوت الارض اذا لم يكن ذلك
 الا بهذه الطريقة ، اطسئوا وألقوا الامر علي وأنا أتقدها • أين هي

لأراها ؟ » •

فقلت أمها : « هي في غرفتها تنذب وتبكي يا ولداه وتأبى أن تكلم أحدا أو تر أحدا » •

قال : « أريد أن أراها فلعلي أستطيع تمزيثها ، وأنا أعلم اني قادر على انقاذها » • وكان قد تذكر بربارة ، وأنها مقربة الى المقوقس ، فبدا له أن يستنجدها ، فتذكر أمر مارية للمقوقس أو ابنته فيصدر الامر باستبدال أخرى بها • فقال : « أروني اياها ولا تأسوا من رحمة الله » • فأمسكته امرأة عمه وقادته الى غرفتها وهي ترعش كيدا وحزنا ، ولما سمعت الفتاة وقع أقدامهما نادى بصوت ضعيف كالانين من فرط ما ناحت وبكت وقالت : « آه انقذوني من مخالب الموت ، أو أروني مرقس قبل مماتي » • ثم خنقتها العبرات فأجابها مرقس قائلاً : « لا تخافي يا مارية ها أنذا قد جئتك جاءك الفرج من عند الله » •

فلما سمعت صوته نهضت لساعتها ، وارتمت على قدميه قائلة : « آه ان مارية لم يبق لها في هذه الدنيا الا يوم وليلة ، فأشفق على ضعفي وانقذني اذا كان ثم أمل في الحياة • يا أبتاه ويا أماه : انتشلاني من مخالب الموت ، أشفقا على صباي • آه من الحياة : ما أحلاها وما أمرها ! » •

فلم يتمالك مرقس نفسه عند سماع كلامها عن البكاء ، ثم تجلد وأخذ ييدها ، فاذا هي باردة كالثلج ، وكانت الفتاة قد أغمي عليها فرشوها بالماء حتى أفاقا فأجلسوها ، وعينا مرقس لا تفارقانها وقلبه يكاد ينفطر ، ثم نظر اليها وقال : « لا تخافي يا مارية ، فاني قد دبرت وسيلة لا نقاذك ، وأنا واثق بأن الله لا يحرمني من قربك » •

فلما سمعت الفتاة كلامه عادت اليها قواها وتجلدت ، وجلست وهي تنظر اليه بعينين مملوءتين بالدمع ، وقد ذبلت جفونها ونكسرت أهدابها ،

وامتنع لون وجهها ، ولكن الجبال بقي متجليا فيه ، فازداد هيام مرقس بها حتى هان عليه الموت في سبيل انقاذها « ثم رأى الوقت يكاد ينفد ، ولم يبق لميعاد أخذها الا يوم وبضع ساعات ، فوقف ونظر الى الفتاة وقال : « قلت لك لا تخافي يا مارية ، فان الذي أنقذ يوسف من البئر ودانيال من جب الاسود ، قادر على أن ينقذك من مخالب الموت » وها أنذا ذاهب لأقتر في الامر وأرجع اليكم في الغد ان شاء الله » .

قال ذلك وهم بالخروج فأمسكت الفتاة بشو به وقالت : « لا . لا تذهب لأنني لا أرى حيلة تستطيعهما لانقاذي ، وقد قدر الله أن أذهب فريسة العادات والطقوس ، فدعني أتسع برؤيتك هذه الساعات القليلة » . فازداد هيام مرقس ، وثارت المروءة في صدره ، واستسهل كل صعب وقال : « تشجعي يا عزيزتي وخففي عنك ، فقد قلت لك أي قادر على انقاذك اذا ذهبت الساعة ، أما اذا بقيت هنا فالوقت يذهب وتضيع الفرصة من يدنا ، فاستودعك الله الى الغد لأن الميعاد الذي ضربه لك لا ينتهي قبل صباح بعد غد ، وأنا أعود اليكم في ظهيرة الغد » .

وخرج فأحست مارية أن قلبها يتبعه ، وأما أبوها فرافقه الى الباب وقال له : « احذري ولداه أن يشعر الحرس بما أنت عازم عليه فيشددوا النكير علينا ، فاذا كان لنا بقية أمل في النجاة قطعوها » . قال ذلك وتنهذ ، ولحقته امرأة عمه وهي تقبله وتقول : « اذهب يا ولدي في حراسة الله ، وهو يكون معك ويبارك عليك » . فودعها وخرج لا يكاد يرى طريقه لفرط ما ألم به ، وسار قاصدا بيت قسيس البلدة على أمل أن يكلم بربارة تلك الليلة ويتضرع اليها أن تخاطب سيدتها أرمافوس في الامر ، وهذه تسأل أباه أن يفرج عن الفتاة أما بالعفو ، وأما بالاستبدال .

وبينما هو في طريقه رأى الحرس وقوفاً بالسلح ، وكان لم يهرم
 التفاتاً حين مجيئه ، وأما الآن فكان يرتاب في كل أحد ، لفرط ما اتباه
 من العزج . ولم يبلغ بيت القسيس الا بعد العشاء ، ولم يكن قد ذاق
 طعاماً فطرق الباب فإذا القسيس قد أعد طعام ضيوفه واستبطاً مرقس ،
 فلما رآه عائداً رجب به واستقبله وقال : « لقد أبطأت علينا يا ولدي ،
 وهنا نحن في انتظارك على المائدة » . فشكر له ودخل . وامارات
 الكدر والكتابة تلوح في وجهه وهو يحاول اخفائها . فلحظ القسيس
 فيه ذلك فسأله عن سبب كدره فقال له ودخل معه الى المائدة ، وكان
 رفيقه جرجس في انتظاره ، وقد قلق لغيابه ، فسلم عليه وسأله عن سبب
 غيابه ، فذكر أنه ذهب لزيارة بعض أقاربه وعاد .

وأما مرقس فلم يكن يستطيع الأكل ، وأراد أن يكلم بربارة ، فعلم
 انها مع زوجة القسيس في الغرفة الأخرى تتناولان العشاء ولا يستطيع
 مقابلتها الا في الصباح ، فصبر على مضض وجلس الى المائدة ، وتظاهر
 بأنه يؤاكلهم ولكنه كان مشغول البال لا يفوه بكلمة حتى كلمه
 القسيس سائلاً : « هل عرفت على من وقعت القرعة هذه السنة لتكون
 ضحية النيل ؟ » .

فخفق قلب مرقس وارتعدت فرائضه عند سماع كلمة ضحية
 النيل ، ولكنه تجلد وتجاهل وقال : « لا يا سيدي لم أعلم » . وغلب عليه
 الكدر حتى غص بالطعام ، ولكنه أراد سماع تنمة الحديث فقال : « ولكنك
 لم تقل لي على من وقعت ؟ » .

قال القسيس : « وقعت على مارية بنت المعلم اسطفانوس العسال ،
 وهي فتاة على جانب عظيم من التهذيب والتقوى والجمال ، وقد جاء
 والدها الي بالامس وطلب أن أعاونه على انقاذها فتقطر قلبي لما شاهدته
 من لهفته على ابنته ، ولكن أنى لي أن أعينه ؟ ! » .

فقال مرقس وهو يحاول التجلد وتكاد عواطفه تقتله : « ولكن ما هذه العادة القبيحة ؟ وهل تظن النيل يعقل حتى يكون لهذه الضحية تأثير في مجراه ؟ » .

قال : « لا يا ولدي ، انها من العادات الوثنية التي تنفر منها أذواقنا وبأبائها بالطبع ولا تسلم بها الديانة ، بل تنهي عنها لأنها قتل للنفس » .
فقال جرجس : « وأسفاه على هذه الفتاة ! كيف تكون حالها الليلة ؟ وكيف يأتيها الرقاد ؟ بل كيف حال أبويها ، وماذا يصيبهما اذا نفذ الامر فانها وحيدتهما ؟ » .

فقال القسيس : « والي لأعجب أيضا كيف يحكمون باختيارها »
وينفذون الحكم فيها بغير رضا أبيها ، والعادة أنهم اذا اختاروا فتاة أرضوا أبائها بمال أو شيء آخر حتى يسمح لهم بابنته ، وأنا أعلم يقينا أن المعلم اسطفانوس لا يرضى ببيع ابنته ، فان ذلك عارا مينا » .

فقال جرجس : « أي شيء يجري بيننا يا سيدي على سنة العدل ، ونحن نقاسي كل يوم من الامور ما تنهي عنه الديانة والطبيعة » .

فقال القسيس : « قلت لكم اني أعجب للحكم عليها بدون ارضاء والدها ، ولكنني أعترف لكم بأمر عرفته سرا وهو الذي جر عليها هذا الحكم ، فهل تعدونني بكتمانه اذا أخبرتكم به ؟ » .

فتوسم مرقس بابا للخير ، وكان غارقا في بحار الهواجس ، فقال : « نعم نكتمه » .

فقال القسيس : « علمت ان شيخ البلدة طلب هذه الفتاة زوجة لابنه ، فرفض أبوها ، فحقد عليها ووشى بها الى حاكم بلييس وحمله على قتلها على هذه الصورة » .

فقال جرجس : « ولماذا لا يرضى أبوها بابن الشيخ ، وهو خير أهل هذه القرية ؟ » .

قال القسيس : « سمعت أن هذه الفتاة عالقة القلب بفتى تحبه هي ويحبه أبوها كثيرا » وقد عقد النية على تزويجها به ، وهما يعلمان الآن أن سبب هذا الشر رفضها ابن الشيخ ، وقد سمعت الرواية ولا أضمن صحتها » .

فلما سمع مرقس هذا الكلام اقشعر جسمه وهبت الغيرة فيه ، وخنقته العبرات ، فأمسك عن الطعام متظاهرا بإحراف صحته ، ونهض عن المائدة ملتمسا قضاء حاجة له في حديقة البيت ، فلم يعترضه أحد ، فخرج حتى خلا الى نفسه « فمسح دموعه واحتار في أمره هل يطلع القسيس على حقيقة شأنه ، أو يقيه سرا مكتوما ، ولكنه تجلد وعاد يريد سماع تنمة الحديث الى آخره ، فاذا رأى فائدة من الكلام تكلم » .

فلما دخل الغرفة عاد القسيس الى كلامه فقال : « ومن الغريب أن هذه المسألة لم تجر العادة بالقطع بها الا بعد البحث والتدقيق وموافقة مولانا المقوقس عليها ، ولكنني عرفت أنه لم يعلم بها هذه المرة ، ولعل ذلك ناتج عن انهماكه في أمر ابنته وزواجها وبالأخبار التي تواترت عن قدوم العرب على ما بلغنا ، ولذلك فهو لن يحضر الاحتفال بضحية النيل هذا العام ، ولن يحضره الاعيرج ولا رجاله لأنهم في شغل شاغل كما قدمنا ، ولكن شيخ هذه البلدة سيذهب هو وبعض رجاله ، وهي فرصة اتتهزها لانهماك المقوقس ، ونراه مسرعا في تنفيذها خوفا من فواتها » . ثم أظهر القسيس الملل من هذا الحديث وأراد تحويله فقال : « هل سمعتم شيئا عن العرب ؟ » .

فقال جرجس : « أما العرب فقد تحققنا قدومهم لحربنا ، ونرى جنودنا في استعداد للملاقاتهم ، ولكنهم لم يبلغوا الحدود بعد » وقد أرسل مولانا المقوقس جانبا من الحامية الى الحدود ، وأقام جانبا آخر في حصن بابل ليدفع بهم الاعداء عن مدينة منف » . فتبسّم القسيس متهمكا ولم يجب . فقال له جرجس : « وما الذي

أوجب تبسمك أيها الاب المحترم ؟ » •

قال : « ابسم لقولك أن المقوقس يعد رحاله لدفع العرب ، والظاهر أنكم على كونكم من رجاله لا تعرفون حقيقة مقاصده ! » •

فتجاهل جرجس خيفة أن يكون في مجاهرته ضرر عليه لأنه من الجند ، فقال : « وما الذي يعلمنا ؟ وهل لثلثنا أن يعلم بمقاصد رئيسه البسرة ؟ نحن نعلم أننا تنهياً للدفاع عن بلادنا ومحاربة العرب إذا جاءونا ، هذا ما يظهر لنا من غرضه » •

فقال القسيس : « أما مقاصده الحقيقية يا أولادي فهي أن يسلم هذه البلاد لأخي فاتح كان تلخصا من جور الروم وسوء معاملتهم لنا معاصر الاقباط » • فبالغ جرجس في التجاهل لكي يتحقق ما سمعه فقال : « ربما كان قولك مبني على الحدس ، لأن الظواهر الحالية تنفي هذا القول ، فإن المندقور الاعيرج بعده ورجاله الروم ورجالنا الوطنيين قد تحصنوا جميعا في حصن بابل ، فكيف تكون مقاصده كما تقول ؟ » •

فهمز القسيس رأسه مستهزئا وقال : « يظهر يا ولدي أنك لم تختبر الدنيا ، أتحسب هذه الظواهر دليلا على حب المقوقس الدفاع ؟ الا تعلم انه انما يفعل ذلك خوفا من الاعيرج قائد الحامية الرومانية ؟ وقد قلت لي في أثناء حديثك أن جنود الروم في الحصن مع الوطنيين ، وهل من انوطنين جند في مصر ؟ » •

قال : « أريد حاشية مولانا المقوقس » •

قال : « أما حاشية المقوقس فشرذمة لا يعتد بها ، انما العمدة على الجند الرومان ، فهم حامية البلاد ، فاذا علموا بسرية المقوقس قتلوه لا محالة ، وأنا أخبرك الخبر اليقين وأؤيد قولك بالبرهان ، ولكنني أطلب منكم حفظ ذلك سرا » • ثم خفت صوته وتطاول بعنقه نحوهما وقال : « ان المقوقس جمعنا نحن القسس الاقباط في اجتماع سري لم يعلم به أحد ، وأطلعنا على مقاصده الحقيقية وأوصانا بالكتمان ، ودرنا على

الطريقة التي تتصرف بها عند الاقتضاء . فما رأيك بعد ذلك ؟ » . فقال جرجس : « أما وقد قلت هذا فأنت أعلم بالحقيقة ! » . وكان مرقس في أثناء تلك المحادثة غارقا في بحار الهواجس ، وأفكاره مشغلة بأمر حبيته ووالديها والطريقة المثلى لاقتاذاها من هذا الشرك ، فأدرك القسيس ارتباطه فقال له : « مالي أراك صامتا يا ولدي ؟ » . فقال وقد أفاق من هواجسه : « اني أفكر في تلك الفتاة وما وقع عليها من الظلم ، وأراني شديد الميل لنصرتها واعلم أنني اذا فعلت ذلك أتقذت نفسا من القتل » .

قال : « نعم يا ولدي وبهذا لو كان ذلك ييدي فلا أتوقف لحظة عن اغاثتها ، ولكنني اذا أظهرت هذا الميل وقعت في شر مثل شرها ، لأن حاكمنا ينتمي الى الروم وهم يصفوق الى ما يقوله ويعملون برأيه ، وزد على ذلك ان الوقت قد فات ، ولا وسيلة لاقتاذ الفتاة الا بأمر من المقوقس نفسه وتصديق الاعيرج عليه ، أما المقوقس فبعيد منا الآن لأنه كان في بلبس ، ورأيانه عائدا منها في هذا المساء جنوبا ، وأظنه يريد منف ولا حيلة في الامر » .

فعظمت المصيبة على مرقس ، ثم تذكر بربارة ودالتها على أرمانوسة ، فأمل أن ينال بغيته على يدها ، وتمنى لو استطاع أن يكلمها في تلك الساعة ، ولكنه خاف منبة الامر فاعمل فكره ، ثم قال للقسيس : « هل تسمح لي بكلمة على افراد ؟ » . فقال : « تعال يا ولدي » . فخلا به وقص عليه الخبر كما وقع . وأخبره أنه هو خطيب الفتاة ، وأنه تعهد باقتاذاها من مخالب الموت ، وان الموت أهون عليه من التقاعد عن ذلك ، ثم أنبأه بأمر بربارة وأنها خادمة أرمانوسة الخاصة ، ولعلها تتوسط له عند سيدتها .

فقال القسيس : « ولكنني لا أرى أن في استطاعة أرمانوسة أن تعينك ، فحاكم هذه البلدة ينتمي الى الروم ولا يصدع الا بأمرهم ، ولا

سيما أن له مأربا في قتل الفتاة • ولكنني سأدعوك بربارة لعلها تعرف وسيلة أخرى • ثم بعث اليها فحضرت • فقص مرقس حكايته من أولها الى آخرها ، وتوسل اليها أن تبذل جهدها في الغد لانقاذ الفتاة • فقالت بربارة : « اني أشارككما في النفقة عليها ، وسأبذل ما في وسعي لانقاذها ، والاتكال على الله ، أما سيدتي أرمأنوسة فانها تعمل بكل ما أقوله لها ، فاذا كان الامر في يدها فثقوا أن الفتاة ناجية باذن الله ، والا فالامر له يفعل ما يشاء » • ثم فكرت قليلا كأنها تذكرت بابا للفرج فقالت : « اني أضمن انقاذها ، انا سنكون في بليس صباح الغد ، وهم لن يأخذوا الفتاة الى النهر الا بعد غد ، وسأجتمع بمولاتي قبل ذلك فتدبر الأمر » •

ولما انتهوا من حديثهم ذهب كل الى منامه • أما مرقس فلم يغمض له جنن تلك الليلة ، فبات تتقاذفه الهواجس بين اليأس والامل والخوف والرجاء ، وبكر في الصباح الى بربارة فأعد المركبة هو ورفيقه وودعوا القسيس وساروا قاصدين بليس •

- ٥ -

الاحتفال بضحية النيل (١)

كان حاكم تلك البلدة قد هم بقتل مارية انتقاما منها ، فاتخذ أمر

(١) ان القول بضحية النيل عند المصريين لم يثبت وانما جئنا به هنا للاشارة الى ما يقال من هذا القبيل وفيه لذة وتسلية أما رأينا فتجده مفصلا في الجزء الرابع والعشرين من السنة الثالثة من الهلال الصادر في ١٥ أغسطس سنة ١٨٩٥ •

ضحية النيل ذريعة لتنفيذ مآربه وسعى جهده لدى حاكم بلييس حتى أذن له بالنيابة عن المقوقس أن تلقى الفتاة في النيل بعد غد ذلك اليوم ، وجعل الحرس حول منزلها حرصا على تنفيذ مآربه ، لعلهم أنهم إذا تمكنوا من الوصول الى المقوقس عرقلوا مساعيه .

وكان الحراس يقضون الليل ساهرين فلما جاء مرقس ودخل المنزل جعلوا يتجسسون ويتسمعون لما يدور من الحديث فسمعوا توعدوه وعزمه على انتقامها . فلما خرج من البيت ذهب بعضهم الى الحاكم وأخبره بما سمع ، فخاف أن تذهب مساعيه عبثا إذا أبطأ فبكر في الصباح التالي وبعث الى أهل الفتاة أن يعدوا عدتهم لأخذها الى النيل في ذلك اليوم ، زاعما أن دواعي خاصة ألجأته الى الاسراع . وأمر بعض النساء المعدات لمثل ذلك الاحتفال أن يذهبن الى الفتاة فيلبسها أفخر اللباس ، ويجملن عليها أحسن ما لديها من الحلى والمجوهرات ، ويهيئنها كما هي العادة مع ضحية النيل . وبعث الى قس تلك البلدة أن يسيروا معها بالملابس الرسمية .

على أن العادة كانت أن يحضر هذا الاحتفال البطارقة والأساقفة والخدم والاعيان والوجهاء ، ولكنه أراد الاسراع في الامر لثلا تقشل مكيدته ، وبعث الى صاحب القارب المعد لحمل الضحية أن يكون على أهبة الرحيل ، وكان قد أحضر قاربه بقرب تلك القرية الى ترعة متصلة بالنيل . ثم زينوا القارب بأحسن أنواع الزينة كالأعلام والصور الملونة ، وعلقوا فيه أكاليل الأزهار والرياحين ، وجاءوا الى جوار بيت الفتاة ، وفيه الحرس والجند بسلاحهم من الرماح والنبال والسيوف .

ولا تسل عما حل بأهل الفتاة عندما جاءتهم النساء ليلبسها الثياب الفاخرة ، فانهم وقعوا في وهدة اليأس ، ولم يعد لديهم باب يتوقعون منه فرجا . ومما زاد في مصيبتهم أنهم لم يكونوا يستطيعون البكاء ولا

الندب ، لئلا يقال أنهم استكثروا الهدية على النيل فيغضب ويمسك عهم
ماءه •

دخلت النساء وألبسن الفتاة أحسن رداء عندها من الحرير الأحمر
انقي ، وجعلن على رأسها وكثفها اكليلا من الازهار تتدلى منه فروع
على ذراعيها ، وعلقن على رأسها وصدرها كل ما كان عندها من الحلي
الثينة ، وغلن يديها ورجليها بسلاسل من الحديد علقن فيها أشياء ثمينة •
وجلننها بازار من النسيج الأبيض الرقيق غطاها من رأسها الى قدميها ،
وأزلنها الى القارب ، ونزل معها القبس بالملابس الرسمية يصلون
وينشدون ، ونشروا الشراع ، فمضى القارب جنوبا قاصدا رأس الدلتا
عند التقاء فرعي النيل • وقد غادروا أبويها في حالة يرثى بها ، على أنهما
لم يستطيعا البكاء الا بعد أن مضى القارب وأمنا سماع نحيبهما !

أما القارب فسار يخرق عباب الماء ، وقد علقوا على صدر الفتاة
سكا ادعوا أنه صك الرضاء من والدها ، ومعه الامر الصادر بوقوع
الاختيار عليها أن تكون غنيمة باردة لماء النيل • ولما وصلوا في المساء
الى ضفة النيل رسا القارب عند رصيف مبني من حجارة ضخمة عليه نقوش
هيروغليفية ، فأزلوا الفتاة الى البر ، وقد نصبوا خياما لمبيتهم على نية
التكبير في الصباح التالي لتقديم ضحيتهم •

وكانت مارية في أثناء ذلك بين الذهول والدهشة ، فلما أزلوها
الى البر قدم لها بعضهم طعاما فأبته ، وكانت لفرط ما بها كلما رأت
شبحا ظنته مرقس قادما لاقاذاها • وباتت تلك الليلة والناس يتأهبون
للاحتفال بتضحيتها •

وكان ابن الحاكم لا يفتر لحظة عن التشفي منها ، فأوسعها لكزا
بمباخرهم وصلواتهم يتوسلون الى الله أن تكون ضحيتهم مقبولة لدى
النيل • وكان في نية الحاكم أن يلقيها بنير احتفال ولا صلاة ، فدار

وفي الليل أتى إليها وتهدها قائلاً : « أين مرقس الآن ؟ ها أنت ذي في قبضة يدي ، وغدا تذهبين ضحية النيل » . فصمتت ولم تجبه .

وفي الصباح التالي بكروا وحملوها وأوقفوها على حافة الرصيف ، وعلقوا بأغلال قدميها ثقلاً من حديد للاسراع في اغراقها ، ووقف القس حولها دورة يصلون وينشدون ويبخرون ، ثم داروا الدورة الثانية ، وقد أحاط الجند والحرس بالناس وكانوا قد تقاطروا ألوفاً ، والحاكم يستحث القس على اتمام الصلاة ، حتى اذا كانوا في الدورة الثالثة سمعوا صوت تميز عسكري يأمر بوقف الاحتمال ، فالتفت الحاكم واذا بمركبة مسرعة عليها جنديان يحملان علماً عليه صورة المقوقس وكتابة يونانية وقبطية ، فاخترقت المركبة صفوف الجماهير التي كانت تسبح لها الطريق حتى دلت من الحرس فنزل أحد الجنديين بأسرع من البرق ، وأخرج رقا من البردي من صندوق صغير من خشب الصندل ودفعه الى الحاكم .

أما الجميع فلما شاهدوا المركبة بهتوا وتطاولت أعناقهم ليرى ما جاء به الرجلان . أما الحاكم فتناول الكتاب وفضه ونظر الى التوقيع فاذا هو خاتم أركادايوس ابن الاعيرج فبغت وعلا وجهه الاصفرار ، وجعل يقرأ الكتاب ويداه ترتعشان ، فرآه مكتوباً باللغة اللاتينية وهاك ترجمته :

« من أركادايوس بن المندقور الاعيرج ، الى حاكم بلدة (٠٠٠٠)

« أمرك باسم والدي المندقور قائد جند الروم بمصر ، أن تكف عن الاحتفال الذي أقمته لضحية النيل فور وصول هذا الكتاب اليك ، وعليك أن تحل عقال الفتاة وترجع بها الى بيت أبيها ريثما يصدر اليك أمر آخر ، وان أبطأت في تنفيذ أمرنا وقعت تحت طائلة العقاب ، وقد أمرت حامل كتابي هذا ، وهو من خاصتي ، أن يراقب عملك وينبني بما تعمل .

« كتبه أركادايوس بن الاعيرج . في حصن بابل سنة (٠٠٠) لحكم الامبراطور هرقل » .

فلما قرأ الحاكم الكتاب أصبح الضياء في عينيه ظلما ، وأخذ يتأمل الخاتم ويكرر تلاوته ، فلم ير مندوحة عن العمل به خوف العقاب فأمّر بحل عقال الفتاة والرجوع بها وبمن معه الى بلدته كاسف البال وقد أسقط في يده !

أما مارية فلما أخذوا يحلون قيودها ظننتهم يريدون اللقاءها في النيل وأن الساعة قد دنت فاجعلت تتوسل اليهم أن يتسهلوا ، فأخبروها أنهم يحلون القيود للرجوع بها الى بيت أبيها فلم تصدق وحملت ذلك منهم على محمل الخداع ، فازدادت في البكاء ، ولم تتحقق الامر الا لما رفعوا عنها الأزهار ، فالتفتت الى الجمع فرأت حبيها مرقس بالقرب منها ينظر اليها والمركبة الى جانبه وعليها علم المقوقس فرجع صوابها اليها ، وأيقنت بالنجاة ، وهدا روعها ، فأترلوها الى القارب وتزلوا جسيما ومرقس واقف ازاء المركبة ينظر الى مارية مبتسما وعيناها تدمعان من الفرح ، وهي تنظر اليه وتود أن يرافقها بالقارب ، ولكنها أدركت أنها ستلاقيه في بيت أبيها •

وركب مرقس المركبة مع رفيقه جرجس وعادوا الى بلدة مارية ، وأخبر والديها وأهل منزلها بما كان فطاروا من الفرح ، وشكروا الله على ذلك ، وخرجوا لملاقاتها على مسافة غير بعيدة من البلد • ولا تسل عن ساعة اللقاء ما كان أحلاها ، وكم بكى الجميع بدموع الفرح • أما الحاكم وابنه فقد ظلا حاقدين ومؤملين تنفيذ مآربهما في فرصة أخرى ، على أن الحاكم كان عالما بأنه تجاوز حده فأصبح خائفا • ولما نزلت الفتاة في بيتها أخذت تبحث عن طريقة نجاتها وعيناها لا تتحولان عن الباب في انتظار قدوم خطيبها لشكره على مساعيه • وهي تستغرب حدوث ذلك منه ، وتعجب بشهامته • وكان قد خرج في حاجة وما لبث أن عاد والتقى بمارية وجلسا يتشاكيان الغرام •

- ٦ -

ارمانوسه في بليس

تركنا أرمانوسة في قصر حاكم بليس على مثل الجسر في انتظار
بربارة لتعلم ما جرى أو ما كان من أمر حبيبها ، وكانت جالسة الى
النافذة تفكر في حالها وما هي فيه من الخطر بين أن تذهب ضحية عواطفها
أو تسلم نفسها الى من لا تحبه . فأخذت تتلهى بما يقع عليه نظرها من
بليس وضواحيها ، فرأت القصر الذي فيه أرفع مكان في المدينة ، ورأت
الناس يتزاحمون في بعض الاسواق . والجند يهتسون في بناء الاسوار
أو ترميمها ، وشاهدت على الاسوار أبراجا عليها الاعلام الرومانية ، ووراء
الاسوار سهول بعضها رملي وبعضها غياض فيها الاغراس من النخيل
والكرم ، تتخللها أبنية قديمة أكثرها قد تداعى الى الخراب فيجرها
الناس .

وبينما هي في ذلك ، وقد خيم الفسق ، جاءتها احدي الجواري
فوقفت بين يديها فقالت : « ما وراءك ؟ » . قالت : « امرأة الحاكم
تسأل عن حضرتك وتريد المثل بين يديك » . فتكدت أرمانوسة من تلك
الزيارة لرغبتها اذ ذاك في الخلوة لتفكر في حالها ، ولكنها رأت أن تأذن
لها لئلا تستكر أمرها أو تحسب ذلك خشونة منها ، فقالت :
« لتدخل » . فدخلت وقد تزينت بأحسن ما لديها من اللباس احتفاء
بنزيلتها ، وكان لباسها رومانيا مع أنها غير رومانية ولا مصرية ، ولكنها
من عائلة فارسية قديمة قد شاركت المصريين في معتقدهم وعاداتهم ، وهي
تناهز الإربعين من العمر . فوقفت لها أرمانوسة ورحبت بها وأجلستها
الى جانبها وأخذت تبش لها وتحادثها ، فقالت المرأة : « لقد نزل أهلا
ووطئت سهلا ، ونحن نعد أنفسنا سعداء بنزولك بيننا » ونظت اليه تعالى

أن يتم أسباب سعادتك باقتراكك بابن امبراطورنا المفخم » • قالت ذلك وهي تظن أنها تسرها به • فاضطربت أرمانوسة عند سماعها أمر الاقتران • فتجلدت وأظهرت ارتياحها لذلك التلطف بغير أن تجيبها حياء ، ولكنها غيرت الحديث قائلة : « اني أعد نفسي سعيدة أيتها السيدة الفاضلة » • فقالت المرأة : « وأرجو أن تكوني مسرورة من اقامتك في بليس ، وأن تتمعي بما تريدينه ، وتأمرينا بكل ما ترتاحين اليه » فاننا أوقفنا أنفسنا لخدمتك » •

قالت أرمانوسة : « أشكرك شكرا جزيلا فقد استأنست بك كثيرا » وأشعر بارتياح كبير الى لطيف حديثك » •

فقالت المرأة : « وان أكن يا سيدتي فارسية الاصل فاني أعد نفسي وطنية ، اذ قد ولدت في هذه البلاد وريت فيها ، وآنست من أهلها رقة ودعة تنسي الغريب بلاده ، وبخاصة ما نلاقيه من مولانا والدك من الانس واللف والاهتمام بشؤوننا ، وقد سمعت زوجي يقول انه مسرور سرورا عظيما لاختيارك بليس موطننا لتقديمك ، فانه يزداد فخرا بقدم مولانا قسطنطين امبراطور الرومان اليها ، وهذا شرف قلما تحصل عليه مدينة ، فنطلب اليه تعالى أن يجعل بمجيئه لنفرح بك ونراك عروسا لابن الامبراطور » •

فوقعت هذه الكلمات في أذني أرمانوسة وقع الصاعقة حتى كادت الدموع تتناثر من عينيها لعظم تأثرها ، فحولت وجهها الى النافذة ولم تبد جوابا • فحملت المرأة ذلك منها على الحياء من التكلم في أمر الزواج ، وأرادت أن تبالغ في ملاطفتها فقالت : « يظهر أنك غير مرتاحة أيتها السيدة الى حديث العجائز فهل أدعو لك ابنتي قسطنطينية لتجالسك فانها فتاة في سنك ترتاحين الى حديثها ولا سيما أن اسمها يشابه اسم خطيبك ؟ » •

فازدادت أرمافوسة كدرا لتلك الملاحظة وودت أن ترفض ذلك الاقتراح ، ولكنها لم تستطع الا اظهار الارتياح . فصفت المرأة واذا بجارية حبشية قد حضرت ، فأمرتها باستدعاء السيدة قسطنطينية ، فجاءت تجر ذيل ثوبها الارجواني ، وكانت قد خاطته خصيصا لتلبسه يوم مقابلة أرمافوسة عندما سمعت بقدموها الى بليس ، وجعلت عليها كل حليها ، فحيثما أرمافوسة وبشت في وجهها وأظهرت الالئناس بحضورها ، فجلست الفتاة متأدبة تمد نفسها سعيدة بالمثل بين يدي ابنة المقوقس ، وكانت قد سمعت بجمالها وتعقلها ، وأخذت تأملها وتنتظر الى ملابسها وحليها ، وكانت تسمع بحسن زي أهل منف ولا سيما ابنة حاكم البلاد .

أما أرمافوسة فحالما رأت الفتاة وتذكرت أن اسمها مثل اسم من تكرهه ففر قلبها منها ، وتشاءمت من رؤيتها ، وندمت على قبولها دخولها عليها ، ولكنها تجلدت وأخذت تحادثها وتلاطفها ، وأفكارها مشغولة بأمر بربرة وأركاديوس . ثم بدأت قسطنطينية حديثها وقد وجهته الى والدتها قائلة : « هل سمعت يا أماء على من يقع الاختيار هذه السنة لتكون ضحية النيل ؟ » .

قالت أمها : « سمعتم يتحدثون في ذلك ، وقد فهمت من أيك أنهم اختاروا المعلم اسطفانوس من قرية (...) ، وقد قضي الامر على عجل بغير استعداد » .

فقالت أرمافوسة : « وما هذه العادة القبيحة التي جرينا عليها في هذه البلاد ؟ هل يحسبون النيل ذا عقل يفضب ويرضى حتى يقتلوا بنات الناس من أجله ؟ . اني لم أفك أكلم أبي في أمر هذه العادة وحثه على ابطالها ، وهو يعتذر بأنها عادة متمكنة من أهل هذه البلاد فلا يستطيع نزعها ، على أني حينما أتصور ذلك العمل الفظيع يقشعر

• بدني » •

قالت الفتاة : « الحقيقة يا سيدتي انه عمل فطيع وبخاصة لأن هذه الفتاة مخطوبة وكانت تتأهب للاقتران ، فكيف يكون حال خطيبها اذا علم بأمرها ؟ » •

فلما سمعت أرمأنوسة ذلك انقطر قلبها على تلك الضحية ، وودت لو تستطيع انقاذها من ذلك المهلك ، ولكنها عادت إلى هواجسها ، وأرادت قطع الحديث لتخلو إلى نفسها وتفكر في حبيبها على افراد • فقضت برهة في مثل تلك الاحاديث حتى آن وقت الرقاد ، فذهبوا بها إلى غرفة أعدوا لها فيها سريرا مجللا بالاعطية الثمينة فأوت اليه وهي تخاف الا تستطيع رقادا تلك الليلة لفرط ما بها من القلق وما يتقاذفها من الهواجس ، ولكن تعب الطريق سهل عليها النوم فنامت حتى الصباح ، ولم تفق الا على صوت أهل القصر وهم يرحبون ببربارة ، فنهضت من فراشها مذعورة وأخذ قلبها يخفق مسرعا شوقا إلى معرفة ما تم من أمر أركاديوس ، ثم سمعت قارعا يقرع الباب فأذنت ، فاذا ببربارة تدخل عليها وهي لا تزال بشباب السفر ، فقالت لها أرمأنوسة : « اغلقي الباب وراءك وتعالى » • فأغلقت الباب وأخذت تقبل سيدتها والدموع تسيل من عينيها ، وبشائر الخير تلوح على وجهها !

فقالت أرمأنوسة : « أخبرني يا بربارة عما فعلته فاني قد قلقت

لغيابك » •

• قالت : « لا تقلقي يا مولاتي فاني جئت بالاخبار الطيبة ، وابشري بتجارتك ونيل مرامك ، فان البطل أركاديوس حبيبك أمين في حبك ثابت على ودك لا يستصعب أمرا في سبيل قربك » •

قالت : « اصدقيني الخبر يا بربارة ، واشرحي الحكاية كما هي » • مدت بربارة يدها إلى حبيبها وأخرجت الخاتم وقالت : « خذي هذه

الامانة أولا » .

فتناولته أرمانيوسه ، ولما قرأت اسم أركاديوس عليه جعلت تقبله وهي تقول : « اعذرني يا بربرة اذا استسلمت الى عواطفي ، وهذا خاتم حبيبي فكيف لا أقبله ؟! ولكن كيف سلمه اليك وهو خاتم لا غنى له عنه في أعماله ؟ » .

قالت : « دفعه الي على عجل ، ولم يفكر في العاقبة . وقد أراد أن تتخذه دليلا على ثقته فيك » . وقصبت عليها الحكاية من أولها الى آخرها « وأرمانيوسه مصغية كل الاصغاء حتى نهاية الحديث . فمرت لثبات حبيبا وعزمه على التفاني في سبيل انقاذها وقالت : « أشكرك يا بربرة على هذه الخدمة فانها ثمينة لدي وسأفكك عليها أحسن مكافأة » .

فكانت بربرة : « هل تشعرين بأني عسلت عملا يستحق رضاك ؟ » .
قالت : « كيف لا وقد غررتني بفضلك ؟ » .
قالت : « اذا كنت تشعرين بذلك وتحينني فأرجو أن تساعدني في انقاذ فتاة النيل . مسكينة ! » .

قالت : « ومن تعنين بفتاة النيل ؟ » .
قالت : « أعني الفتاة التي سيلقونها في النيل غدا ظلما وعدوانا ، وحكايتها تشبه حكايتك على ما سمعت » .

قالت : « كنا في حديثها أمس ، ولكن كيف تشبه حكايتي ؟ » .
فحككت لها كل ما سمعته عن حال مرقس ، وأخذت تطنب في شهادته وتبالغ في شرح ظلم الفتاة الى أن قالت : « فاذا أنقذتها من يد هذا الظالم ينقذك الله من مصيبتك » .

فكانت : « وكيف العمل يا بربرة هل أكتب الى أبي ليأمر بانقاذها ؟ » .
قالت : « ان الوقت لا يساعدنا على ذلك لأنهم سيحتفلون باخراجها

غدا صباحا ، وسيدي أبوك قد - فر الى منف على ما علمت فلا نستطيع الوصول اليه والرجوع بأمره قبل فوات الفرصة ، وزيدي على ذلك أن الحاكم روماني ، وقد لا يكتفي بأمر والدك وحده بل يطلب أمرا من الاعيرج » .

فقالت : « وما العمل اذن لانقاذ هذه الفتاة ؟ دبري الحيلة وأنا أفعل كما تقولين » .

قالت : « أليس هذا خاتم سيدي أركاديوس واسمه عليه ؟ » .
 قالت : « بلى ! هل أبعث به الى الحاكم ؟ » . قالت : « لا . ولكننا نكتب أمرا على لسانه تأمره بإيقاف العمل الى وقت آخر ونختسه بهذا الخاتم ، فأنت تعرفين اللغة الرومانية ، وأنا آتيك بورق تكتبين عليه الامر ، وأنا الضامنة لنجاح الحيلة ، ولا أظن سيدي أركاديوس يعاتبك على استعمال خاتمته في انقاذ هذه البريثة من القتل » .



سرت أرماتوسة لهذه الحيلة ، وكتبت الورقة وختمتها وسلمتها الى بربراة ، فتركت سيدتها في الغرفة ونزلت الى الحديقة ، وكان مرقس في انتظارها عند الباب وقلبه يتقد قلقا وخوفا لئلا يذهب سعيه عبثا ، فلما جاءته بربراة بالكتاب سر كثيرا وتناوله وشكرها وخرج يريد القرية ، وبينما هو خارج من بليس سمع الناس يتحدثون بخروج القسس وبالاحتفال للذهاب بفتاة النيل في ذلك اليوم ، فعاد الى بربراة وأنبأها الخبر فاستأذنت سيدتها أن يركب مرقس ورفيقه مركبتها الخاصة ليدركا القوم قبل فوات الفرصة ، فأذنت لهما في ذلك ، فركبا المركبة وسارا حتى أدركا الفتاة كما تقدم .

وتذكرت بربراة ما سمعته من الشيخ الريفي عن قتل قسطنطين

فهرولت الى سيدتها وعلى وجهها أمارات البشر وقالت : « تذكرت أمرا ذا شأن كان يجب أن أطلعك عليه قبل كل شيء ، ولا أدري ما أنسانيه ؟ »
 قالت : « وما هو ؟ » . قالت : « سمعت أن قسطنطين قتل في حربه مع ان عرب في الشام » .

فلما سمعت أرمانوسة الخبر خفق قلبها سرورا وقالت : « ماذا تقولين يا بربرة ؟ » . قالت : « سمعت ذلك يا سيدتي من الشيخ الذي بتنا عنده في عين شمس ، ولكنه قال انه لم يتحقق الخبر » .

فرفت أرمانوسة يديها الى السماء قائلة : « لا أريد بأحد سوءا يا رباه ، ولكن لا بد لأحدنا من الموت حتى لا نجتمع » فان كنت قد قضيت على قسطنطين فلتكن ارادتك » . ثم التفت الى بربرة وقالت لها : « وهل يمكننا أن نتحقق ذلك فان تحققه يهنا كثيرا » .

قالت : « ليس لنا يا مولاتي الا أن نبعث رسولا الى الشام يتجسس الخبر وينبئنا » .

قالت : « هلم لنبعث أحدا . ومن تظنيه أهلا لذلك ؟ » . فأطرقت بربرة برهة ثم قالت : « أرى أن نبعث الى مرقس ، فانه شهيم مقدم ، ولنا عليه أننا أنقذنا له خطيبته من القتل ، فاذا عاد وقد نال مرامه بعثنا به يستطلع الحقيقة ، وأظنه أفضل رجل يمكننا الاعتماد عليه في هذه المهمة » .

قالت : « قد أصبت المرمى ، ولكن متى يعود ؟ » . قالت : « أظنه يعود غدا » . قالت : « اذا عاد فكلفيه بذلك لعله يزيل هذا العناء ، فتكون خدمته لنا مثل خدمتنا له » .

قالت : « حسنا » . ثم تذكرت كتاب البطريق نيسامين الى المقوقس وأنه لا يزال معها فقالت : « وقد نسيت شيئا آخر لا أدري ما ذهب به عن ذاكرتي » .

قالت : « وما ذلك ؟ » . قالت : « هذا الكتاب » . وأخرجته من جيبها ، فتناولته أرمانوسة وفضته وقرأت ما فيه ، وقالت : « هذا يجب إيصاله الى والدي سريما ، فما العمل ؟ » . فقالت : « نبعثه مع جرجس ، فاني قد اختبرت صداقته أيضا ، ولكنه ذهب مع صديقة لا نقاذ مارية » .

قالت : « أرسله بالجواب حالما يعود ولا تبطئي » .

قالت : « حسنا » . وباتتا تلك الليلة تفكران في هذه الامور ، فلما أصبح الصباح من نافذة القصر المشرفة على الطريق ، كانت بربرة وسيدتها مطلتين من نافذة القصر المشرفة على الطريق ، فشاهدتا المركبة وعليها الرجلان والعلم . وبعد قليل وقفت المركبة بازاء القصر ، فنزلت بربرة واستقبلتهما وسألتهما عما كان فأخبراهما بنجاة الفتاة من مخالب الموت ، وقال مرقس « اني غريق فضلك وفضل مولاتنا أرمانوسة ، ولا أدري كيف أكافئها على هذه المنة ، فلا أكاد أصدق أنني رأيت مارية حية » .

فقالت بربرة : « هل أنت عازم على المكافأة ؟ » . قال : « نعم » .

قالت : « تمهل قليلا فأخبرك » . وأنت يا جرجس تعال معي « فتبعها حتى خلت به في غرفة من غرفة من غرف القصر وقالت له : « أتعجب مولانا المقوقس ؟ » قال : « نعم ، والله يشهد بذلك وأنت تعلمين » .

قالت : « هل عندك للسرمكان ؟ » . قال : « هذا أمر لا تجهلينه أيضا » .

قالت : « خذ هذا الكتاب واعلم أنه كتاب سري عليك الاحتفاظ به جيدا ، وتطلب اليك مولاتي أرمانوسة أن تخفيه بين أثوابك وتحمله الى والدها في حصن بابل وتدفعه اليه بغير أن يشعر بك أحد ، فهل تستطيع ذلك ؟ » .

فأمسك جرجس الكتاب فقبله وقال : « علي القيام بأمرك ، وليكن قلبك مطمئنا ، فان الكتاب سيكون بين يدي سيدي المقوقس غدا ان

• شاء الله »

فقال : « احذر أن يكشف أمره فان انكشافه يكون سببا لهلاكنا

جميعا • أفهمت ما أقوله لك ؟ » •

قال : « نعم يا سيدتي ، قد فهمته جيدا ، وهل أذهب الآن ؟ » •

قالت : « خير البر عاجله ، ولكن احذر يا جرجس أن يطلع أحد على

السر » •

فطمأنها وخرج وقد أخفى الكتاب تحت خوذته وتقلد سيفه وقوسه

وسار يريد مقر المقوقس •

أما بربرة فنادت مرقس وأجلسته في غرفة بالقرب من غرفة مولاتها ،

ثم دخلت الى مولاتها وأخبرتها بما فعلت بشأن الكتاب ثم قالت : « وهذا

مرقس ينتظر أمرك » •

قالت : « أريد أن يذهب حالا الى الشام فإذا لاقى في طريقه أحدا

فليستطلعه الخبر ، وليعد لنا حالا ، والا فليصل الى بيت المقدس • فان

العرب الآن في طريقهم من بيت المقدس الى هنا ، فلعله يعثر بهم في الطريق ،

أو يواصل السير الى هناك » •

فخرجت بربرة ونادت مرقس فأسرع اليها ، فدخلت به على

أرمانوسة ، فقبل الارض بين يديها ، وتأدب في الوقوف ، فأذنت له

بالجلوس ، فجلس مطرقا فخالت له بربرة : « أتذكر يا مرقس أن شيخ

عين شمس أخبرنا بمقتل قسطنطين بن هرقل ؟ » •

قال : « نعم يا مولائي ، وأذكر انه لم يتحقق الخبر » •

قالت : « صدقت ومرادنا الآن تحقيق الخبر على يدك ، لأنه يهنا

كثيرا » •

فوقف مرقس وحنى رأسه مطيعا وهم بخوذته ليضعها على رأسه

ويخرج ، فقالت بربرة : « ماذا تفعل ؟ » قال : « اني ذاهب لاستطلاع

هذا الخبر ومعرفة حقيقته » •

قالت : « بورك فيك أيها الشاب ، وقد أعجبتني مبادرتك ، ولك علي أن أحمي نارية من عدوها في أثناء غيابك ، فسر في حراسة الله ، ولكن احذر أن يطلع أحد على ما أنت ذاهب من أجله ، فانك اذا أطلعت أحدا عليه وقع عليك غضب مولاتنا ، وأنت تعلم ماذا تكون النتيجة » .

قال : « سمعا ومطاعة » ، وخرج يدبر وسيلة يسير بها « غير أنه ما لبث أن أدرك خطر تلك المهمة لأنه سيسير منفردا الى أرض عدوهم ، وهو لا يعرف لغة العرب ولا يفهم كلامهم ولا شيئا من أحوالهم ، ولكنه صمم على تنفيذ الامر قايما بواجب الخدمة نحو من كانت السبب في انقاذ حبيبته من القتل ، فمكث بقية ذلك اليوم في بليس يفكر في الأمر حتى أمسى المساء ، فذهب لوداع بربرة ، فجالسا رآته بشت له وسألته عما فعله فقال : « ها أنذا ذاهب الليلة » .

قالت : « لا أرى أن تسير ليلا خوفا عليك من خطر الطريق ، ولكنني قد تذكرت شيئا أقوله لك وأظنه يساعدك كثيرا في اتمام هذه المهمة » .
قال : « وما هو ؟ » . قالت : « أرى أن تستحضر ثوبا مثل أثواب العرب ، لأنك اذا التقيت بهم وأنت بهذا اللباس قتلوك » .
فقال : « ولكنني لا أعرف لباسهم ، ولا أذكر أنني شاهدت أحدا منهم » .

قالت : « أنا أعرف لباسهم لأنني شاهدت عريبا جاء مرة الى سيدي المقوقس بكتاب ، وكان ملتحفا شملة بيضاء وعلى رأسه عمامة من نسيج تلك الشملة . فعليك ثوب من نسيج القطن الابيض أو من القباطي وهو كثير عندنا ، وأنا أصنعه لك ثوبا وأعلمك كيف تلف العمامة » .

قال : « فأذني لي بالذهاب الآن لاحضاره » . فأذنت له فخرج وقد ازداد تمهيه لذلك السفر « وخاف أن يقتل أو لا يرجع الى حبيبته ولا يراها ، فرأى أن ينهتهم تلك الفرصة لوداعها فصار مسرعا الى القرية ،

وكان قد ترك مارية رغباً عنه ليلاً في بربرة ويشكرها على صنيعها ويسلم المركبة إليها ، وكانت مارية تنتظر عودته سريعاً ، فلما أبطل انشغل بالها عليه ، وقلوبها والدها لغيابه ، فلما جاء المساء انقبضت نفس الفتاة ، وجعلت تتردد الى باب الدار ، وتطل على الطريق تتفرس في المارة لعلها تراه قادماً ، وكلما رأت شبحاً ظننته هو ، وبينما هي كذلك رأت رجلاً مسرعاً نحو الباب فعرفت من حركاته انه مرقس ، فدخلت وأخبرت والديها ففرحاً كثيراً وخف الجميع لاستقباله ، ورحب به والداها وقبلاه . أما الفتاة فبقيت واقفة مطرقة وقلوبها يختلج فرحاً فحلاً وجهه نحوها وحياتها فمدت يدها تسلم عليه فأحس بيدها باردة كالثلج ، فشر كل منهما بقشعريرة الحب ، أما هو فتذكر ما جاء من أجله واضطراره الى الرجوع حالاً فانقبضت نفسه ، ولكنه تجلد وأظهر الانبساط ، فدخل الجميع الى غرفة الاستقبال وهم يرحبون بمرقس ويبالغون في مدحه والثناء على شهامته لما أتاه من الهمة في انقاذ مارية ، وهو لا يجيبهم خجلاً . فلما أكثروا من المدح التفت اليهم قائلاً : « يجب علينا جميعاً أن نشكر الذي كان السبب الحقيقي في هذا الخير » .

فقالوا : « ومن هو حتى نذهب اليه ونشكره ونقدم أنفسنا عبيداً

له ؟ » .

قال : « وماذا يستحق هذا الفاعل عندهم ؟ »

فأجابوا جميعاً بصوت واحد : « يستحق كل خير وأمره علينا

لا مرد له » .

قال : « ان السبب في ذلك الخير كله مولانا أرمانوسة ابنة مولانا

المقوقس ، فما قولكم ؟ » .

فصاحوا بصوت واحد : « لتعش أرمانوسة ، ولكننا لا يمكننا

مكافأتها لأنها لا تحتاج إلينا في شيء ، وعندها من الخدم مئات مثلاً » .

فقال : « ولكن هبوا أنها احتاجت الى أحدنا في خدمة فهل نقضيها لها ؟ » .

قال الوالد : « نعم هذا فرض واجب حتى لو أدى الى الموت » .
فقال : « اذن لا تستعظموا الخبر » فقد كلفنتي قضاء حاجة بعيدة الشقة وأنا على يقين أن كثيرين غيري يودون أن تكلفهم أية خدمة يؤدونها ابتغاء مرضاتها لأنها ابنة الوالي الأكبر وزمام والدها بين يديها ، واقتراحها عنده لا يرد فاذا قضيت لها هذه الخدمة فانها تسعى عنده في ترقيتي » وربما أنعمت علي انعاما يريحني من شقاء الخدمة العسكرية » .

وقد أراد بذلك أن يهون عليهم أمر ذهابه ويرغبهم فيه ، ولكنهم بهتوا ، وامتنع لون مارية خوفا على حبيبها من طول الغياب ، بعد أن كانت ترجو بقاءه عندهم هذه المرة أياما بل أن تبقى دائما ، فأرادت منعه عن السفر ولكنها رأت في ذلك جرأة غير محمودة فضلا عما عاينته من استحسان والديها للقيام بخدمة أرمانوسة فصمتت .

أما الوالد فقال : « وما هي هذه المهمة ؟ » . قال : « الى مكان بعيد لا أقدر أن أذكره لكم ، لأنني عاهدت أرمانوسة الا أبوح به الى أحد . ولكنكم ستعرفونه بعد عودتي ان شاء الله تعالى ، فأطلب اليكم أن تصلوا وتسالوا الله أن يأخذ بيدي » .

فجعل كل منهم ينذر نذرا لدير من الاديار دون أن يعرف أحدهم ما نذره الآخر . . . وبقي مرقس برهة هناك وقد نسي ما جاء من أجله ، ثم هب بغتة وودعهم جيبا وبخاسة مارية ، فاته شد على يدها عند الوداع كثيرا ، فتناثرت الدموع من عينيها . وأما هو فتجلد وقبل أيدي والديها وخرج وعيونهم تتبعه ، ولكن الظلام حال بينهم وبينه . فسار توا الى مكان يعرفه ، فابتاع قطعة من القباطي وقصد بليس ماشيا ، وكانت بربرة قد استبطأته وشغل بالها عليه » فخافت أن يذهب قبل الاستعداد .

ولكن بينما هي جالسة الى سيدتها وقد مضى هزيع من الليل اذ جاءها بعض خدم القصر ينبئونها بقدومه ، فنزلت واستطلعت الخبر ، فأراد التظاهر بحيلة ، ثم حدثته نفسه ألا يلوث ضميره بالكذب وهو سائر الى غربة وخطر ، فأخبرها بجلية الخبر فعدرته ، ولكنها قالت له : « اعلم أن نيل خطيبتك معقود بتنفيذ هذه المهمة » . وأخذت الثوب منه فقصت منه قطعة جعلتها مثل العمامة ، وقطعت القطعة الاخرى على مثال الشملة ، وألبسته اياها وقالت : « فلتكن هذه الثياب معك مطوية حتى تدرك مكان العرب ، فتخلع لباسك هذا وتلبسها ، أما اذا لبستها منذ الآن فستكون في خطر من جندنا ، وربما انكشف أمرك » .

قال : « ولكن ربما سئلت في الطريق عن سبب سفري وعلي لباس الجند ، فماذا أجيب ؟ » . قالت : « قل انك ذاهب بأمر من السيدة أرمأنوسة الى حاكم القرما في حدود مصر شرقا ، فاذا تجاوزت القرما فليلا دخلت حدود الشام ، فاذا التقيت بالعرب وتمكنت من طريقة لاستطلاع حالهم فافعل . أما خبر قسطنطين فأنفذه لينا حالا » .

* * *

بات مرقس تلك الليلة في مكان بالقرب من بليس استعدادا للسفر باكرا . فلما طلع الفجر نهض وسار حاملا ثياب البدو وبعض الزاد ليتغذى به اذا جاع ، وفيه تمر جاف وبعض الخبز . فقفى سحابة ذلك النهار وبعض ليله سائرا ، وبات في احدى القرى ، وبكر في الغداة ، وما زال حتى أمسى عليه المساء وقد علم أنه على مقربة من القرما ، فتردد بين أن يبيت تلك الليلة حيث هو ثم يصابح البلدة ، أو أن يواصل السير حتى يصل اليها ليلا ، فجلس في ظل نخلة يتناول بعض التمر من جرابه ، فلاحظ

منه التفاتة في عرض تلك الصحراء ۝ فإذا بنار تضيء ، فجعل يفكر في أمرها فخيل له أنها نيران بعض أهل هذه الناحية ، فقال لعلي إذا ذهبت اليهم اسمع منهم خبرا أو أبيت عندهم الليلة ، فنهض ، وسار طويلا قاصدا النار وهو يحسبها قرية ، وقد خيم الليل وهذا الجو واستولى السكون على تلك الانحاء ، فخاف أن يعترضه حيوان مفترس في ذلك الخلاء ۝ ولكنه تشجع وواصل السير حتى سمع صوتا استغربه ، فأصاح بسمعه فإذا هو صوت حيوان لم يذكر أنه سمعه من قبل ، فخاف أن يكون وحشا ضاريا ، فوقف صامتا ، والتجأ الى شجرة من السنط فإذا بالصوت قد انقطع ۝ ثم عاد فسمعه ۝ فأخذ يتفرس في الأفق من جهة الصوت لعله يعرف نوع الحيوان فلم يفلح ، وفيما هو ينظر في عرض الصحراء لاح له شبح هائل عن بعد ، فدنا مرقس من الشجرة واستلقى على الرمال ، وجعل يحرق بعينه في الأفق ، فرأى فارسا راكبا حيوانا غير الجواد طويل العنق لا يسمع لوقع أقدامه صوت ، فكان أول وهلة يظنه زرافة لأنه رآها في حديقة المقوقس في منف ، ولكنه لا يعهدها تصلح للركوب ، فتربص برهة وإذا بالفارس يقترب من تلك الناحية وظهر له من جهة قدميه أنه آت من مكان النار وكان سيره حثيثا ، فما عثم أن وصل الى الشجرة ، ومارس لا يزال منبطحا على الرمال ، ولم يكن يريد النهوض فلما منه أن الفارس يمر ولا يراه ، فإذا به قد ناداه عن بعد بلسان الروم قائلا : « من الرجل ؟ » . فلم ير مرقس بدا من الاجابة ، وبخاصة لما سمعه يخاطبه باللغة اليونانية ، وكان مرقس يعرفها جيدا ، فنهض وقال : « جندي . ومن أنت ؟ » . قال : « وأنا كذلك » . ثم سمعه ينيخ مركبه بصوت كالشخير ، وإذا بالحيوان قد توسد الارض جثوا وأخذ بالجعر ، فتأمل فإذا هو الهجين ۝ ولم يكن رآه ، لأن الهجن والجمال لم يكن يعرفها المصريون ولا رأوها الا مع العرب اذا جاءوا مصر في قوافلهم . وكان قدوم القوافل

الى منف نادرا ، ولكن مرقس شاهد الهجين مرة ، وقد جاء عليه رسول
بكتاب من بلاد العرب الى المقوقس . فلما رأى ذلك الرجل قادما على
النهجين علم أنه آت من معسكر العرب . ولكنه عجب لتكلمه اللغة
الرومية ، فأوجس خيفة وأعد خنجره للدفاع اذا اقتضت الحال . ثم رأى
الرجل قد شد حبلا عند ثني ركبة الهجين ومشى نحوه ، فناداه : « قف
عندك وقل من أنت قبل أن تقرب » . فقال : « اذا كنت من جند الروم
بصر فلا تخف فاني من جندهم في بلاد الشام » . وأقسم له بالمسيح
والقديسين أنه لا يؤذيه ، فدنا منه مرقس وهو لا يزال يحاذر ، فاذا
الغريب بلباس الجند الروماني ، ولكنه ما برح مرتابا في أمره لركوبه
الهجين ، فقال له : « كيف تقول أنك روماني وأراك راكبا هجينا ؟ » .
قال : « سأقص عليك خبري متى جلسنا » . فدنا منه ، ولم يستطع
تسييزه جيدا لشدة الظلام ، ولكنه تحقق من ملامحه أنه روماني . وبخاصة
لما رأى لباسه وسمع كلامه .

فلما اقتربا سلما فسأله مرقس : « ما اسمك وما خبرك ؟ اني لا أزال
مستغربا ركوبك الهجين وهو خاص بالعرب ، ولم يدخل الى بلادنا الا
فليلا ، وأنت من جند الروم ولسانك يشهد عليك » .
فأمسكه بيده وجلسا على حجر وقال له : « أما اسمي فهو بروفنس ،
وأنا جندي من جنود البطريق يوقنا عامل الروم على حلب الشهباء ، وأما
ركوبي الجمال فله أسباب سأقصها عليك متى أخبرتني من أنت » .
قال : « اني رسول من مولاي المقوقس ، ذاهب الى القرما بمهمة
خاصة » .

قال : لعلك جاسوس ؟ »
قال : « لا . ولكنني رسول كما أخبرتك » .
قال : « لا فرق عندي مهما تكن مهمتك ويكفيني أنك من جند

الروم ، وأشكر الله لأنني التقيت بك هنا فاستفيد منك أمورا ربما كفتني
مؤونة المسير الى بليس » •

قال : « لعلك كنت ذاهبا اليها ؟ » •

قال : « نعم كنت ذاهبا اليها برسالة الى أرمانونسة بنت المقوقس » •
فلما سمع اسم أرمانونسة استأنس بالرجل واستبشر خيرا فقال :
« ومن أرسلك بهذه الرسالة ؟ فانك قد وقعت على خير » لأن أرمانونسة
سيدتي ، وقد كنت عندها أول البارحة ، فما غرضك منها ؟ » •

قال : « أما مرسلي فالبطريق يوقنا صاحب حلب ، وهو الآن في هذا
المسكر عند هذه النار ، وأما رسالتي فهي لا علاقة لها بالحرب » •
قال : « وما الذي جاء بكم الى هنا وأنتم من حامية حلب ؟ » •

قال : « لما استولى العرب على حلب أخرجونا منها ، فالتقيت سيدي
بقسطنطين ابن الامبراطور وهو في قيسارية ، فبعث به مع جباة من
جندة ليحمل اليه خطيبته أرمانونسة » •

فقال : « وأين قسطنطين الآن ؟ » • قال : « هو قادم في بحر
الروم بمراكبه التي سترسو عند دمياط ، حيث يكون في انتظارنا ليحمل
خطيبته الى القسطنطينية » •

فاتضح الامر لمرقس وعلم أنه أصاب ضالته عفوا فقال : « اذا كانت
الحال كما ذكرت فأخبرك بالحقيقة أنني رسول مولاتي أرمانونسة لا مولاي
المقوقس ، وكل ما نريد أن تعلمه عنها أطلعك عليه لأنني عالم بكل شيء » •
قال : « هل هي في خير ، ومستعدة للمسير الى مولانا ؟ » •

قال : « نعم انها كذلك ، وقد جاءت بليس منذ أيام في انتظاره ،
ولكنك لم تخبرني عن سبب ركوبك هذا الجمل وأنت روماني » •

قال : « أراك تدقق السؤال ، ولكنني قد استأنست بحديثك وتوسمت
فيك الصدق ، فأخبرك أنه لما فتح العرب حلب أمسكوا مولاي يوقنا

وجماعة من رجاله ، وفي جملتهم أنا ، فبقينا نؤاكلهم ونشاربهم ونرافقهم في أسفارهم ، فتعودنا ركوب الجبال والهجن ، لأننا رأيناها أسرع عدو من الخيل ، فعولنا عليها في السفر السريع » .

فقال مرقس : « وهل في معسكركم هذا جند من العرب ؟ » . قال :

« لا » .

فقال : « وهل علمتم شيئا عن عزمهم على غزو مصر ؟ » .

قال : « علمنا أنهم قادمون إليها بحملة ولعلمهم الآن في العريش » .

فبهت مرقس وأخذ يتأمل ما سمعه من بروفس ، فلم يره منطقيا على احكام العقل ، ولم يفهم كيف أنهم خالطوا العرب وآكلوهم وعاشروهم حتى تعلموا ركوب الجبال ، وكيف أنهم قادمون لحمل أرماتوسة الى قسطنطين . فقال له : « وهل اعتق مولاكم يوقنا ديانة هؤلاء العرب ؟ » .

فتوقف بروفس عن الجواب برهة ثم قال : « قد اتهمه بعضهم بذلك ،

ولكنه بريء منه » .

فأدرك مرقس أن الحكاية ليست بالحال التي تصورها ، وأساء الظن فيما سمعه من الرجل ، ولكنه خاف اذا أظهر الارتياب أن يغدر به ، فتظاهر بتصديق كلامه ثم قال : « ولكننا سمعنا خبرا كدرا كثيرا من قسطنطين » . وأراد اتمام الكلام فابتدعه بروفس قائلا : « أما اذا أردت ما أشاعه العرب عن قتله فهو عار عن الصحة ، لأن مولانا قسطنطين في خير وسلامة ينتظر وصول عروسه » .

فقال مرقس : « ألا تخافون أن يلقاكم العرب في عودتكم من

بليس ، وأنتم تقولون أنهم قادمون وقد وصلوا الى العريش فلا يلبثون أن يكونوا هناك قريبا ؟ » .

فقال بروفس وقد ارتبك في الجواب : « لا . لا أرى علينا بأسا ،

لأنهم يعتقدون فينا الاخلاص لهم » •

فقال مرقس في نفسه : « قد تحققت بقاء قسطنطين حيا ، فهل أرجع بالخبر أو أواصل الاستقصاء عن حال العرب وقوتهم لعلني أعود بشيء مفيد لسيدي المقوقس فأنال حظوة في عينيه ؟ » • فرأى أن يواصل السير في الحديث فقال لبروفس : « انك اذا قدمت الى سيدتي أرمافوسة ، وأنبأتها ببقاء قسطنطين حيا ، تبر بك كثيرا • فعجل بالمسير ، وأخبرها بأنني قد علمت ذلك منك ، واني ذاهب لاتمام مهمتي في القرما » • وقد أراد أن يتم استقصاء أخبار العرب ، ولكنه رأى أن يغتنم تلك الفرصة لكي يدخل الى معسكر يوقنا فيستفيد منهم شيئا يساعده على مرامه فقال لبروفس : « هل لك أن ترافقني الى مولاك يوقنا لعله يريد أن يستخبرني ، أو يسألني شيئا ؟ » •

فقال : « لا أستطيع العودة معك ، ولكنني أعطيك شعار الليل ، فاذا وصلت الى المعسكر وسألك أحد من أنت ؟ قل له : « السلام عليكم » وأفهمه نطق هذه اللفظة بالعربية ، وهو لا يفهم معناها ، فظنها اسما لرجل أو بلد • ولو فهم معناها لأدرك أنها كلمة تدل على اسلام قائلها أو انتمائه للمسلمين ، فكررها مرارا على سمعه حتى حفظها • ثم تأمل مرقس في ثياب بروفس فاذا هي تختلف عن ثيابه ، فخاف اذا دخل معسكر يوقنا بشيابه أن ينكشف أمره ، فأراد أن يحتال على بروفس ليأخذ ثيابه فقال : « ألا تخاف يا أخي اذا مررت بثيابك هذه أن يرتاب فيك المصريون ؟ » • قال له : « ولماذا ؟ » • قال : « انهم يرونك غريبا ، فربما أوقعوا بك شرا ، وبخاصة وأنت لابس هذا اللباس • وبما أنك سائر الى سيدتي أرمافوسة أرى أن أخلع لك ثيابي هذه فتلبسها ، وهي لباس جند مصر ، فاذا مررت في البلاد لا يستغربك أحد » • قال : « وأنت ماذا تلبس ؟ » • قال : « أعطني ثيابك فألبسها » •

فاستحسن بروفن الرأي ، وتبادلا الثياب ، وقد فرح مرقس فرحا لا مزيد عليه بنجاح حيلته . ثم نهض بروفن وركب هجينه وودع مرقس . وأخبره أن فسطاط يوقنا بالقرب من تلك النار ، وسار قاصدا بلييس .

أما مرقس فظل ناظرا اليه حتى توارى عنه ، فجعل يفكر في حاله وما سمعه منه وقيسه ويطبقه بعضه على بعض ، فأدرك أن في الأمر خداعا أو مكيدة ، فقال في نفسه : « فلاذهب الى معسكر يوقنا لعلني أعلم دخيلة الامر » .

وسار قاصدا تلك النار حتى كاد يقترب منها ، فسمع هدير الجمال عن بعد فخيّل له أنه ذاهب الى معسكر العرب لا معسكر الروم ، ولكنه توكل على الله ومشى ، وإذا بفارس قد اعترضه قائلا : « من أنت ؟ » . فاجابه مرقس : « السلام عليكم » . فأخلي سبيله ، وقال له : « أين كنت ؟ » . قال : « خرجت من المعسكر لأمر وعدت » .

قال : « أدخل » . وقد ظنه من معسكرهم وبخاصة ان لباسه كلباسهم فشئى مرقس وهو يتأمل المعسكر ، فإذا هو مؤلف من عشرات من الخيام بعضها بدوي وبعضها روماني ، فجعل يخطر بينها ينظر في حال الجند : فإذا هم من الروم وفيهم بعض البدو ، فاستغرب ذلك واختلط بهم وتظاهر أنه واحد منهم كان قد تخلف في الطريق ثم لحق بهم . وما زال سائرا حتى أتى خيمة البطريق ، فرأى الحراس محيطين بها بسلاحهم ، وكانت فسطاط كبيرة يتسع لجماعة . فقال : « لانتظرن الى الغد لأرى ماذا عسى أن يكون » .

ثم عرج الى خيمة فيها جمع كبير : فدخل بينهم وتناول الطعام معهم . فظنوه من جندهم ولا عبرة بلونه وملامحه المصرية ، فقد كان ذلك الجند خليطا من الروم وأهل حلب وما جاورها ، وربما كان فيه بعض المصريين ، لأن هرقل استنجد المقوقس في أثناء حروبه مع العرب في

الشام . فأرسل المقوقس اليه مددا وفيهم بعض القبط .

فبات تلك الليلة وهو يسمع الاحاديث ويحفظها ، فاستنتج منهم أن يوقنا في حلف مع العرب ، وأن العرب قد أصبحوا على مقربة من هناك .
ولما أقبل الصباح بكر مرقس الى فسطاط يوقنا ، فاذا بالحراس وقوف عند بابه ويوقنا جالس في صدره وعليه رداء غير رداء الرومان ، فتأمل الرداء فاذا هو يقرب شكله من الملابس التي جلبها معه ، ولكنها أحسن حالا ، وفوق الرداء جبة ، وعلى رأسه عمامة ، وسمع الناس اذا ذكروه سموه باسم غير اسمه الاصلي ، فرجع لديه أن الرجل قد اعتنق الاسلام ، أو هو في خدمة المسلمين ، وأيد ظنه هذا خلو المعسكر من شعائر النصرانية ، وأهمها الصلبان التي كان الروم يتخذونها شعارا لهم في الحروب ، فيحملونها مع الاعلام في مقدمة الجند ، فاذا عسكروا نصبوها بجانب الاعلام .

ثم تحول عن الخيمة وجعل يطوف المعسكر يتفقد حاله لعله يقف على شيء من أمر العرب ، فوصل الى أطراف الخيام فشاهد رجلا جالسا على ربوة بالقرب من المعسكر ينكت الارض بعصا بيده كأنه يفكر في أمر أقلقه ، وقد قبض في إحدى يديه على شيء يشبه الرق ، فوقف مرقس عن بعد يتأمل في حركاته وسكناته ، فاذا بالرجل في لباس جند يوقنا ، ينكت الارض تارة وينظر الى ذلك الرق طورا ، وهو يحاذر أن يراه أحد ، ثم التفت الى جهة المعسكر فرأى مرقس فجعل باخفاء الرق وتظاهر بأمريتشاغل به .

وأمن مرقس النظر في وجهه فاذا ليس رومانيا ولا مصرية ، فعجب لأمره ، وأراد الدنو منه لعله يقف على خبر جديد فخاف أن تحول جرائته هذه بينه وبين ما يريد ، فتجاهل وتحول عن المكان ودخل المعسكر على أن يغتنم فرصة أخرى ليجتمع به ويستطلعه حاله ، وما برح

يراقبه حتى رجع الى المعسكر في المساء واختلط بالجند ، فلما أمسى المساء التقى به في بعض الخيام يتناول العشاء مع الجند ، فتأمل وجهه فتذكر أنه يعرفه . ولكنه لم يذكر أين شاهده ، ولا ما اسه . فبقي صامتا ينظر اليه تارة ويتشاغل عنه تارة أخرى لتلا يلحظ منه ذلك . ثم رآه ينظر اليه كأنه يريد التعرف به . فتجاهل مرقس هذه النظرة خيفة انكشاف أمره ولكنه كان كثير التشوق الى معرفة حاله وما هو قادم من أجله . فلبث ريثما مضى وقت العشاء ، وأخذ الناس يتفرقون ، فاذا بذلك الغريب قد خرج من تلك الخيمة ومشى الى خيمة من خيام العرب ودخلها وجلس الى بعض من فيها وجعل يكلمهم بلسانهم ، فعجب مرقس لمعرفته اللمة العربية فضلا عن اليونانية . وازداد تشوقا لمعرفة حكايته ، ولم يعلم كيف يبادئه الكلام ، فصر ينتظر الليل فقال في نفسه : « لنستظر الى صباح الغد » . ثم ذهب الى منامه .

- ٧ -

عمرو بن العاص

وكان اليوم التالي فاستيقظ مرقس على ضوضاء الجند ، ونهض مذعورا ، واذا به يراهم قد تجسروا وخرجوا من المعسكر ينظرون الى جهة الصحراء . ثم رأى غبارا يتصاعد والناس يثطلولون بأعناقهم ، وقد علا ضجيجهم ، وفي مقدمتهم « يوقنا » يجر حسامه وراءه تيه ، وقد أحاطت به حاشيته . وكلهم ينظر الى جهة الغبار . فسأل مرقس عن ذلك

ف قيل له : « ان العرب قادمون » فأظهر انه عالم بقدومهم لئلا يسيئوا
الظن به ، ثم علم ان القادمين هم جند عمرو بن العاص القادم لفتح مصر
فلتب واقفا في جملة الواقفين ، وقد نسي رجل الامس ، على أنه حاول أن
يراه فيمن حوله من الناس فلما لم يره ، عول على أن يستطلع مكانه بعد
ذلك .

و نظر الى موكب البطريق يوقنا فاذا هو مؤلف من حاشيته ، وكلهم
في اللباس الروماني الا هو ، فقد لبس العمامة وتقلد الحسام ، وسجع
الناس ينادونه باسم عبد الله ، فتحقق لديه اذ ذاك أنه اعتنق الاسلام لا
محالة ، وبخاصة لما رآه مستبشرا بقدوم جيش العرب .

ثم جيء الى يوقنا بجواد ركبه وركب معه بعض رجاله ، وخرجوا
للقاء العرب ، فلبث مرقس واقفا ينظر الى موكب يوقنا ذاهبا ، وجند
العرب يتقدم حتى انكشف الفبار عن جند عظيم يتقدمهم الفرسان على
خيول عربية تسابق الرياح ، والاعلام تخفق فوق رؤوسهم يحملها
القواد ، وفي المقدمة رجالان على هجينين فعلم أنهما الدليلان يقودان الجند ،
ومن ورائهما الفرسان ، وفي مقدمتهم فارس على جواد من خيل الينس ،
وعليه العدة والسلاح ، وفي ركاب الفرسان جساءة من العبيد يسوسون
الخيول ، فلما التقى الفريقان ترجل يوقنا ، وترجل فرسان العرب ، وتقدم
يوقنا الى كبيرهم ويصافحا وتعانقا ، ثم سلم على الآخرين وعاد معهم وقد
أخذ كبيرهم يده . فسأل مرقس عن اسمه فعلم أنه البطل الشهير عمرو
بن العاص ، وكان قد سمع به كثيرا فتنفس فيه جيدا ، فاذا هو قصير
القامة وافر الهامة أدهج أبلج عليه ثياب موشاة كان بها الذهب يأتلق ،
ومنها حلة وعمامة وجبة . وقد أحاط به ويوقنا رجال من كبار العرب
يملأون ويكبرون ، فتنحى مرقس جانبا ليرى مقدار الجند ، فاذا
يملأون الصحراء ، وفيهم الفرسان والهجاة والمشاة وحملة الاعلام ،

وقد لبس كبارهم العمام الخضر ، وتقلدوا السيوف والخناجر . وأما المشاة ففيهم نقلة الرماح والنبال . ثم أخذوا يتفرقون كل جماعة الى ناحية يتقدمهم علم خاص بهم ، ينصبون الخيام ويضربونها . وأول خيمة ضربت فسطاط الأمير ، وهو خيمة كبيرة مبطنة بالحرير الاحمر نصبوها على أعمدة من القصب الهندي ، وضربوا أطناها وفرشوا أرضها بالبسط والطنافس وهياؤها لاستقبال الأمير . أما عمرو فسار مع يوقنا حتى دخلا خيمته للاستراحة . فلبث مرقس ليشاهد بقية الجند ، وقد أراد أن يعرف مقدارهم فعلم أنهم يزيدون على أربعة آلاف ، وبعد أن تفرق الجند فرقا ونصبوا الخيام جماعات ، وصلت جمال الساقة ومعهم الهوداج والاحمال ، وفي الهوداج النساء والاولاد ، وهم يصيحون . وتحول مرقس الى خيمة الأمير فرأها قد شغلت بقعة كبيرة من الارض ، ولكنه لم يشاهد في فرشها كرسيًا ولا مقعدًا كما كانت الحال بخيام الروم اذا نزلوا ، وشاهد أمام الخيمة علما هائلًا عليه رسوم كأنها كتابة باللسان العربي لم يفهمها . أما جند الروم فكانوا يهللون ويرحبون بجند العرب كأنهم كانوا على موعد ، ففهم من ذلك أنهم كانوا في انتظار وصولهم .

ثم تحول نحو خيمة يوقنا فرأى عمرو بن العاص قد خرج منها وسار نحو خيمته يصحبه كبار قواده ، فاقترب منها جهده فاذا بعمرو قد جلس في صدرها على وسادة من الحرير ، وقد وضع السيف على فخذه ، والى كل من جانبيه رجال من العرب في مثل لباسه ، ويوقنا بين يديه يرحب به ، وبينهما ترجمان كان قد شاهده مع عمرو يحمل العلم ، ثم علم أن اسمه « وردان » اذ سمع عمرو يدعو به . وبعد هنيهة سمع قراءة باللسان العربي وترتيلا ، فنظر فرأى رجلا عربيا جالسا في بعض جوانب الخيمة يقرأ عن ظهر قلبه بنغم مطرب ،

والناس جلوس ووقوف يصفون ويطربون لسماع ذلك النغم ، ثم التفت بفتة الى من حوله فاذا بالرجل الذي كان قد شاهده بالامس واقفا الى جانبه ، فأراد أن يخاطبه فسأله عن اسم الرجل الجالس في صدر المكان فقال باليونانية : « هو الامير عمرو بن العاص » . فأدرك مرقس من لهجته انه دخيل على اللسان الرومي ، فخاطبه بالقبطية وسأله عن ذلك الترتيل فقال : « انهم يرتلون كتابا عندهم اسمه القرآن وهي عادة يتبركون بها » . فأدرك مرقس ان اللسان القبطي أيضا ليس لسانه ، فرغب في الاستفهام عن حاله فقال له : « وبأي لسان يقرأون ؟ » . قال : « باللسان العربي » فقال : « وهل تفهم لسانهم ؟ » قال : « نعم أفهمه جيدا وهو لساني ، وأنت ما لسانك ؟ » . فقال : « اني من جند الروم » .

قال : « ولكنني أراك تتكلم القبطية ، وملامحك قبطية ، فهل أنت من أهل مصر ؟ » . فاضطرب مرقس عند ذلك وخاف أن ينكشف أمره فقال : « قلت لك اني من جند الروم وفيه من سائر الملل » . فتبسم الرجل وقال بالقبطية همسا : « ولكن قل ولا تخف الحقيقة ، اني لا أريد بك سوءا ، ولعلك صدقتني أن تنال خيرا » . فتحير مرقس ولم يعلم بماذا يجيبه وسكت لا يتكلم .

فأدرك الرجل أنه يراوغه ويريد اخفاء أمره ، فأعاد سؤاله قائلا : « قل ولا تخف ، فاني أعرفك ولو أخفيت حقيقة حالك ما خفيت علي » . فقال مرقس : « وأظنني أعرفك أيضا وكأنتي رأيتك قبل هذا اليوم في الاسكندرية » .

فقال الرجل : « أنت اذن مرقس تابع المقوقس » . فاخترج قلب مرقس في صدره وخاف عاقبة الامر ، فقال له الرجل : « لا تخف اني لك نصير » . فهل عرفتك أم أنا مخطيء ؟ » .

- قال : « أصدقك الخبر ، انني أنا مرقس ، ولكن أين رأيتني ؟ » •
- قال : « رأيتك وقد جئت بيت يحيى النحوي الاسكندري بعد انحيازه لجماعة اليعاقبة مع سيدك المقوقس ، ألا تذكر ذلك ؟ » •
- قال : « نعم أذكر ذلك جيدا ، فأنت اذن زياد العربي » •
- قال : « نعم أنا هو زياد فلا تخف ، هل جئت هذا المعسكر تتجسس حال العرب ؟ » •
- قال : « لا والله وانما ساقنتني اليه الاقدار عن غير قصد مني ، وأنت ما الذي جاء بك الى هذا المكان ؟ هل تأذن لي بالسؤال عن ذلك » •
- قال : « أما مجيئي الى هذا المكان فقد كان لهمة لا أخفيها عليك ، فاني لا أخافك فقد آمنت فيك اخلاصا » •
- قال : « لقد أصبت ، واني أعد نفسي سعيدا لاجتماعي بك ، وقد رأيتك بالامس وآمنت فيك خيرا ، وكنت مهتما باستطلاع حالك منذ كنت جالسا على الأكمة خارج المعسكر مساء الامس وييدك الرق ، فأفصح ولا تخف » •
- قال زياد : « ليس يخفى عليك أن وجودي في الاسكندرية كان محض اتفاق اذ يندر أن ترى عريبا في بلادكم ، وأما قصتي فسأقصها عليك على اقراد لثلا لسمعنا جند الروم تتكلم بالقبطية فيشوا بنا ، والافضل تأجيل حكايتي الى المساء » •
- قال : « حسنا فلنتكلم الان بالرومية ، فاني أريد الاستفهام عن بعض ما أشاهده في هذا الجيش ، وقد عجبت لحال هذا الامير وسرني ما أرى في وجهه من الصبابة وما يتجلى في محياه من الشجاعة والشهامة ، لا عجب اذا ساد العرب الدنيا بأجمعها اذا كانت هذه حالهم • وهل عرفت شيئا عن حال يوقنا فاني أراه روميا ولكنه يلبس العمامة ويتزى بزى العرب ، وهذا جنده في لباس الروم » •

فتبسم زياد كأنه يفتخر بجنس العرب وقال : « ان العرب أهل شهامة ،واقدام وشجاعة ، ولا غرو اذا فتحوا الامصار وأخضعوا الملوك . أظنر الى ابن العاص فانه من خاصة رجالهم » وأنا أعرفه منذ كان جاهليا ، وهو يعرفني جيدا ، ولعله اذا رأياني الآن يناديني باسمي ويرحب بي ويجلسني الى جانبه ، ولكنني لا أريد أن يكون ذلك بمشهد من الناس اكراما لمن أرسلني ، لأنه يود أن تكون رسالته سرية » .

فقال : « ومن هو هذا الترجمان الذي ينقل الكلام بين يوقنا

وعمره ؟ » .

قال : « هو وردان مولى عمرو ، ويعرف اليونانية جيدا ، ويعرف القبطية أيضا ، وأنا لا أعرفه من قبل ، ولكنني فهمت ذلك من كلامه ، وسأعرف الليلة حكايته وحكاية هذا الجند وأطلعك عليها » .

فقال مرقس : « أحب كثيرا أن أعرف حقيقة حالك وما جئت من أجله لكي يكون كلامنا أكثر اياضا » .

قال : « تعال تنفرد جانبا » . وأخذ بيده وخرجا من المعسكر والجند مشغول بشؤونه ، ولم يلتفت اليهما أحد حتى وصلا الى مأمن فجلسا . فقال زياد : « اسمع يا مرقس أقص عليك خبري ، على شرط أن تحكي لي حكايتك وما جئت لأجله » . قال : « أقسم برأس سيدي المقوقس وحرمة الصليب اني أصدقك القول » . ومضى زياد يروي حكايته كما يلي :

كان سبب دخولي الى الاسكندرية وتمصري واعتناقي النصرانية اني كنت من رفقاء عمرو بن العاص مذ كان في الجاهلية ، أعني قبل أن يظهر الاسلام وينتشر ، وكانت دياتنا الوثنية مثل أكثر عرب الجاهلية ، وكنت أصعب عمروا حيثما توجه ، وكنا نحمل تجارة على جمالنا الى بيت المقدس في جماعة من قريش ، فمررنا يوما بضواحي تلك المدينة فاذا

بشماس من شمامسة الروم من أهل الاسكندرية قدم للصلاة في بيت المقدس ، فخرج الى بعض جبالها يسبح ، وكنا وعمرو نرعى أبلنا ، تناوبا بيننا ، فينما عمرو يركع أبله اذ مر به الشماس وقد أصابه عطش في يوم شديد الحر ، فوقف واستسقاء ، فسقاه من قرية له فثرب حتى روى ، ونام حيث هو . وكانت الى جنبه حفرة خرجت منها أفعى كبيرة فبصر بها عمرو فرماها بسهم فقتلها « فلما استيقظ الشماس نظر الى الحية التي أنجاه الله منها وقال لعمرو : « ما هذه ؟ » فآخبره خبرها ، فأقبل على عمرو يقبل رأسه ويقول : « قد أحياني الله بك مرتين : مرة من شدة العطش ، ومرة من هذه الحية ، فما أقدمك هذه البلاد ؟ » . قال : « قدمت مع صحبي نطلب الربح في تجارتنا » . فقال له الشماس : « وكم تراك ترجو أن تصيب في تجارتك ؟ » . قال : « أرجو أن أصيب ما أشتري به بعيرا ، فاني لا أملك الا بعيرين ، فلعلي أصيب بميرا ثالثا » .

فقال له الشماس : « رأيت دية أحدكم بينكم كم هي ؟ » . قال : « مائة من الابل » . فقال له الشماس : « لسنا أصحاب ابل انما نحن أصحاب دنائير » . قال : « تكون ألف دينار » . فقال له الشماس : « اني رجل غريب في هذه البلاد ، وانما قدمت أصلي في كنيسة بيت المقدس وأسيح في هذه الجبال شهرا ، وكنت قد جعلت ذلك نذرا على نفسي ، وقد قضيته ، وأنا أريد الرجوع الى بلادي » فهل لك أن تتبني اليها ولك على عهد الله وميثاقه أن أعطيك ديتين ، لأن الله عز وجل أحياني بك مرتين » . فقال له عمرو : « أين بلادك ؟ » . قال : « مصر - في مدينة يقال لها الاسكندرية » . فقال له عمرو : « لا أعرفها ولم أدخلها قط » . فقال الشماس : « لو دخلتها لعلمت انك لم تدخل مثلها » . فقال له عمرو : « وتعي لي بما تقول ، ولي عليك العهد والميثاق ؟ » . فقال له الشماس :

« نعم لك علي العهد والميثاق ان أفي لك وأن أردك الى أصحابك » .
 فقال له عمرو : « وكم يكون مكثي في ذلك ؟ » قال : « شهرا ، تنطلق
 معي ذاهبا عشرا » وتقيم عندنا عشرا ، وترجع في عشر » ولك علي أن
 أحفظك ذاهبا وأن أبعث معك من يحفظك راجعا » . فقال له عمرو :
 « أمهلني حتى أشاور أصحابي في هذا » . وجاء فشاورنا فيما عاهده
 عليه الشماس ، وقال لنا : « تقيمون هنا حتى أرجع اليكم » ولكم علي العهد
 أن أعطيكم شطر ذلك على أن يصحبني رجل منكم آنس به » فقلنا :
 « نعم » . وبعثوني معه . فانطلقنا مع الشماس حتى انتهينا الى مصر
 فرأينا عمارتها وكثرة أهلها وما بها من الاموال والخير ، فقال عمرو
 للشماس : « ما رأيت مثل ذلك » . ومضينا الى الاسكندرية فنظرنا الى
 كثرة ما فيها من الاموال والعمارة وزخرف بناؤها وكثرة أهلها فازددنا
 عجباً ، ووافق دخولنا الاسكندرية عيداً عظيماً يجتمع فيه ملوكهم وأشرفهم ،
 ولهم كرة من ذهب يتراعى بها ملوكهم ، وهم يتلقونها بأكرامهم . وفيما
 أخبروا عن تلك الكرة ، وفيما وصفها من مضي منهم ، انها اذا وقعت في كم
 رجل واستقرت فيه لم يمت حتى يملكهم . وأكرمنا الشماس الاكرام كله ،
 وكسا عمروا ثوب ديباج ألبسه اياه ، وجلس عمرو والشماس مع الناس في
 ذلك المجلس حيث يترامون بالكرة ، وهم يتلقونها بأكرامهم ، وأنا جالس
 على حدة ، فرمى بها رجل فأقبلت تهوى حتى وقعت في كم عمرو ، فعجبوا
 من ذلك وقالوا : « ما كذبتنا هذه الكرة قط الا هذه المرة ! أترى هذا
 الاعرابي يملكنا ، هذا ما لا يكون أبداً » . ثم مشى الشماس في أهل
 الاسكندرية ، وأعلمهم أن عمروا أحياء مرتين ، وأنه قد ضمن له ألفي
 دينار ، وسألهم أن يجمعوا ذلك له فيما بينهم ، ففعلوا ودفعوا الى
 عمرو فانطلق ومعه دليل يريه الطريق . أما أنا فلمأ رأيت الاسكندرية
 وما هي عليه من العظمة وأسباب الرفاه آثرت البقاء فيها ، فاستأذنت عمروا

في ذلك فأفكر علي الامر فقلت : « أبقي فان لم أر خيرا عدت اليك » .
فتركني ومضى وبقيت أنا . وكان في جملة من لقينا من رجال الاسكندرية
عالم كبير هو يحيى النحوي ، وكان يعرف شيئا يسيرا من اللسان العربي ،
فأمسكني عنده لأعلمه لساننا هذا ، أو لعل له غرضا آخر لم أعلمه ، فسررت
ببقائي عنده ، وأعجبت بزيئة الاسكندرية وبذخها وعمارها ، ولم
يسض علي زمن طويل في بيت هذا الرجل حتى تعلمت اللسان الرومي
وأجبت ديانة النصارى ، وفضلتها على ما كنت فيه من وثنية الجاهلية ،
فعمدت وصرت نصرانيا ، وبقيت في بيت يحيى هذا ، لأنني علقت به
لعظم ما لقيته من حسن سريره وتقواه وعلمه ، ثم حدث ما حدث بينه
وبين جماعة الروم من الاختلاف المذهبي ، وانحاز الى حزب الاقباط
اليقاقبة ، فاضطهده الروم اضطهادا شديدا وجردوه من رتبة وأملاكه ،
فازوى بنفسه كما تعلم ، وقال لي : « اسمع يا زياد ، ها أنذا قد
أصبحت مضطهدا ، وربما لا أستطيع القيام بما فيه راحتك أو لعل في
وجودك عندي ضررا عليك من جماعة الروم ، فاذا رأيت أن تذهب اليهم
فافعل » . فثارت في نفسي الحمية العربية وقلت : « والله لأبقين على
ولائيك ، فانا نحن العرب اذا آكلنا انسانا أو آخيناه كان لنا ما له
وعلينا ما عليه ، فانا باق على ولائك أقوم بخدمتك ما استطعت الى
أن يقضي الله ما يشاء » . فبقيت عنده أقوم بخدمته الى أن سمعنا بظهور
الاسلام وانتشاره ونهوض رجاله للفتح ، وما فتح الله على أيديهم من
الأمصار كالشام وغيرها ، وعظمت شوكتهم وتوطدت دولتهم ، ونحن في
الاسكندرية نقاسي العذاب ألوانا من جراء الاضطهاد الذي يسومنا اياه
الروم ، لأننا على غير مذهبهم كما تعلم ، وكنت قد علقت بيحيى هذا وعلق
بي ، وصار ياتمني على أسراره ويركن الي في كل شؤوه ، فبعث الي
ذات يوم فجئته فقال لي : « ما رأيك يا زياد ؟ » . قلت : « فيم يا

سيدي ؟ » . قال : « اني أرى من ظلم هؤلاء الروم وعسفهم ما تكاد تزهق له روحي ، وقد سمعت بما قام به عرب الحجاز هذه الأيام وما فتحوه من الأمصار حتى أخرجوا الروم من الشام والعراق وغيرهما ، وقد علمت أنهم قادمون الى مصر وأميرهم صاحبك عمرو ، ويلوح لي أنهم سيفتحونها عنوة كما فتحوها غيرها من الأمصار ، وقد أخبرني بعض الرهبان الذين فروا من وجوههم من دمشق وغيرها أنهم أقوام أشداء يصبرون على الحرب صبر الأسود ، لا يهابون الموت ولا يخافون السيف ، وأنهم مع ذلك أهل مروءة وذمام . فإذا جاءوا مصر فلا شك أنهم يفتحونها ، ولا يخفى عليك أن جماعة القبط يكرهون الروم لما بينهما من الاتلاف المذهبي المشهور ، والمقوقس رئيس القبط ، وهو حاكم البلاد ، وقد أسر الي أنه يفضل العرب على الروم اذا ضمنوا له حياته وعاهدوه على الدفاع عن القبط ، ولكن المقوقس لا يستطيع المجاهرة برأيه هذا ، ولا يرى وسيلة لابلأغه العرب ، وقد وكل الي أن أفل ذلك ، ولا أرى رجلا أثق به وأركن اليه غيرك ، ولا سيما أنك تفهم لسانهم . وتعرف قائد حملتهم نفسه ، فأنت أفضل من تنتدبه لهذه المهمة ، فهل لك أن تقوم بها ؟ وهل تظن العرب اذا عاهدوا على أمر قاموا بمعهدهم ؟ » . قلت : « نعم يا سيدي ، ان العرب أكرم الناس أخلاقا وأوفاهم عهدا ، ولك في خادمك هذا دليل واضح ، وأنا واثق أن العرب اذا عاهدوكم على أمر قاموا بمعهدهم » . فدفعت الي كتابا مكتوبا على ورق البردي باللسان القبطي ، وهو الذي رأيته بيدي أمس ، وقال لي : « خذ هذا الكتاب ، واذهب به الي معسكر العرب حتى تلتقي بهم فادفعه الي عمرو بن العاص بعد أن تشرح له الحالة شفاها » . فحملت الكتاب وخرجت من الاسكندرية أبحث عن العرب ومقامهم حتى علمت أنهم قادمون الي هنا وسينزلون هذا المكان ، فوصلت صباح أمس

الى هذا المعسكر فرأيت للروم ، وفيه بعض العرب ، فاختلطت بهم ،
وتظاهرت بأني من عرب غزة ، واني رافقتهم ، وان ثيابي هذه سلبتها
من عساكر الروم هناك ولبستها ، فعلت منهم أن عمروا سيصل قريبا
اني هذا المكان ، فقلت : « لأصبرن حتى يجيء وأقضي مهمتي » •

فلما سمع مرقس قصة زياد وثق به وركن اليه ، وعلم أنه على
دعوته ، وأنها شريكان في الامر ، ولكنه استغرب حكاية عمرو ،
راستبشر بوقوع الكرة في كفه وقال : « يلوح لي يا زياد أن الكرة
لهم تخطيء موضعها » • ثم عاد الى ما شغل باله من أمر يوقنا فقال :
« وهل علمت أمر البطريق يوقنا وسبب اسلامه ؟ » •

قال : « علمت من بعض رجال العرب هنا انه كان حاكما على مدينة
حلب من بلاد الشام ، وأنه لما رأى فوز العرب وشدة بطشهم وأنهم فتحوا
مدينته انحاز اليهم واعتنق دياتتهم • وأما رجاله فهم مطيعون له في
حربه ، ولكنهم في الغالب باقون على دياتتهم » •

فتذكر مرقس حينئذ ما قاله رسول يوقنا الذهاب الى أرمأنوسة ،
فقال في نفسه : « ان الرجل مخادع مارق ، وأظنه يريد بسيدتي
أرمأنوسة سوءا ، فهو يتظاهر بأنه قادم بأمر قسطنطين بن هرقل ، بينما
يريد حملها لنفسه • والله لأكيدهن له كيذا ! » •

ثم قال زياد : « ها أنذا قد أطلعتك على حقيقة أمري ، فما هي
حقيقة أمرك ؟ » •

قال مرقس : « أرى يا أخي أن بين حكايتي وحكايتك مشابهة ،
وما يهم أحدنا يهم الآخر » • وحكى له ما جاء من أجله ، ثم قال : « ولكنني
في شغل شاغل الآن بسيدتي أرمأنوسة ، ولا أدري كيف أنقذها ، فقد

علمنا الآن أنه انما جاء نصيرا للعرب على فتح مصر ، فما العلاقة بين
الامرين ؟ اني لأراه يريد شرا بسيدتي ، وقد أصبحت في قلق عليها ، فما
رأيك ؟ » •

ففكر زياد قليلا ثم قال : « لا تبال بهذا الخائن » فاني على يقين
من حسن ذمام العرب ، واذا أخبرنا عمرووا بحقيقة الامر وعاهدناه على
صياستها وحفظها فانه يقوم بعهدہ » وغدا ان شاء الله أدخل عليه وأطلعہ على
جليه الخبر ، واذا شئت أن تكون معي فانك ترى بعينك وتسمع بأذنيك
ما قلته لك عن شهامة العرب وكرم أخلاقهم » ولكنني أود أن أدخل عليه
لباس البدو لكي يعرفني حالما يراني » •

فتذكر مرقس ثياب البدو التي حملها من بليس فقال : « ان عندي
ثوبا بدويا حملته من بليس ، فهل تريد أن تلبسه ؟ » • ففرح زياد به
وقال : « أود كثيرا أن أدخل عليه به ، فأين هو ؟ » • قال : « قد خبأته
في مكان ما ، وسأعطيكه الليلة » •

ثم رجع الاثنان وقد سر كل منهما بالآخر ، وقضيا بقية ذلك
اليوم في المعسكر يتفرجان • ثم غادراه فرأيا عيد العرب قد خرجوا
يجمعون الحطب ولما أمسى المساء ظهرت النيران ، فرأيا الاسطة أمام
خيمة كل أمير والذبائح قد ذبحت وجلس الناس الطعام •

ولما غابت الشمس سبعا المؤذن يؤذن ، وقد قام المسلسون للوضوء
والصلاة ، وبعد تناول الطعام اجتمع الامراء الى خيمة عمرو ، وبين أيديهم
قراء القرآن يتلون الآيات ، والناس يذكرون ويكبرون ويشكرون الله
على ما آتاهم من النعم ويسألونه النصر على الاعداء • فقضيا تلك الليلة
في معسكر يوقنا ، لأنهما كانا في لباس الروم مثل عسكره ، وفي الغداة
لبس زياد لباس البدو ، فالتحف الشملة وتعمم بالعمامة ، وسار هو
ومرقس من معسكر يوقنا حتى وصلا الى معسكر عمرو ، فدخلا بين

الخيام فإذا بالعرب قد قاموا للصلاة وكلهم ركع يصلون ، وشاهدوا على كثير منهم ثيابا رومانية ودروعاً وأسلحة وأدوات يستعملها الروم في قضاء حوائجهم ، فقال زياد : « أظن يا مرقس السى آثار النصر وبقايا الفتح ، ان هؤلاء العرب لم يرتدوا في حياتهم مثل هذه الالبسة ، ولا رأوا مثل هذه الادوات التي غنموها من الروم في حروبهم بالشام » .

وكانا قد شاهدا بين أيدي هؤلاء البدو كثيرا من الآثار الروماني كالابسة والطنافس وعليها رسوم رومانية ، وفيها صور بعض القديسين والأبطال ، قد فرشها العرب على التراب يجلسون عليها أو يلتحفونها ، وبين أيديهم طسوت من الفضة ، وصحف من أبداع الصنائع ، وكلها أسلاب من مدن الشام .



سار مرقس وزیاد حتى وصلا الى فسطاط الأمير فإذا هو قائم على عمد متشامخة ، والفسطاط أبيض من الخارج ، ودخله مبطن بالحرير المزركش ، وفي أرضه البسط والطنافس . وعرفا خيمة عمرو من العلم الأسود والكتابة التي عليه ، وكانا قد شاهدا يد وردان ساعة وصول الجند ، فلما اقتربا من الفسطاط استقبلهما وردان عند الباب ، وقد عجب لاجتماع هذين الرجلين على تناقض لباسهما ، فسألهما عن غرضهما فقال زياد بلسان عربي فصيح : « نريد مقابلة الأمير ؟ » . فقال وردان : « ومن الرجلان ؟ » . قال زياد : « رسولان يريدان الدخول على الأمير » .

فدخل وردان ثم عاد ففتح لهما الباب ، فدخل زياد بعد أن خلع نعليه كعادة العرب ، وعمرو جالس في صدر الخيمة جلوس العرب في خيامهم ، لأنها لخلوها من الجدران الصلبة لا يستطيع الاستاد

اليها » فكانوا يجلسون الاربعاء ، أو يجثون قعودا ويلقون أيديهم على الركبتين أو يعقدونها عليهما فيستريحون ، ويقوم ذلك عندهم مقام الاستناد . أما عمرو فكان على ركبته سيف طويل صنع اليمن ، وأمرأؤه بين يديه وفي مثل جلوسه » وفي بعض جوانب القسطنطينية رجل جالس الأربعاء يتلى القرآن والكل يصغون اليه يرددون ما يقوله بين شفاههم . فلما دخل زياد أراد أن يبعث عمروا بتحية الجاهلية لينبهه الى حاله فقال : « أبيت اللعن أيها الأمير ! » .

فبعث عمرو ومن في مجلسه من هذه التحية ، وقد كادوا ينسونها لاستبدالهم بها بعد الاسلام تحيته : « السلام عليكم » : فأجابه عمرو على الفور : « أعوذ بالله من كفر الجاهلية ، ما بالك تحينا بتحية الجاهلية يا أخا العرب ؟ » . قال ذلك وقلر الى الرجل : فتذكر أنه يعرفه ، ولكنه نسي اسمه لأنه يعرفه ، ولكنه نسي اسمه لأنه قد فارقه منذ عشرين سنة أو تزيد ، وقد كان شابا فأصبح كهلا ، فأمن النظر فيه وزياد لا يزال واقفا ينتظر الأمر بالجلوس ، وكان القادم على الأمير عندهم لا يجلس الا بعد أن يدعوه الأمير الى ذلك ثلاث مرات . فقال عمرو : « من الرجل ؟ » . فأجاب زياد : « ان الرجل أخوك في الجاهلية ، ورفيقك الى الاسكندرية » .

فتذكره عمرو : فنهض له قائلا : « أهلا بزياد » وعانقه ، وبعد أن تصافحا أمسكه بيده وأجلسه الى جانبه وهو يقول : « مرحبا برفيق الصبا ! أهلا بالقادم ! أين كنت ؟ وما طلبتك ؟ وما الذي جئت به ؟ » . قال : « هل يأذن لي الأمير بخلوة ؟ » .

قال : « أجل » . ثم أشار الى أهل مجلسه فخرجوا وبقيا وحدهما . فقال زياد : « لي رفيق لا يزال بالباب ، فهل يأمر الأمير بإدخاله ؟ » . فأمر عمرو وردان فجاء برقس ، وفعل مرقس مثل ما فعل زياد ،

- فخلع عليه وقبل يد الأمير . فأذن له بالجلوس فجلس وقد هاله الموقف .
- فقال عمرو : « ومن الرفيق ؟ » . قال زياد : « رسول من رسل القبط ، وسأشرح لك حاله يا مولاي » .
- قال : « قل يا زياد اني والله تد أنست بلقائك بعد طول الفراق ، ولكنني آسف بلقائك على جاهليتك ، وقد من الله على خلقه بالاسلام ، وهو الدين الحق الذي سيظهر على الدين كله » .
- قال زياد : « لست جاهليا . ولكنني من أهل الكتاب ■ » .
- قال : « وأي كتاب ؟ » . قال : « النصرانية » .
- قال : « ان النصراني أهل كتاب حقا ، وقد أوصانا بهم النبي (صلمع) خيرا . قص علينا خبرك يا زياد . اني والله في لهفة لمعرفة حالك وما كان من أمرك بعد أن فارقتك بالاسكندرية . ألا يزال ذلك القسيس حيا ؟ » .
- فقال : « لا يا سيدي انه مات ، وطالما أئني على شهامتك وذكرك بالخير » .
- فقال : « وكيف قضيت هذه السنين بالاسكندرية ؟ ■ » .
- فقص عليه حكايته من أولها الى آخرها حتى وصل الى الكتاب الذي يحمله فأخرجه من جيبه ودفعه اليه فاذا هو مكتوب بالقبطية :
- فقال عمرو : « هل أدعو المترجم ليقراه لنا ؟ » .
- قال : « لا . بل أنا أترجمه » .
- قال : « وهل تعلمت لسانهم وحفظت لهجتهم ؟ » . قال : « نعم يا مولاي » .
- قال : « اقرأه » . فترجم الكتاب واذا فيه :
- « من المقوقس حاكم مصر الى الأمير عمرو بن العاص قائد جند العرب . سلام .
- « أما بعد فاننا معشر الأقباط قد علمنا مجيئكم الى بلادنا ووقع

الينا ما أوتيتهم من النصر في بلاد الشام وغيرها ، وعلينا ما قدر الله لكم من الغلبة على جباة الروم حيث حللتهم . وما ذلك الا لما أحبوا من ديناهم وما أحببتهم من آخرتكم . وقد كان نبيكم قد بعث الينا منذ بضع عشرة سنة يدعوننا الى الاسلام وأن نسلم اليه البلاد . وهذا كتابه مرسل مع حامل هذا الكتاب لتقرأوه ، فأجبناه بأن ذلك ليس في طاقتنا لأننا محكومون وأن الامر راجع الى ملكنا هرقل . أما وقد رأينا ما عززكم الله به من النصر ، وقد جئتم الى هذه البلاد تريدون فتحها . فقد بعثت اليكم بهذا الكتاب لأعلمكم اننا نحن الاقباط لسنا أعداءكم ولا نريد محاربتكم . وانما أعداؤكم هم الروم وجندهم . فاذا قدر لكم النصر ، والنصر من عند الله يؤتاه من يشاء ، فاذكروا أننا في ذمتكم وأوصوا رجالكم الا يؤذونا ، والا يسيئوا الى رهبانا ، أو يهدموا أديرتنا ، فانها بيوت الله ، وأهلها لا يقومون بأي حرب . ولو كان الامر عائدا الينا ما رميناكم بنبل ، ولا جردنا عليكم سيفا . وجماعة القبط باقون على قولي هذا الى أن يقضي الله بما يشاء .

« كتبه المقوقس حنا بن قرقت حاكم مصر »

وكان زياد يقرأ وعمرو معنغ اليه ينظر الى الارض ، ويسشط لحيته بأصابه . « لسا أتم قراءة الكتاب رفع عمرو رأسه وقال : « وأين كتاب بينا صلى الله عليه وسلم ؟ » . فسد زياد يده فأخرجه ، وكان محفوظا في صندوق صغير من العاج . ففتحه وأخرج الكتاب منه . واذا هو من حلد ، فتناوله عمرو ونشره وتأمل موضع الخاتم فاذا هو مكتوب فيه « محمد رسول الله » على ثلاثة أسطر .

فعرف فيه خاتم النبي ، ونظر الى الخط فاذا هو خط الامام علي بن أبي طالب ، وهو أول من تولى الكتابة في الاسلام ، وكان كاتب

النبي ﷺ وتولى الكتابة غيره أيضا ، وكان عمرو بن العاص في جملتهم •
ولما تحقق أنه كتاب النبي ، استأنس به وقبله بكل احترام ، وجعله
على رأسه ثم قرأه فاذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم • من محمد عبد الله ورسوله الى
المقوقس عظيم القبط • سلام على من أتبع الهدى • أما بعد فاني أدعوك
بدعاية الاسلام • اسلم تسلم يؤتلك الله أجرًا مرتين • فان توليت
فعليك اثم كل القبط • يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا
وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضا
أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » • وبلي
ذلك خاتم كما يلي :

الله

رسول

محمد

فقال عمرو : « صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم • أما ما
يلتمسه المقوقس من رعاية طائفته وحماية الدير والرهبان فذلك مما لا
نحتاج فيه الى وصاية لأننا أوصينا به من قبل ، فقد حدثني عمر أمير
المؤمنين انه سمع رسول الله (صلعم) يقول : (ان الله سيفتح عليكم
بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فان لكم فيها صبرا وذمة) • وقد
أوصانا الله خيرا بالرهبان والقسيسين اذ قال في كتابه العزيز : (ولتجدن
أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا أنا نصارى ، ذلك بأن منهم
قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون) • ومن وصايا أبي بكر رضي الله
عنه قوله يوصي المسلمين وقد ساروا للجهاد : (وستمرون على قوم
في الصوامع رهبان فدعوه ولا تهدموا صوامعهم) • فليطمئن القبط

انهم في ذمتنا لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، واننا جئنا لمحاربة الروم . فاذا منعونا حصونهم وأبوا الاسلام أو الجزية وضعنا فيهم السيف حتى يقضي الله ما يشاء وهو خير الحاكمين . فان الرجل منا ينتظر شهادته . فاذا نالها أقام في النعيم وهو خير له وأبقى . وسأكتب الى المقوقس كتابا في ذلك » .

* * *

فقال زياد : « اني لأعجب لحال الانسان وتقلبات الزمان يا عمرو ! ألا تذكر يوم كنا في الجاهلية لا نعرف الدين ؟ اني أذكر أياما كنا نعظم فيها أصنام الكعبة ونستخير هبل الأكبر ونذبح الذبائح وعبوتنا مغمضة من جهلنا » . فتهجد عمرو وقال : « ان الجاهلية عمى . واني لأحزن على أيام مرت بي قبل الاسلام ، وأشعر بعظيم ما ربحت بالهداية التي إهتديتها ، وأود لكل امريء مثل ما كسبت » . فقال زياد : « وكيف كان اسلامك ؟ » . قال : « أما اسلامي فجاء متأخرا . وقد كنت من أعداء النبي صلى الله عليه وسلم ، فانه لما قام يدعو الناس الى التوحيد اضطهدته قريش ، وشددوا النكير عليه حتى اضطر أصحابه أن يهاجروا . والي النجاشي ملك الحبشة فأمنهم ، ثم أرسلتني قريش ورفيقا لي بهدية الى النجاشي ليسلم لنا المهاجرين ، فأبى وكان عوننا لهم علينا . فعظم عندي أمر صاحب الدعوة ، ووقعت في نفسي رهبة منه . لكنني بقيت على دين الجاهلية الى السنة الثامنة للهجرة ، وكنت في أثناء ذلك أفكر في أمره صلى الله عليه وسلم . فوجدت أعماله ناطقة بصدق دعوته . فاجتسمت يوما بخالد بن الوليد . وعثمان بن طلحة العبودي ، وهما لم يسلموا بعد ، فقلت لخالد : (أين يا أبا سلسان ؟) . قال : (والله لقد استقام الميسم ! ان الرجل لنبي . اذهب والله فحتى متى ؟) . فقلت :

(ما جئت الا للاسلام) • فقدمنا على النبي (صلعم) فتقدم خالد فأسلم ، ثم تقدمت أنا ، وكانت أول مرة لقيته فيها وجها لوجه فملكنتي الهيبة لمنظره ولما جمع الله فيه من المحاسن •
فاشتاق زياد لمعرفة أوصاف النبي فقال : « وما الذي أربك منه ؟ وما هي أوصافه ؟ » •

فقال عمرو : « والله يا زياد اني لا أنسى ساعة لقيته فيها ، فان صورته لا تزال مرسومة على لوح صدري منذ رأيته يوم جئت ألتبس الاسلام • وأما صفاته فهو ليس بالطويل ولا بالقصير ، ضخم الرأس واللحية ، شثن الكفين والقدمين ، مشرب بالحمرة ، وكان لما لقيته واقفا ، فمشى فاذا هو يتكفأ كأنما ينحط من صلب ، لم أر قبله ولا بعده مثله ، وكان أدعج العينين ، سبط الشعر ، سهل الخدين ، اذا التفت التفت جميعا ، ولعله كان اذ ذاك قائما من الصلاة ، وقد تحدر العرق على وجهه كاللؤلؤ الرطب • وفوق كل ذلك فان الهيبة كانت تجلله فلم أستطع النظر اليه طويلا • فوقفت بين يديه فقال لي : (ما جاء بك يا عمرو ؟) • قلت : (جئت أطلب الهداية يا رسول الله) • قال : (أتريد الاسلام اذن قل : أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله) • ثم دخل عثمان بن طلحة فقال مثل قولي ، وصلينا جميعا ، وقد شعرت والله يا زياد بنشأوة انقشعت عن عيني ساعة الشهادة » •

وكان عمرو يكلم زيادا وعواطفه تتكلم معه وقلبه يتהלل فرحا ، ثم قال : « وأخذت من ذلك الحين أجاهد في سبيل الله ، وآخر مرة فعلته فتح بيت المقدس ، وأتيت منها الى مصر كما علمت ، وترانا لا تقدم بلدا الا فتحناه غوة أو صلحا ، وكل ذلك ببركة رسول الله (صلعم) ولأن يقاتل أحدنا العدو رغبة في الآخرة ويستشهد في سبيل ذلك ، خير

له من الذل ، بل هو خير من الحياة الدنيا ، لأن الدنيا دار فناء والآخرة دار قرار » . وكان عمرو يتحدث والعمق يتصبب منه لتهدج عواطفه وشدة رغبته في الجهاد .

فقال زياد : « لا عجب يا عمرو اذا نصرتم في حروبكم وقد عقدتم الخناصر وأخلصتم النية في الجهاد ، وأما جماعة الروم فانما همهم التفاضل فيما بينهم ، وفي قيام بعضهم على بعض ما يحول بينهم وبين النصر ، وكأني بدولتهم قد دالت وشمسها قد مالت » .

وكان مرقس في أثناء ذلك صامتا لا يفهم ما دار بينهما ، ولكنه كان معجبا بلامح عمرو ، وما يلوح في وجهه من البسالة ، وما ينبعث من عينيه من أشعة الذكاء ، وكان يود الدخول فيما جاء من أجله ، لأنه خاف أن يصل رسول يوقنا الى أرمافوسة فتتطلي الحيلة عليها فيصيبها شر ، على أنه لم يكن يجسر على الدخول في الحديث من تلقاء نفسه .

ثم التفت عمرو الى زياد قائلا : « ومن هو صاحبك يا زياد ؟ » . قال : « هو من قبض مصر أيها الأمير ، من جند المقوقس ، وقد جاء ليقص عليك حكايته ، ويسألك أمرا لا شأن للحرب فيه . ولكننا قد أطلنا الحديث الآن وأنت قادم من سفر تحتاج الى الراحة ، فلا تثقل عليك أكثر من ذلك » .

قال : « ان التعب لا يقعدنا عن حاجات الناس ، فان نبينا صلى الله عليه وسلم انما أرسل رحمة للعالمين » .

فقال زياد وقد شعر أنه أطال الحديث : « بارك الله فيك أيها الأمير ، لا زلت ملاذا للطلالين . أما أمر صاحبنا فليس مما يسرع اليه ، واذا كان مولاي أن نعود في الغد فعلنا ، وأما الآن فاننا نستأذنه في الانصراف » . قال ذلك وهم بالوقوف ، فوقف مرقس وهو لم يفهم ما قيل ، فوقف عمرو

وقد أجاب زياد الى طلبه ونادى وردان فحضر فقال : « هذان ضيفان علينا ، وقد شعرت باستيحاش هذا القبطي لحديثنا لأنه لا يفهمه ، فعليك بمحادثته بلسانه الليلة حتى لا يقول أنه رأى في ضيافتنا وحشة » .

فقال وردان : « لييك » ، واصطحب الرجلين وخرج بهما ولما أفهم مرقس ما دار بشأنه وهم خارجون أسف لتأجيل الأمر ، ولكنه لم ير مندوحة عن الاذعان .

وسار بهما وردان الى خيمته ، وأنزلهما على الرطب والسعة ، وقضوا بعض ذاك الليل في الحديث عن الاسلام وأخبار الصحابة والفتوحات ، وما عرف به الخليفة عمر بن الخطاب من المناقب الحسان ، وما يروى عن النبي من الأحاديث ، فسحر زياد ومارقس بما سمعاه وقالا معا : « والله أن من كانت هذه مناقبهم وخلالهم لا غرو اذا دوخوا البلاد وفتحوا الأمصار » .

وقد أعجبا بنوع خاص بما سمعاه عن عمر بن الخطاب حين جاءه عرفة بن مازن رسولا بكتاب من أبي عبيدة بما فتح الله على المسلمين ، فوصل عرفة الى المدينة وعليه قباء فاخر من الديباج ، وعلى رأسه مطرف خز مذهب ، وهما من أسلاب الروم ، فترجل عن ناقته ، وسلم الكتاب الى عمر وهو في المسجد يصلي ، فنظر الى عرفة شزرا وقال : « من الرجل ؟ » قال : « عرفة بن مازن » فقال : « يا بن مازن أما كان لك في رسول الله أسوة حسنة ؟ ان هذه ثياب الجبارين ومن جعل الله لهم الدنيا جنة ، وهذا الديباج حرام على الرجال منا ، لأنه لا يصلح الا للنساء ، وهذا الذي عليك تصدق به على فقراء المدينة . أما والله لقد دخلت يوما على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم على سرير مزمل بشريط ، وليس بين جلده وبين الشريط شيء ، وقد أثر الشريط في جلده » فلما رأيت ذلك بكيت فقال : « يا عمر ما الذي أبكاك ؟ » . فقلت : « يا رسول الله ان كسرى وقصر يعبثنا في ملك الدنيا وأنت رسول الله بهذه المثابة » .

فقال : « يا عمر ما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة » . فناوله
 عرجة الكتاب وسار من ساعته وخلع الديباج وأهداه الى خالته .
 وحكى لهما وردان حكايات أخرى كثيرة مثل هذه فازداد اعجابهما .
 وكان يخاطبهما بالقبلية . وود مرقس لو كان المقوقس معهم ليرى أمر
 العرب وحالهم . ويزداد كرها للروم ورغبة في التخلص منهم . ثم رأى أن
 يستطلع من وردان أمر يوقنا وعلاقته بقسطنطين أو المسلمين . فقال :
 « وكيف ترون يوقنا ؟ » . فالتفت وردان الى مرقس وهز رأسه قائلاً : « انه
 يدعي الاسلام والقيام بنصرته . وقد وثق به أميرنا . ولكنني والله لا أنلن
 به خيراً : ولا أعتقد صدق ما يدعي ، وقد جاء أمام جيشنا ليحاربكم .
 ونحن لا نبالي اذا كان معنا أو علينا فان سيوفنا تنصرنا جيشاً حللنا » .
 قال مرقس : « وهل قسطنطين بن هرقل يحبه ؟ » .
 قال وردان : « وكيف يحبه ؟ انه لو استطاع قتله ما تأخر لحظة عن
 اذاقته الموت الزؤام لأنه يحارب قومه » . ففهم مرقس أنه جاء بدسيسة
 للإيقاع بسيدته ، فصبر ليرى ماذا يكون من أمره .
 وباتوا ليلتهم . وأفاقوا في الصباح على أصوات المؤذن والمسلمون
 قيام للصلاة ، واذا بيوقنا قد جاء الى خيمة عمرو ، وخلا به برهة ووردان
 معهما ، ثم خرج وردان فنادى الامراء ليحضروا ، فدخلوا خيمة عمرو .
 ولبثوا يتفاوضون ، وجاء في أثناء ذلك وردان وأخبر زيادا ومرقس ان
 الأمير قد عزم على المسير الى القرما في ذلك اليوم .
 فعظم الامر على مرقس لأنه كان يود مخاطبة عمرو في أمر يوقنا
 حتى اذا كان قد جاء بدسيسة فعليه أن يحبط حيلته ويدبر وسيلة
 لانتقاذ سيدته أرمانيوسة بواسطة عمرو ، فبهت برهة ثم قال : « وما الذي
 حصله على سرعة المسير الى القرما ، وقد كان في ظننا أنه يستريح بضعة
 أيام قبل مهاجستنا ؟ » .

قال : « ألم تريوقنا قد اختلى به في هذا الصباح ؟ فالظاهر أنه علم أن المقوقس مرسل نجدة اليها فأرادوا معالجتها قبل وصول المدد » .
فتحير مرقس وظهر الارتباك على وجهه وأدرك زياد فيه ذلك فقال له : « لا ترتبك » لعلنا نخاطبه بشأن ما تريد غدا بعد وصولنا الى ظاهر المدينة ، فان الجند يصل الى الفرما عند الظهر » ولا بد قبل المهاجمة من الاستعداد » .

فصبر مرقس على مضض ، ثم تركهما وردان وذهب الى خيمة عمرو للتأهب ، فخلا زياد بمرقس وقال له : « مالي أراك مضطربا ؟ »
قال : « اني والله خائف على سيدتي بعد ما علمت أن يوقنا هذا أراد بها الغدر ، وأنه ليس رسول قسطنطين اليها ، فلمله يريد اختطافها لنفسه ، وقد أرسل رسله لهذه الغاية » .

وفيما هما في ذلك شاهدا هجانا قادما من بليس ، فحقق مرقس النظر فيه فاذا هو بروفيس رسول يوقنا فقال : « هذا يا زياد رسول يوقنا قد عاد من بليس ، هلم بنا نسأله عن نتيجة مخابرته » . فأسرعا اليه خارج المعسكر حتى لقيه فناداه مرقس ، وقد أظهر ارتياحه لرؤيته ، وسأله عن جواب أرمانونسة فتبسم قائلا : « انها في خير وقد سرت سرورا عظيما بما أخبرتها به ، وأخذت في التأهب واعداد عدتها للمسير ، وأمرتني أن أستعجلك الرجوع اليها ، وقد أهدتني هدية نفيسة مقابل بشارتي » .

قال ذلك وساق هجينه الى خيمة يوقنا . أما مرقس فقال لزياد : « ها أن الحيلة قد انطلت على سيدتي ، ولا أدري كيف أفعل ؟ وقد طلبت الاسراع في ذهابي اليها ، ولكنني لا أرى أن أذهب قبل أن آخذ موثقا من عمرو ليدفعن عنها كل سوء » .
قال : « أما أنا فأرى أن تنتظر الى ظهر اليوم بعد وصول المعسكر

الى ظاهر الفرما ، وأنا أبذل الجهد في مقابلة عمرو وعمل المستطاع ،
فلنلق الآن على هذه الاكسة لشهد ظلام الجند العربي وتأهبه للحرب ،
وسترى أنهم ستركون خيامهم وأتقالهم هنا : ويذهبون بأنفسهم وعدتهم
فقط » .

فصعدا الى ربوة ووقفا ينظران الى الجند وانتظامه ، فاذا بالاعلام
قد تفرقت كل علم الى جهة : فحمل وردان علم عمرو بن العاص ومشى
في المقدمة : وحمل أميران آخران عليهما ، ووقف أحدهما على الميمنة
والآخر على الميسرة ، فاجتمعت الجنود الى هذه الاعلام كل الى أميره .
ثم سمعا أصوات المتادين يقولون : « النفير النفير ! يا خيل الله اركبي » .
فقال مرقس : « وما هذه المناداة ؟ » . قال : « أنهم يدعون الجند »
وهذا شعار لهم يقولونه اذا أرادوا الركوب للحرب » . فقال مرقس :
« وكيف تعرف هؤلاء الاقوام ، وهل هم من قبيلة واحدة ، فاني أرى
تشابها في ملابسهم » .

قال : « ان الفرق في لباسهم لا يظهر لك لأنه طفيف ، ولكنهم ليسوا
قبيلة واحدة ، فاظر الى الذين يحصلون النشاب ، وهم خفاف سراع ،
انهم من رجال اليمن ، وهم مشهورون برمي النشاب »
فقال مرقس : « أرى تنظيم جندهم ينسب نظام جندنا ، فهذه المقدمة
والجناحان والقلب والساقة ، ولكنني أعجب لاختلاف ألوان راياتهم خلافا
لنا ، فان راياتنا متشابهة » . قال : « علمت أمس من بعض العرب أن الراية
الصفراء هي في الغالب راية المهاجرين الذين هاجروا الى المدينة مع النبي ،
وهم أول القائمين بنصرة الاسلام ، وترى أنهم قد وقفوا في قلب الجند » .
فقال مرقس : « ولكنني أرى راية عمرو سوداء » . قال : « انه ليس من
المهاجرين ، فقد أخبرني أمس انه أسلم بعد الهجرة » .
ثم رأيا الخيالة قد تفرقوا على الميمنة والميسرة وفي المقدمة ، وهم على

خيل من الخيول العربية المشهورة . فقال مرقس : « أرى خيولهم ضئيلة ضامرة ، وقد كنت أوسع بجودة خيل العرب » . فضحك زياد وقال : « ان خيل العرب أجود ، وهي موصوفة بالركة والسرعة . ولا عبرة بكثرة اللحم » .

ثم نظر مرقس الى مؤخر الحملة فاذا بالهواجج محمولة على الجمال فقال : « تقول يا أخي أنهم سيرون برجالهم للحرب وتبقى الخيام هنا ، ولكن ها أنذا أرى الهواجج محمولة وفيها النساء والأولاد » .

قال : « ان العرب اذا ساروا الى الحرب حملوا نساءهم معهم ، فانهم يحرضن الرجال على الحرب ويحثنهم فيستحيون منهم اذا أحسوا بضعف أو مالوا الى الفرار » .

وفيما هما ينظران الى تنظيم الجند اذا بعمرود قد جاء على فرسه ، ووردان راكب الى جانبه يحمل العلم ، وعمرود يخترق الجند ، فينتقل من فرقة الى أخرى ، فقال زياد : « تعال نتقرب من الجند لنسمع ماذا يقول عمرو في طوافه » .

فنزلا حتى دنوا من المعسكر فاذا بعمرود يطوف في الرجال يرتب صفوفهم ويحرضهم على الثبات ، فيذكرهم بما فالوه من النصر في الشام وبيت المقدس ويقول : « يا أهل الاسلام والايمان ، يا حملة القرآن ، يا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، أتنا ذاهبون لمقابلة الروم ، فاصبروا صبر الرجال ، وثبتوا أقدامكم ، ولا تزايلوا صفوفكم ، ولا تنقضوا نيتكم ، ولا تخطوا خطوة الا وأنتم تذكرون الله ، ولا تبدأوهم بالقتال حتى يبدأوكم ، واشرعوا الرماح ، واستتروا بالدرق ، وألزموا الصمت الا من ذكر الله ، ولا تحدثوا حدثا حتى آمركم » . ثم تحول الى مكان آخر من الجند وقال : « معاشر العرب أنكم في بلاد العدو بعيدون عن الاوطان ، ولا ينجيكم الا الطمن والثبات في الحرب ، فاذا صبرتم

وجاهدتم ملككم الرقاب، وان وليتم فليس وراءكم الا المفاوز والبراري ،
وعين الله ترقبكم » •

ثم سار الى مكان الهوداج وخاطب النساء قائلاً : « ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال : (ان النساء ناقصات عقل ودين) • فكن ممن
حافظن على دينهن ، وقدمن في ذلك النية ، وحرضن أزواجهن على
القتال » ومن رجع منهم منهزماً فأحصن وجهه بالحجارة ، وأضربن
جواده بالعمد ، وأظهرن أولادكن لأزواجهن ، وقلن لهن : (قبح الله وجه
رجل يفر عن حليلته ، فلستم بعولتنا اذا لم تمنعنوا) حتى يرجعوا » •
فلما سمعت النساء ذلك وقعن متمرات مرتجزات يقنن الشعر •

كل ذلك والناس يوحذون ويهللون ويكبرون ، ثم انتظمت الحملة
ومشى الجند ، فجعل مرقس ينظر الى خيام يوقنا فاذا هي في مكانها ،
ولم يخرج يوقنا مع الجند ، ولم يخرج أحد من رجاله •

فخاف أن يكون قد اعتزم الذهاب الى بليس وتنفيذ مكيدته على
حين غفلة ، فجعل يفكر في أمره ، ويتردد بين أن يسير الى بليس فيطلع
سيدته على ما علمه من أمر يوقنا ، أو أن ينتظر حتى يرى عمرو • وفيما
هو في تفكيره التفت زياد اليه وقال : « مالي أراك حائراً في أمرك ؟ » •
قال : « اني خائف من يوقنا ومكيدته ، وأخشى أن يسير الى بليس وينفذ
مكيدته على غرة » • فقال : « اذا كنت ترى ذهابك الآن فافعل ، وعلي
أنا أن أرى عمرو وأخذ العهد منه ، وأبعث به اليك أما كتابة أو شفاهاً » •

فارتاحت نفس مرقس الى هذا الرأي وقال : « بورك فيك يا زياد ،
اني والله لا أنسى لك هذا الصنيع ، وأرى أن أبادر بالذهاب جالاً ،
ولكنني أتيت ماشياً ، فاذا عدت كذلك أخاف الابطاء ، وربما سبقني يوقنا
اليها على خيله ، فلا فائدة من ذهابي » • فقال زياد : « أما الخيل فلا
يجود العرب بها ، فان العربي يضحي بنفسه لأجل فرسه ، ولكننا ربما

استطعنا الحصول على جبل والجمال أسرع من الفرس أحيانا ، فهل تعودت ركوب الجبال ؟ » قال : « لا والله ، لم أركبها عزي ، ولكني أركبها الآن ركوب المضطر . والاتكال على الله » . ففكر زياد كيف يحصل على جبل ، والجند قد ساروا بخيلهم وجبالهم ، فنظر الى الركب الباقي فاذا فيهم بعض الجمال عليها الزاد والخيام ، فقال لمرقس : « البث هنا ريثما أعود اليك بالجبل » . ثم تركه وذهب الى الخيام يجول بينها لعله يرى أحدا يعرفه فلم يثر على أحد : فأوغل في المضارب ، فلاح له عن بعد جبل سائب في البرية ، فعلم أنه يطلب المرعى « فحدثته نفسه أن يقبض عليه ويأتي به الى مرقس خلصة ، ولكنه خاف سوء العاقبة ، فوقف برهة يفكر في ذلك فلم يجرؤ على السرقة ، ثم نظر الى الجبل فاذا به يوغل في الصحراء ولا يطلبه أحد ، فعلم أنه منسي ، فعول على اللحاق به ، فاذا اعترضه أحد ظاهر بامساكه وارجاعه الى المعسكر ، فسار في أثره حتى نواري عن الناس ، فأمسكه وعقله ، وعاد الى مرقس وأخبره ان الجبل معقول هناك ، وسارا وهما لا يراهما أحد حتى وصلا الى مكان الجبل ، فحلاه وقال زياد لمرقس : « اصعد الى ظهره وتثبت ، فانك اذا لم تتشبث جيدا سقطت » . وساعده على الركوب ، وأوصاه أن يمسك بالرجل جيدا ، ولم يكذ زياد يرفع رجله عن ساعد الجبل حتى وقف الجبل نفثة ، ومرقس لا ينتظر مثل هذا النهوض السريع فهوى على ظهره ووقع على الارض فشج رأسه وسال دمه .

فصاح : « آه . قد قتلت » . أما الجبل ففر راجعا يطلب المعسكر ، فأمسك زياد مرقس وأسندته الى صدره ، وقد خارت قواه وغاب صوابه ، فحار زياد وأسقط في يده ، وخاف على صديقه الموت ، وجعل يسح له دمه .

وبينما هو على تلك الحال شاهد فارسا عن بعد « علم من لباسه أنه

عربي فناداه . فتحول الفارس نحوه مسرعا ، وأخرج قطعة من قماش شد بها رأس مرقس ، ورفعته عن الأرض ، وقال لزياد : أسنده ، ثم ركب فرسه وحمل مرقس أمامه وقد تدلى رأسه على صدره ، وساق الجواد قاصدا المعسكر ، وزياد يتبعه وقلبه يخفق حزنا على ما أصاب صديقه .

- ٨ -

يوقنا وأرمانوسة

فلتركهم ذاهبين لمداواة مرقس ، ولنرجع الى أرمانوسة وما كان من أمرها ، فانها لبثت في بلبس بعد مسير مرقس تنتظر عودته بصبر نافذ لتعلم حقيقة خبر قسطنطين ، فمضى يوم وثان وهي في لهفة وتحرق ، لا يهنأ لها طعام ولا شراب . فلما كان مساء اليوم الثاني بعثت الى بربرة فجاءتها مهرولة ، فقالت لها : « ألم يكن من الحكمة يا بربرة أن أبعث بك من قبل الى أركاديوس لابلأغه ما نحن فيه ، فلعله اذا علم أننا متفقان قلبا وقالبا أسرع الى انقاذي من قسطنطين ؟ اني أخاف اذا أبطأت عليه بالجواب أن يظن بي تغييرا فيتنغير ، أو يظن بي سوءا فيغضب ، فما رأيك ؟ » .

فقالت بربرة : « لا أظنه يستبطننا اذا تأخر جوابنا أسبوعا لعلسه بصعوبة المراسلات ، وأظن أن انتظارنا عودة مرقس أولى حتى نعلم اليقين ، لأننا اذا تحققنا قتل قسطنطين أغنانا ذلك عن مشقات جسيمة . ويكون فيه القول الفصل ، واذا ثبت أنه لا يزال حيا باقيا على عزمه عندنا الى وسيلة للنجاة ، وعلى كلتا الحالين فالرأي لسيدتي : مريني أفعل ما ترين » .

فصمت أرمانونسة مدة ١١ وكانت متكئة على سريرها فتفتست الصعداء وقالت : « لا أراني قادرة على الفصل في الامر ، فأشيرى علي بما ترين » .

فقالت بربارة : « ننتظر الى الغد ، فاذا لم يأتنا مرقس تدبرنا أمرنا ١١ والله يلهنا ما فيه خيرنا » . فباتت تلك الليلة وقد صلت بربارة صلاة حارة ، ونذرت نذرا لكنيسة المعلقة رجاء انقاذ سيدها . أما أرمانونسة فكانت لا تفكر الا في أركاديوس وقسطنطين ، وتقابل بينهما ، فيخيل اليها أنهما ملاك وشيطان يمران أمام عينيها . وفي الصباح جاء حاكم بليس يطلب مقابلة أرمانونسة في غرفتها ، فأذنت له وقد استغربت مجيئه ، وهو قلما طلب مقابلتها .

فلما دخل حياها باحترام فردت التحية ، وهي لفرط ما قاسته من الوجد والهيام قد هزل جسمها وامتقع لونها ، وقرت الى الحاكم فاذا هو ممتقع اللون أيضا فازداد قلقها فقالت : « ما وراءك أيها الحاكم ؟ » .

قال : « قد أتتنا الجواسيس نبأ دخول العرب حدود مصر ، وإن فرقة منهم وصلت الى القرما ، فهل أرسل الى سيدي المقوقس بذلك ؟ فانه أوصاني عندما كان هنا في زيارته الاخيرة أن أستشيرك في مثل هذه الامور لما يمهد فيك من الحكمة والدراية » .

فلما سمعت أرمانونسة قوله خفق قلبها ، ولم تعلم بماذا تجيبه . وبعد التأمل برهة قالت : « لا بد من ابلاغه الخبر حالا واستجاده ، فان العرب لا يلبثون أن يصلوا الينا ، ولا أظن حامية بليس كافية لدفعهم » . فقال : « اذا أمرت مولاتي أهضت من يطلب المدد » . فقالت : « لا بد من ذلك فافعل » . فخرج مهرولا .

ولما خلت بربارة بسيدها قالت لها : « ربما ذعرت يا سيدتي لهذا

الخبر ، ولكنني أحسبه بابا للفرج » . قالت : « وكيف ذلك يا بربرة ؟ » .
 قالت : « لأن سيدي المتوقس في الحصن الآن . وإذا جاءه الخبر أبلغه
 الإيعرج فيعلم به سيدي أركاديوس . فإذا كان محبا لأرمانوسة حقيقة
 جاء بنفسه مددا لحامية بليس وهذا ما تتناه » .

قالت أرمانوسة : « صدقت يا بربرة . فافعلي ما تريدن لأنني لا أعي
 نيئا : وسأنتظر عودة مرقس لأرى ما حدث لذلك الرجل (تريد
 فسططين) » . ولحظت بربرة عظم ارتباك سيدتها وقلقها فقالت لها :
 « هلم بنا يا مولاتي نزل الى الحديقة فتنزهين طرفك في الرياحين والازهار .
 ولترك المقادير تجري في أعنتها . والله يدبر الامر كيف يشاء » .

فقالت أرمانوسة : « اني أفضل الانزواء على التنزه : لأن قلبي
 لا يسر لشيء . ولا يرتاح لي بال قبل الوقوف على حقيقة الخبر » .
 فقالت : « دعي التدبير لله » .

قالت ذلك وأمسكتها بيدها وأنهضتها : وجاءتها برداء أرجواني ثمين
 أنبستها اياه . وزينتها بحليها وجعلت على رأسها شبكة ثينة من اللؤلؤ :
 وضفرت شعرها . ومشت أمامها الى الباب ، فخرجت أرمانوسة في أثرها .
 ولما علت نساء القصر بخروج أرمانوسة أطلعن من النوافذ ليشاهدن حسن
 زيها : فقد كن معجبات بجمالها وهندامها .

فسارت في الحديقة تخطر بين الاشجار وهي لا ترتاح الى شيء لتعظم
 هواجسها ، فجعلت بربرة تسليها بالحديث وهي لا تنطق ببنت شفة .
 وكانت الحديقة مشرفة على سهل خارج البلدة : فلاح من
 بربرة الثمالة فاذا بفارس قادم عن بعد : وعليه لباس مرقس فظنته هو ،
 فالتفت الى سيدتها بلهفة وقالت : « هذا هو مرقس يا سيدتي ،
 فلعله جاءنا بخبر يسر » . فالتفت أرمانوسة الى القادم ثم قالت : « ولكنني
 أراه راكبا جملا من جمال العرب ، فهل ذهب راكبا » . فنظرت بربرة

الى الرجل وهو يقترب من البلدة ثم قالت : « لا ليس للجمال عندنا وجود ، ولكن يظهر أنه مرقس ، ولا أعلم من أين أتى بالجمال ؟ » .

وما كادتا تتمان الحديث حتى وصل الهجان الى سور المدينة ، فحط رحله الى جذع شجرة ، فخرج بعض حامية بليس لاستقباله وسؤاله عن مراده . وجاء أحدهم يقول : « ان القادم رسول من قسطنطين بن هرقل الى المقوقس » . ثم تقدم الى أرمانوسة يسألها هل تريد مقابلته ؟ . فلما سمعت أرمانوسة ذكر قسطنطين أجفلت وانقبضت نفسها ، وقالت : « لا . لا أريد مقابلته » . فسارت بربرة الى باب الحديقة . وأشارت الى الحراس أن يأذنوا له بالدخول ، فدخل فاذا هو جندي من جنود الروم بلباس جند مصر ، وهو لباس مرفس بعينه فقلقت بربرة على مرقس وقالت للرجل : « من أنت ؟ » .

قال : « رسول من مولاي يوقنا ، صاحب جند حلب ، أرسلني بمهمة الى المقوقس من الامير قسطنطين » .

قالت : « وأين صاحب هذه الثياب ؟ لعلك قد لقيت رسولنا ؟ » .

قال : « نعم يا سيدتي ، وهو في خير » وقد تركته بالمسكر معترفا الذهاب الى الفرما بمهمة من السيدة أرمانوسة ، وأوصاني أن أظنكم عليه . قالت : « وأين كتاب الامير قسطنطين ؟ » . فمد يده الى جعبة معلقة بكتفه وأخرج حقا من الفضة ، وقدمه الى بربرة فتناولته ، وقالت للرسول : « امكث هنا ريثما أعود اليك بالجواب » .

ثم تركته ، ودخلت بسيدتها الى غرفتها ، وهي لعظم كدرها لا تلوي على شيء . فلما دخلتا الغرفة فتحت بربرة الحق فقاحت منه رائحة العطر ، وأخرجت الكتاب فاذا هو من ورق ناعم حسن الصنعة ، فناولته أرمانوسة لتقرأه لأنها لم تكن تعرف اللاتينية . فأخذت أرمانوسة الكتاب ويدها ترتجفان ، وظهرت الى مكان الامضاء ، فرأت امضاء

قسطنطين باسمه ، فاختلج قلبها واغرورقت عيناها بالدموع ، وصاحت :
« تبأله ألا يزال حيا ؟ » . فقالت لها بربارة : « اقرأه يا سيدتي لنفهم
ما فيه ، فلعل فيه خيرا : ولو كنت أحسن القراءة لما كلفتك قراءته » .
فأخذت أرمانونسة تقرأه فإذا فيه ما ترجمته :

« من قسطنطين بن هرقل ملك الروم الى المحترم المقوقس والي مصر
بسم الآب والابن والروح القدس »

« أما بعد : فاني قد عزمت على الشخصوس الى القسطنطينية بعون
الله ، فبعثت محبنا البطريق يوقنا حاكم حلب اليكم لكي تعمدوا عليه في
ارسال خطيبتنا أرمانونسة ليأتي بها إلينا : ونحن ننتظر وصوله عند سواحل
دمياط ، وقد عهدنا اليه بهذه المهمة لاعتقادنا فيه الاخلاص ، فلا ترددوا
في تسليمه أرمانونسة والسلام » .

فلما قرأته أرمانونسة خارت قواها : وألقت بنفسها على السرير :
وأجهشت بالبكاء وهي تقول : « لا . لا . لا أذهب معه : ولا أخرج من هذه
الغرفة قبل أن تخرج روحي من جسدي » .

فجعلت بربارة تخفف عنها وتقول لها : « لا تجزعي يا سيدتي . فلست
بذاهبة باذن الله الا مع سيدي أركاديوس ، ولكن علينا أن نستعين في الامر
بالحيلة ، فبماذا نجيبه الآن ؟ » .

مقالت أرمانونسة . وقد أظلمت الدنيا في عينيها : « لا تسأليني أمرا فاني
لا أفهم ما تقولين ولا أعلم بساذا أجيب » ولكنني أقول لك اني لا أريد
الخروج من هذا المكان أبدا . واقعلي ما يبدو لك » .

فتركها في الغرفة وخرجت . وبعثت الى حاكم المدينة فهرول مسرعا ،
لأنه كان يود أن يخدم أرمانونسة ارضاء لوالدها ، لعلمه بما لها من المنزلة
عنده ، فلاقته بربارة وانفردت به . وأطلعتة على كتاب قسطنطين وقالت :
« ان هذا الكتاب باسم المقوقس ، ونحن لا نستطيع اجراء شيء الا بأمره ،

فابعث أحد رجالك بهذا الكتاب اليه حتى يأتينا بالجواب » .

قال : « سمعا وطاعة » . وهم بالخروج فقالت : « قف قليلا » .

فوقفت فقالت : « هات الكتاب » . فسلمه اليها ، فقالت : « ابعث الي رجلا تثق به لأسلمه اليه وأوصيه بشيء آخر » .

فخرج وعاد بشاب كان يثق به كل الوثوق وقال : « هذا هو الرسول فأوصيه بما نشأئين » . فنادت الشاب وقالت له : « امكث هنا قليلا حتى أعود اليك » . ثم خرجت الى الحديقة وبعثت الى الرسول القادم من يوقنا فدخل فقالت له : « لقد سرت سيدتي أرمانونسة من هذه البشارة ، فأين هو سيدك يوقنا الآن ؟ » .

قال : « هو عند الفرما برجاله ينتظر عودتي حتى يأتي ليذهب بالسيدة أرمانونسة حالا ، لأن الوقت قصير ، وقد أعد لها كل معدات الاحتفال والزينة » . فقالت : « هل جاء في جند كبير ؟ » .

قال : « نعم ، انه جاء في خمسمائة من خاصة رجال سيدي قسطنطين حراسا للسيدة أرمانونسة في مسيرها » .

قالت : « بارك الله فيه . اذهب اليه واخبره ان السيدة أرمانونسة تهديه السلام ، وتشكر حسن صنيعه ، وأنها تتأهب للمسير معه حالما يأتياها الجواب من سيدي المقوقس » . ومدت يدها ونقدته مالا وقالت : « وستنال تمام المكافأة فيما بعد ، فاذهب بسلام » . فودعها وعاد الى هجينه فركبه ، وسار يطوي البيداء .

أما هي فدخلت على سيدتها فاذا بها لا تزال مستلقية على السرير وعيناها تذرفان الدموع ، فدفت منها وقبلتها مبتسمة وقالت : « تجلدي يا سيدتي وتبصري فيما سأقوله ، فان الامر يحتاج الى الحزم ، وثقي جيدا أن قسطنطين لن ينال منك شعرة بهمة سيدي أركاديوس ، انما علينا أن نعلم أركاديوس بما تم حتى يأتي لنجدتك ، ولا شك عندي

أنه يجيء مسرعا إلينا وقد يكون مجيئه في النجدة التي سيرسلها أبوه إلى بليس ، فكيف نعلمه بذلك ؟ » •

قالت : « قلت لك يا بربرة اني لا أملك حواسي » فافعلي ما تشائين ، ولكنني خائفة من سوء العاقبة » •

فقلت بربرة : « لا تخافي يا سيدتي ، بل تجلدي ، واصغي لما أقوله لك » • قالت : « قل لي ما بدا لك ، وافعلي ما ترتأينه » •

فقلت : « أين هو خاتم سيدي أركاديوس ؟ » • قالت : « هو في جيبي » • فأخرجته ، وجاءت بقطعة من البردى ، وخستها به ، وكتبت اسم أرمانونسة بالقطبية إلى جانب الختم ، وأحاطت الاسم بدائرة سوداء • ولقت الورقة وجعلتها في حق صغير ، وخرجت بالحقين إلى الرسول وخلت به ، وأعطته قطعة من الذهب وقالت : « هذه هدية من السيدة أرمانونسة » • فأنتى عليها • فقلت : « خذ هذين الحقين ، فادفع هذا إلى سيدك المقوقس حيثما وجدته ، وهذا ادفعه إلى أركاديوس بن الاعيرج يدا بيد • أفهمت ما أقول ؟ واحذر أن يراك أحد ، فإن سيدتي أوصت والدها بأن يزيد في عطائك إذا قمت بما أقوله لك » • فقبل الحقين وخبأهما في جيبي ، وخرج إلى جواده فركبه وسار قاصدا حصن بابل فرحا بما نال •

وعادت بربرة إلى سيدتها ، وجعلت تطمئن قلبها ، وتخفف عنها ، فقالت أرمانونسة : « لا شيء يعزيني يا بربرة أبدا ، فإن يوقنا اللعين سيأتينا قريبا فباذا نجيبه ؟ » •

قالت : « نقول له أننا لا نستطيع اجابة طلبه قبل وصول الجواب من سيدي المقوقس » •

قالت : « وما الفائدة من ذلك ؟ فلعل أبي يجيبه إلى طلبه ، أليس هو الذي القاني في هذا المأزق ؟ سامحه الله » •

قالت : « أراك لا تنظرين إلى الحوادث إلا من وجهها المظلم ، خلي

عنك الظنون لأننا لا ندري ما يكنه القضاء لنا ، وأراني شديدة الامل في سيدي أركاديوس ، فانه سيدفع عنك كل غائلة بسيفه ، وأنا أقول لك أننا لا نسلم أرمافوسة قبل وصول أركاديوس ، مهما يكن الامر . ومتى وصل كان الامر اليه ، وهو أكثر ميلا للدفاع عنك من كل انسان » .
فأحست أرمافوسة عند ذكر أركاديوس براحة ، وسكن روعها ، وهانت عليها المشكلات . ثم نظرت الى بربرة وقالت : « هل عاد رسولنا مرقس من مهمته ؟ » .

قالت : « لا . لم يعد يا سيدتي ، وأنا في انشغال بال عليه ، وبالامس جاءني والد خطيبته يسألني عنه ، لأنهم ينتظرون مجيئه بفاغ الصبر ، ولا يخفى عليك انتظار الخطيبة لخطيبها اذا كانت تحبه » .
فتنهت أرمافوسة تنهدا عميقا وسكتت . ثم قالت : « ولكني أخاف أن يصيبه سوء لأجلنا ، اذ قد انتهت مهمته ولم يعد » .
فقالت : « ولكنني كنت أوعزت اليه اذا لقي العرب أن يجتهد في تجسس أحوالهم ، فلعله تأخر لهذا السبب » .

ومضى عليهما يومان في انتظار ما يكون . وفي صباح اليوم الثالث أفاقت أرمافوسة على صوت الناس وضوضائهم ، فأرسلت بربرة تستطلع الخبر ، فمادت تقول : « أن أهل بليس في قلق من أمر العرب لأنهم هاجموا القرما ، وقد وصل الى هنا بعض أهلها فارين من ساحة الحرب ، واستقدم الحاكم بعضهم الى منزله يستطلعهم أخبار العرب سرا ، لأنهم شهدوا حربهم واختبروا قوتهم » .

فارتبكت أرمافوسة وزادت هواجسها وقالت : « هذه مصيبة أخرى يا بربرة ، فقد أصبحت بين أربعة عوامل تتسابق الى القضاء علي : أولها وأشدها وطأة علي ذلك الرجل الذي لا أحبه ، وهذا هو رسوله ربنا جاءنا غدا ، لكي يحلني اليه بل الى جهنم أعوذ بالله . وثانيها أبي الذي

وافقه على هذه الفعلة ، وهو عون له على شقائي . وثالثها هؤلاء العرب الذين جاءونا محاربين ، وهم أشدء على ما يظهر ، وربما ملكوا رقابنا عنوة . ورابعها ، آه من رابعها ! .. » وسكتت . فقالت بربرة : « أكلي العدد يا سيدي ، ما هو رابعها ؟ ربما كنت أنا هو ذلك الرابع » : قالت : « لا يا بربرة ، حاشاك ، أنك وحدك تغزيتي في كل هذه النكبات ، أما الرابع فهو قلبي ، هذا الذي قد علق أركاديوس وعصاني في هواء ، وأنا بعيدة عنه يائسة من لقاءه ، وقد كان لي بقية أمل في رؤيته من قبل ، أما الآن فأراني يشمت من حبه » .

قالت ذلك وشرقت بدموعها ، فقالت بربرة وقد انطمر قلبها : « دعي عنك الاوهام وتجلدي ، فقد قلت لك : ألقني حملك علي ، فإني ناصرتك بإذن الله ، وعلي الضمان أن قسطنطين لن ينال منك شعرة ، وأنت ستتاين من تحيينه رغم الناس كافة ، فاصبري وتدبري الامر بالحزم ، واجلسي حتى أذهب الى الحاكم واسمع كلام الفارين لعلي آتيك منهم بقبس من نور » .

وتركتها في الغرفة وذهبت توا الى منزل الحاكم بجوار القصر ، وكان الحراس يعرفونها فلم يمنعوها ، فلما رآها الحاكم وقف لها واستقبلها ، وأراد أن يدخلها غرفة الاستقبال فقالت له : « لا حاجة الى ذلك ، فإني جئت لأسمع كلام الفارين » . فدخل بها الى غرفة فيها رجل عرفت من لباسه أنه من ضباط الجند ، ولكنه ليس رومانيا ، وإنما أصله من جند انطاكية ، فلما رآته علمت ما قاساه من أنواع العذاب قبل وصوله الى بليس ، وكان لا يزال في ثياب الحرب ، وعليه الدرع ، وقد تلطخت بالدماء ، وفي كفه جرح أصابه من نبال كادت تخترق عنقه لو لم يستقبلها بكفه . فجلست على مقعد من الحرير المزركش ، وجلس الحاكم الى جانبها ، ونادى الضابط فدنا منه فقال : « أرو لنا ما رأيت بلا زيادة أو نقصان » .

فقال وهو يتنفس الصعداء : « اني لا أكاد أصدق يا سيدي اني
على قيد الحياة لفرط ما قاسيته من التعرض للخطر ، فان هؤلاء العرب
أشداء أقوياء ، ولا أظن جندنا يقوى على حربهم » .
فابتدريه الحاكم قائلاً : « اخفض صوتك لئلا يسمعك أحد فيقع الرعب
في الناس ، وإشرح لنا حالك » .



قال الضابط : « علمنا منذ ثلاثة أيام بوصول العرب الى ضواحي
الفرما بعدتهم وخيلهم » فأخذنا في التأهب ، فسلنا الأسوار بالجند ، ورفعنا
الاعلام ، وأقمنا الصلوات في الكنائس ، ونصبنا الصليبان على الاسوار ،
وظننا أنهم يترشون قبل منازلنا التماسا للراحة من وعاء السفر ، ولكننا
لم نكد تم التأهب حتى رأينا غبارهم يتصاعد ، وجموعهم تزحف نحو
المدينة ، ثم انكشف ذلك الغبار عن جيش جرار تتقدمه الاعلام
والفرسان ، وما زالوا حتى عسكروا أمام المدينة ، ولكننا لم نشاهد
معهم خياما ولا أثقالا ، فعلمنا أنهم تركوا الخيام بعيدا ، فلبثنا نتظر
ما يكون منهم ، وكنت أنا في حاشية حاكم الفرما تتشاور في أمرهم ،
وبعد الظهيرة بقليل رأينا واحدا منهم يتقدم نحو الأسوار حاملا علما
أبيض ، إشارة الى أنه رسول ، فلم تتعرض له : فلما وصل الى السور
أشار بيده أن معه كتابا يريد رفعه الى كبيرنا ، فأمرني الحاكم فنزلت الى
باب السور ففتحت ، وأردت تناول الكتاب منه فأعرض عني ، كأنه لا
يريد أن يعطيني ، وفهمت منه أنه يريد تسليمه للحاكم يدا بيد ، فاستأذنت
في دخوله ، فدخل بقدم ثابتة ، كأنها هو داخل منزله . وكنت في أول
الامر مستخفا به لرئاسة لباسه ، لأنه كان لابسا نسلة ملتخفا بها كأنه
متسول ، ولكن تحول احتقاري الى احترام حين أراد الدخول على

الحاكم ويده على قبضة حسامه ، فلما أردنا أن نزرع سلاحه أبى . فأتينا بالترجمان وحاولنا اقناعه بأن العادة عندنا أن يتجرد الرسول ، فقال : (لا أزرع السلاح أبدا . فإذا لم تقبلوني كذلك عدت من حيث أتيت) . فارتفعت منزلته عندنا ، وأذن الحاكم بدخوله كما يشاء .

■ فدخل ودفع الى الحاكم كتابا مكتوبا على ورق من جلد الشياه وليس من البردى مثل رقوقنا ، فتناوله الترجمان وفسره ، فإذا هو من أمير العرب يطلب إلينا الاستسلام العاجل حالا ، أو الدخول في دينهم ، أو تأدية الجزية ، أو القتال .

« فعظم ذلك علينا . وقال له الحاكم : (ليس عندنا الا الحرب) . فتحول العربي ، ويده لا تفارق حسامه ، وعينه تراعيان حركاتنا وسكناتنا كأنه يخاف غدرنا به . وعاد الى معسكره ، فصعدت الى مرمى النبال على السرور وظهرت الى معسكر العرب فإذا هم قد وقفوا صفوفًا ، والفرسان متفرقون بينهم ، فعلمت أن هؤلاء الفرسان انما هم قوادهم . ولم تمض مدة يسيرة حتى انبرى منهم فارس مدجج بالسلاح وعليه درع يمانية ، وكنت قد شاهدت مثلها عند بعض قوادنا ، يوم كنت في انطاكية ، وأغار بجواده حتى دنا من السور مشهرا حسامه . فخاطبه الترجمان من أعلى السور يسأله عن مراده فقال : (اذا كان لا بد لكم من الحرب فأخرجو إلينا ، أو ليخرج منكم فارس تعتمدون عليه نبارزه ، فأما أن تكون الغلبة لكم اذا غلب ، أو لنا اذا غلبنا : ومبارزة الافراد خير من سفك الدماء) . « فالتفت الحاكم الي وقال : (ما الرأي ؟) . فقلت له : (ان في المبارزة حقنا للدماء) .

« فقال : (ومن يخرج منكم الى هذا الفارس ؟) . فانبرى قائد كبير منا : وكان من حنكته الايام وتسرر بالحروب ■ وعليه الخوذة ، والدروع على الصدر والكفين والذراعين ، وقد غطاها كلها برداء من

الحرير المزركش ، وتقلد الحمام والخنجر ، وحمل الترس ، وجاء انقيس فصلى له ورشه بقاء المعبودية تبركا وتيسا ، وعلق على صدره صليبا من الذهب نعتقد فيه الحياية من الضر ، فقبل الصليب والانجيل ، وجاء الى باب السور فركب جوادا سينا مكسوا بالدروع أيضا ، وبرز الى العربي ، وليس فيه ولا في الجواد مكان لل سيف الا غطته الدروع ! « أما العربي فكانت الدروع على رأسه وصدره فقط ، والجواد عار ، وكنت ظننته فرسا ضئيلا لقرط ضعفه وقلة لحمه » ولكنني شاهدت من خفته في الجري ما ذكرني بما كنت أسعه عن خيول العرب من الخفة والشدة على قلة لحمها .

« وأخذ الفارسان يتبارزان ، وأبصار الجيشين شاخصة اليهما » وكل يصلي ويطلب النصر لفارسه ، ثم رأيت الفارس العربي يتقهقر كأنه اندحر ، فلحق به فارسنا ، ثم ما عثم أن رجع فكر عليه ، فتقهقرت قلوبنا معه ، ثم عاد الى المبارزة ، واشتد الضرب حتى كدنا نسمع وقع السيوف على الدروع . كل ذلك والاساقفة يصلون ويتضرعون الى الله استمدادا للنصر حتى أمسى المساء ولم يظهر أحد منهما على رفيقه ، فافترقا على أن يعودا الى المبارزة في الصباح !

« فلما رجع فارسنا سألناه عما لاقاه من ذلك العربي ، فاعترف بأنه لو لم يدركه الظلام لذهب فريسة له ، قال ذلك سرا فيما بيننا ، وكان يظهر خلاف ذلك لدى الآخرين ، فاحتسنا تلك الليلة وتشاورنا في أمر أولئك العرب ، فأجمع الرأي على أن نأخذهم بالحيلة ، فنخرج اليهم في الصباح مظهرين الوقوف صفوفًا لمشاهدة المتبارزين ، ونجعل فرقة من جنودنا في كمين على يسار الجند عن بعد ، ثم نشغلهم في حربنا ، ويدور الكمين من ورائهم ، ونهاجمهم من كل الجهات فنضايقهم . وكنت أنا في جملة من سار للكمين . وجعلنا علامة الهجوم دق الأجراس ، فنزلت مع الكمين ليلا

واختبأنا وراء أكمة على مسافة من المعسكر . وفي الصباح نزل باقي الجند
أسام القرما : واصطفوا هناك وقد رفعت الاعلام والصلبان فوق رؤوسهم .
ونزل المتبازان . وبعد هنية سمعنا دق الأجراس فهجمنا على العرب من
ورائهم ، وكان باقي جندنا قد هاجبهم من الامام ، وعلا الصياح من
الجنائين وحمى الوطيس .

« أما نحن فهجمنا عليهم من وراء ، فما شعرنا الا وقد أغار علينا
ساقتهم - وفيهم كثير من النساء - بالعمد والعصي ، وكانت الواحدة
منهن تهجم على العشرة والعشرين وفي يدها عصا طويلة تضرب بها ذات
اليسن وذات اليسار ، فلاقينا من شدة أولئك النساء أضغاث ما لاقيناه من
انرجال . وما زلنا في ذلك حتى انتصف النهار وخارت قوانا فلم نستطع
الثبات ، ثم رأيت نبلة ساقطة علي تكاد تصيب فخري ، فاستقبلتها بيدي
فجرحتي ، وكان الترس قد وقع من يدي ، فخفت على نفسي ، فطلبت
الفرار في عرض الصحراء حتى بعدت عن المعسكر ، وفرت معي جماعة
كبيرة ، فالتفت الى القرما فاذا بالعرب يتسلقون أسوارها . ولا ريب أنهم
دخلوها واستولوا عليها ، وقد واصلت السير ليلا ونهارا حتى وصلت
اليكم وأنا لا أصدق اني نجوت من الموت .

وكان الحاكم وبربارة في أثناء ذلك يتناولان بمنقيهما يصفيان الى
ما يقول وقلباهما يخفقان . فلما أتم حديثه امتقع لون الحاكم ، ووقع
الرعب في قلبه ، ولكنه أظهر الاستخفاف وقال : « انكم أخطأتم الحيلة ،
وكان يجب أن تبارزوهم وجها لوجه ، فما هم الا شرذمة قليلة ، وليس
لديهم من العدة والسلاح مثل ما لنا ، فلئن جاءوا بليس لأذيقنهم العذاب
أنونا » . ثم قال للرجل : « احذر أن تطلع أحدا من حامية بليس
على جلية الخبر لئلا يستولي عليهم الخوف ، وهذا هو شأن الحرب يوم
لك ويوم عليك » .

أما بربرة فعدت الى سيدتها وقد استولى عليها الخوف ، فرائها واقفة الى النافذة ، وقد أسندت رأسها اليها تنظر الى الحديقة كأنها تشاغل بها عن هواجسها لعلها تنسى ما هي فيه من الارتباك ، فلم تشعر بدخول بربرة حتى نادتها ، فتحولت اليها وسألتها جلية الخبر فقصت عليها الخبر كما سمعته الى أن قالت : « وهذا ما كنا نخشاه في أول الأمر ، وهو الذي حمل سيدي على مسألة العرب . فانه تنبأ بظهورهم على الروم حيشا نازلهم ، ولا يبعد أن يكون قد خابهم سرا » وعقد معهم عهدا. ألا يؤذوا أحدا من القبط . وعلى كل لن تقوم للروم قائمة » .

فقال أرمانوسة : « وما الرأي يا بربرة ؟ » . قالت : « الرأي أن تربص لنرى ما يأتي به القدر ، ولا بد من أن يأتينا الفرج أما من أركادبوس وأما من مرقس ، الا أن يكون هذا المسكين قد أصيب بسوء » .

فقال أرمانوسة : « لا سمح الله بذلك ، فاني على شدة هواجسي لم تبرح حكايته بالي ، وأراني في وجل على خطيئته لئلا يكون قد أصيب بسوء نحن السبب فيه » .

* * *

وقضينا بقية اليوم في مثل هذه الاحاديث . وفي الصباح خرجت بربرة تتسم الأخبار لعلها تسمع شيئا عن مجي مرقس ، فرائت الحاكم يستبد مسرعا فسألته عن الخبر فقال : « أما رأيت الغبار المتصاعد في عرض الاق ؟ » .

قالت : « لا . وما ذلك ؟ » .

قال : « أخبرنا الجواسيس أن يوقنا قادم مع رجاله لحمل سيدتي أرمانوسة ، وقد جئت لأبشرها » .

فقال : « أشكرك نائبة عنها ، وسأبلغها هذه البشارة عنك » .

ثم تركته وصعدت الى نافذة أطلت منها على ضواحي المدينة ، فرأت
العبار يتصاعد ، وقد دنا القادمون ، فهرولت الى سيدتها وأخبرتها ،
ولكنها مزجت الخبر بإمارات الاطمئنان خوفا عليها . أما أرمأنوسة فلم
تعبأ الا بالحقيقة : فلطمت وجهها ، وأخذت تترك يديها كأنها وقعت في
مصيبة ، وبربارة لا تستطيع تخفيف اضطرابها ، ولكنها قالت لها أخيرا :
« انتأ على موعد مع يوقنا في انتظار جواب والدك » .

فقطعت أرمأنوسة كلامها قائلة : « وما خوفي الا من ذلك الجواب !
سامح الله والدي ، فانه هو الذي جلب علي كل هذه المتاعب » .

فكانت بربرة : « الا تريدان أن تطلي من النافذة لمشاهدة القادمين ؟ »
قالت : « دعيني من النوافذ فاني مقيمة بهذه الغرفة لا أبرحها أبدا » .
وينما هما في ذلك سمعا قارعا يقرع الباب ، فخرجت بربرة
لاستقباله ، فاذا هو الحاكم يحمل حقا وعلى وجهه امارات البشر . فسألته
عن أمره فقال : « ان الحق مرسل من البطريق يوقنا الى السيدة أرمأنوسة »
فهمست في أذه : « ان سيدتي الآن في الفراش ولا شك أنها ستشكر لك
هذه الهمة ، وسأبلغها الرسالة متى أفأقت ، وربما دعوتك لمقابلتها » .
فشكر لها ومضى . أما هي فأخذت الحق ، وهو صندوق رأت فيه
قطعة ثمينة من الحلي على مثال النسر ، مرصعة بالحجارة الكريمة من الماس
والزمرد والياقوت ، بديعة الصنعة ، والى جانب النسر رق محلي بالذهب
مكتوب باللاتينية ، وفي صدره صورة النسر الروماني ، فعلمت أنه من
قسطنطين ، فدخلت على سيدتها والنسر بيد والرق بالاخري ، وكانت
أرمأنوسة جالسة على مقعد في صدر الغرفة وقد أطرقت الى الارض تنتظر
عودة بربرة ، فلما رأتها داخلة والرق في يدها ظنتها تحمل كتابا من
أركاديوس فنهضت وهمت بتناول الكتاب منها في لهفة ، ولكنها ما
لبثت أن رمت به الى الارض وقد استجالت لهفتها الى انقباض وقالت :

« ما الذي جئت به ؟ وما هذا الذي يبدك ؟ » . قالت : « ألم نقرئي الكتاب يا سيدتي ؟ » .

قالت : « لم أقرأه . ولا أريد أن أقرأه . لأنه مذل باسم الذي تكرهه نفسي » .

قالت : « أقرأه لعل فيه خيرا » . قالت ذلك وتناولت الرق ودفعته إليها ؛ فأخذت أرمانوسة تقرأه فإذا ترجمته :

« باسم الآب والابن والروح القدس

» من قسطنطين بن الامبراطور هرقل ملك الملوك الى عروسنا أرمانوسة الحبيبة

« قد أرسلنا اليك مع عزيزنا يوقنا نسرا رومانيا مرصعا . ووكلت اليه أن يأتي بك الينا وكتب أيضا الى أليك عاملنا على الديار المصرية . ونحن في انتظارك براكبنا عند بحر ديساط . فأسرع في المجيء ، والسلام » .

« قسطنطين »

وما أتت قراءته حتى صاحت بأعلى صوتها : « لا . لا . لا أريد أن أذهب اليك ولو كنت ابن رب الأرباب » . ورمت الكتاب الى الارض . وعادت الى المقعد .

فوقفت بربرة صامتة لا تدري كيف تسلي سيدتها . وقد ازداد الامر اشكالا ؛ ثم تركتها وذهبت الى الحاكم وقالت له : « قد أطلعت سيدتي على الكتاب ؛ وهي في انتظار الجواب من سيدي المقوقس . لأنها لا تقدر أن تبحر المكان قبل وصول جوابه » .

فقال : « ان رسول سيدي المقوقس عاد الآن يحسل كتابا الى يوقنا وآخر لمولاتا أرمانوسة ؛ فدفع هذا الي وسار لا يصل كتاب يوقنا

اليه » ، وقدم لها كتابا كان على مائدة أمامه « -تناولته وفضته فاذا هو بالقبضة يحرض المقوقس فيه ابنته على التأهب السير مع يوقنا ، ويعتذر من عدم حضوره بنفسه لاشتغاله في الحصن بأعداد الجند لدفع العرب . فتغير لون وجهها وخرجت ، فخبأت الكتاب في مكان ما ، ولم تطلع سيدتها عليه لئلا يزيد بأسها ، ولكنها لبثت تنتظر عودة ذلك الرسول من عند يوقنا ، لتسأله عما فعله بالعلامة التي أرسلتها الى أركاديوس » فخرجت الى الحديقة وجعلت تتطاول الى الطريق لعلها تشاهد الرجل قادما فتستطلع الخبر » فما لبث ان جاء ، ومعه رسول آخر عرفت من لباسه انه بروفيس الذي جاء في المرة الاولى برسالة من يوقنا ، فاستعادت بالله منه ! •

فلما وصلا الى باب الحديقة استأذنها في الدخول . فأذنت أولا رسول أركاديوس فدخل ، فسأته عن كتاب أركاديوس فقال : « وصلت الى الحصن يا سيدتي مساء ، فسألت عن القائد أركاديوس ف قيل لي انه ذهب في جماعة من رجاله الى خارج الحصن ليهبطوا الجسر المنسوب بين الحصن وجزيرة الروضة ، وهو جسر مصنوع من المراكب يعبرون عليه من الحصن الى الجزيرة ، ومثله الجسر المبرصل بين الجزيرة والبر الغربي » •

فقالت : « ولماذا يقطعونها ؟ » •

قال : « أرادوا ذلك عندما جاءهم الخبر بنزول العرب بالفرما وعزمهم على الهجوم على الحصن ، فأمرؤا بقطع هذين الجسرين لينمنوهم عن منف وسائر البر الغربي » •

قالت : « وماذا فعلت عند ذلك ؟ » •

قال : « سرت الى سيدي المقوقس فدفعت اليه كتابه فقرأه ، وكان في شاغل بالاستعداد وتقوية الحصون ، فكتب الي كتابين ، وأوصاني أن

أوصل أحدهما الى سيدتي والآخر الى يوقنا « وأمرني بسرعة الرجوع بهما ، فلم أعلم كيف أوصل كتابك الى أركاديوس ، وخفت اذا تأخرت هناك ، وعلم سيدي المقوقس بتأخيري « أن تنكشف حقيقة أمري ، وربما كان في ذلك ما يفضبك أو يغضب سيدتي أرمانوسة ، فرأيت هناك جنديا كنت أعرفه منذ صباي ، وهو صديق لي ، فدفع الكتاب اليه وأوصيته أن يدفعه الى القائد أركاديوس حالما يعود من مهمته ، فوعدني أن يقوم بذلك ، وجئت بالرسالتين كما قدمت » .

فقال وقد ذعرت وكادت تيأس من نجاة سيدتها : « اذن لم تناهد أركاديوس ؟ » .

قال : « لا يا سيدتي ، وقد بينت لك السبب » . وخاف أن يشتد غضبها عليه فسكت .

فقال : « ومن هو هذا القادم معك ؟ » .

قال : « هو رسول يوقنا الى سيدتي أرمانوسة ، أرسله يوقنا على أثر تلاوة كتاب سيدي المقوقس » .

فعلت أنه أرسل يطلب ذهابها اليه وقد وقعت الواقعة وانقطع الزجاء ، فاشتد بها الالاسى ، وترقرقت الدموع في عينيها ، ولكنها تجلجت وأرادت تحقق الخبر فقالت : « ادع الرسول الي » . فدعاه ، فلما دخل تحققت انه الرسول الاول بروفس ، فقالت : « ما وراءك ؟ » . فلم يدفع اليها كتابين ، فتناولتهما فعلمت أن أحدهما من المقوقس الى يوقنا والآخر من يوقنا الى أرمانوسة ، فأخذتهما ودخلت على سيدتها فرأيتها لا تزال غارقة في بحار الهواجس ، فلما دخلت بربارة ذعرت والتفت اليها كأنها تسألها ما خبرها ؟ وكانت بربارة مرتبكة ، والدموع ملء عينيها ، وهي تحاول اخفاء الكتب ، فأدركت أرمانوسة ارتباكها فعاجلتها بالسؤال عما في يدها ، فقالت وقد شرقت بدموعها : « ليس في يدي

شيء يا مولاتي» •

قالت «قولي يا بربرة ماذا في يدك؟ افصحي • هل انقطع
الرجاء؟» قالت: «لا» لم ينقطع الامل يا سيدتي بعد ، فان اتكأ لها
على الله وحده ، وهو قادر على انقاذنا من مخالب الموت •

قالت: «ما هذه الكتب؟ هل جاء الجواب من أبي؟ • قولي ••
ولا تخفي اني كنت أتتبر فرجا منه • قالت: «نعم هو جواب والدك» •
قالت: «وأين كتاب أركاديوس؟» • فأطرقت ولم تجب ، فازداد
ارتباك أرمأنوسة وعظم قلقها ، وألحت على بربرة قائلة: «ألم يرسل
أركاديوس كتابا؟» •

قالت: «لا يا سيدتي ، ولكنه سيبحث قريبا •
فلم تفهم مرادها فأمسكتها بيدها وقالت: «كيف لم يجب؟
هل هجرني وتخلى عني؟» •

قالت: «كلا يا سيدتي ، ولكن الرسول لم يره في الحصن ،
وسلم الكتاب الى صديق له ليسلمه اليه حال رجوعه» •
فاستلقت أرمأنوسة اذ ذاك على المقعد ، وأجهشت بالبكاء ، فخافت
بربرة أن تطلعها على كتاب يوقنا لئلا يزيد بأسها • فوقت ساكنة لا
تبدي حراكا ، ولكنها جعلت تفكر في حيلة تخفف بها عن سيدتها ، فلم
تر وسيلة فجئت الى جانب سريرها ، وأخذت تقبل يديها وتقول لها:
«تجلدي يا سيدتي فان الله قادر على أن يأتينا بالفرج القريب» •

ولبتنا برهة في ذلك فاذا بقارع يقرع الباب ، وقدم خادم ينادي
بربرة من الخارج ، فنهضت ومسحت دموعها ، وأبلغها الخادم ان
الحاكم يطلب مقابلتها ، فذهبت اليه فوقف لها وقال: «قد علمنا أمر
مولانا المقوقس بتسليم السيدة أرمأنوسة ليوقنا صاحب هذا الجند •
وقد بمت الي الآن يستعجلني ، وهو لا يستطيع الا الاذعان لأمر مولانا

قسطنطين كما تعلين ، فهل تأهبت السيدة أرمافوسة للذهاب ؟ » •
 فقالت بربارة على الفور : « انها سرت بما علمت . ولكنها لا
 تستطيع الخروج لتعب ألم بها . فاستهل الرسول الى الغد » •
 قال : « حسنا . وقد أمرت الجند بالتأهب للاحتفال اللائق بسلامها .
 فزينا القصر والطرق قيما بواجب الطاعة لسيدي المقوقس » •
 قالت : « بارك الله فيك . ونطلب اليه تعالى أن يعافيهما لتستطيع
 الخروج غدا » •

ثم عادت بربارة وهي لا تدري كيف تبلغ الخبر الى سيدتها • وكانت
 أرمافوسة كلما سمعت صوتا أو طرقا اضطربت حواسها لشدة تأثرها ، فلما
 طرق الباب وخرجت بربارة ابتدرتها - حين عادت - بالسؤال عما حدث .
 فحاولت مغالطتها . ولكنها لم تقنع بغير الحق ، فلما رأت اصرارها على
 معرفة الحقيقة قالت لها : « اجلسي يا سيدتي لأطلعك على جلية الخبر .
 ولكني أرجو منك أن تتسكي بالحزم . وتتعلقي بأذيال الصبر كما
 هو دأبك . فان أهل مصر ما برحوا يتحدثون بتعقلك وثباتك ودرايتك .
 فلا تطلقي لعواطفك العنان لئلا تزيد الخبز اتساعا . فنكون في شرفنك
 في أعظم منه » •

فقالت أرمافوسة : « لا تذكرني التعقل والحزم . فان عواطفني غلبت
 على كل تعقل وحزم . ولا أراني قادرة على ضبطها • ولكن أكلمي ، ماذا
 تريدن مني ؟ » •
 قالت : « أريد منك أن تتجسلي بالحزم وتتسكي بالصبر وتصني
 لما أقول » •

قالت : « قولي » •
 قالت : « اعلمي يا مولاتي ان سيدي والدك قد أمر بأن تذهبي مع
 يوقنا • وهذا أرسل رسوله الى الحاكم ، فأعد معدات الاحتفال بخروجك

اليه اليوم ، ولكنني أمهلته الى الغد بدعوى توقعك صحتك • وسيدي
أركاديوس لا بد أن يكون قد بلغه كتابي ، واذا لم يصل اليه فيسبح
خبر يوقنا من أييك أو أحد أتباعه أو من سيدي أرسطوليس لأنه صديق
له ، ولا شك أنه حالما يسمع الخبر يأتينا على جناح السرعة ، وهو كفيل
بانقاذك ، والامر عند ذلك في يده ، فاذا لم يستطع انقاذك فالامير
قسطنطين أبقى لك » •

فلما سمعت أرمانونسة اسم قسطنطين ارتعدت فرائصها وقالت لها :
« لا • لا تذكر اسمي • ان النار أحسن عندي من جواره » •

قالت : « لا أقول لك أن تأثيره على البطل أركاديوس ، ولكنني
أريد أن تمسكي الجبل من الطرفين ، وأخشى أنك اذا صرحت بعدم رضائك
بقسطنطين ، وأمسكت عن العمل برأيه ، أن يغضب عليك ، وربما أخذك
بالعنف ، وقد يتفق أن لا يأتينا أركاديوس على عجل ، أو يأتي ولا يستطيع
الدفاع عنك ، فماذا تكون النتيجة ؟ أما اذا أظهرت القبول وسرت
الى معسكر يوقنا فانتا نطاوله ونطلب اليه الانتظار هنا مدة ، ونبعث
رسولا مستعجلا الى سيدي أركاديوس بصريح الخبر ، فلا يمضي يومان
أو ثلاثة حتى يأتي لانقاذك • هذا ما أراه والامر لسيدتي » •

فبهتت أرمانونسة وأخذت تفكر فيما سمعته من بربرة ، فاذا هو
عين الصواب ، ولكن العواطف كانت تسيطر عليها فلم تجب !

فقالت بربرة : « ما بال سيدتي لا تجيبني ؟ » •
قالت : « انظري يا بربرة ، اني أثق بدرايتك واخلاصك وثوقا تاما ،
وهذا أمر لا تجهلينه ، ولكنني غير قادرة على العمل بذلك • وهل تحسبيني
اذا عجز أركاديوس عن انقاذي أرضى بقسطنطين ؟ اني وحب أركاديوس
وما له من المنزلة في هذا القلب اذا تحققت وقوعي بيد قسطنطين ، وقنطت
من أركاديوس فلا شيء يشفي غليلي الا الطعن بهذا الخنجر ! » • قالت

ذلك واستلت خنجرا مرصعا كانت قد خبأته بين أثوابها . فدعرت
بربرة عند رؤيتها الخنجر وقالت : « ما هذا يا مولاتي .. أتقولين
الصدق ؟ » .

قالت : « هذا هو الصدق بعينه يا بربرة ، ولكنني أعدك اني لا أقدم
عليه الا اذا تحققت وقوع القدر : وأظنك عند ذلك تكونين أكبر مساعد
على قتلي لأن فيه خلاصي من عذاب دائم » .
فحاولت بربرة أن تأخذ الخنجر منها فلم تستطع ، غير ان أرمانوسة
أعطتها عهدا ألا تعتمد الى الاضرار بنفسها الا بعد فشل كل حيلة ، فوافقتها
بربرة على نية أن تسرق الخنجر منها في فرصة مناسبة .

* * *

عرفنا أن البطريق يوقنا كان حاكما على حلب من قبل هرقل
امبراطور الرومانيين ، فلما فتح المسلمون الشام قطاها بالاسلام وسمى
نفسه عبد الله وقام لنصرتهم ، وهم بين مؤمن باخلاصه وبين مرتاب فيه . فلما
عزم عمرو ابن العاص على فتح مصر سار في ركابه متظاهرا بنصرتهم ،
وكان عالما بخطة قسطنطين لأرمانوسة ، فحدثته نفسه أن تكون أرمانوسة
عند فتح مصر غنيمة له ، وكان قد سمع بجمالها ، وأسرها في نفسه حتى
أثى الفرما ، وهو واثق ان عمروا فاتح البلاد لا محالة ، ولا بد من وقوع
أرمانوسة في الغنائم ، ولكنه خاف أن يسبقه اليها أحد فعمد الى الحيلة ،
فوزر كتابا على لسان قسطنطين يطلبها كسا قدما . ثم جاء بنفسه الى
بنيس ، وترك جند عمرو مشغلا بحرب الفرما ، معتقدا أنه يتمكن بحيلته
هذه من الذهاب بأرمانوسة بعد القبض عليها ، قبل وصول عمرو الى
بنيس ، وكان يظن أن عمروا سيسكت في الفرما زمنا طويلا ، فلما
جاءه كتاب المقوقس يوافقه على حمل أرمانوسة ، بعث برسول يطلب

مجيئها اليه ، وبعث الى حاكم المدينة ليسرع في ذلك ، فأجابه أن السيدة أرمانونسة مريضة ، فعزم على أن ينتظر شفاءها ، ولكنه علم تلك الليلة أن عمروا قد فتح القرماء . ولا يلبث أن يأتي بلييس فخاف اذا أبطأ هو في أخذ أرمانونسة أن تذهب حيلته ضياعا ، فأرسل في صباح الغد كتابا الى الحاكم شديد اللهجة يطلب منه سرعة الخروج بأرمانونسة في ذلك اليوم . وأنه اذا أبطأ في اجابة طلبه عبد الى القوة .

فبعث الحاكم الى أرمانونسة وأطلعها على طلب يوقنا . فاتفق رأي بربارة وأرمانونسة على أن تخرجا الى معسكر يوقنا . وأن تستهلاها بضعة أيام قبل السفر ، ولم تعلما بسا عزم عليه من الاسراع ، فأقيم الاحتفال ، وخرج الحاكم بأرمانونسة من قصره بالشسوع والصلبان ، واصطفت انجنود على الطرق ، وصدحت الموسيقى ، ورتل المرتلون ، وأخرجوها كما يخرجون العروس في موكب العرس ، فسارت أرمانونسة تجر ذيل ثوبها ، وبربارة الى جانبها ، والقسيون أمامها بالملابس الرسمية والمباخر والصلبان ، حتى خرجوا من المدينة ، فاذا بيوقنا قد خرج من معسكره برجاله محتفيا بها ، حتى اقترب منها فأخذ بيدها وأدخلها خيمة خاصة بها ، فدخلت وتظاهرت بالتعب والضعف ، فتركوها في الخيمة مع جواربها وبربارة ، وتركها الحاكم بعد أن ودعها وعاد برجاله . ومكثت هي في الخيمة ، وانقردت ببربارة وقد اسودت الدنيا في عينيها ، وعظم الأمر عليها ، وخيل اليها أنها أصبحت في الققص ، ولم يعد لها مفر منه . وكانت بربارة تعزيها بأنها أرسلت رسولا مستعجلا الى أركاديوس ، سيصل بعد يومين . ثم لم تض برهة حتى سمعت ضوضاء فخرجت فرأت يوقنا قادما بنفسه ، وقد لبس الثياب الرومانية وتظاهر برومانيته . وطلب مقابلة أرمانونسة فأذنت له ، فدخل ، فحالما رآته تشاءمت من منظره ، ولا سيما لأنه رسول قسطنطين ، لكنها تجلدت

وتظاهرت بالضعف والتعب « وكانت مستلقية فجلست • فجلس بين يديها يتلطف ويواسي وقال : « بساذا تشعر سيدتي ؟ أرجو أن تكون في خير ! » • قالت : « لا أزال أشعر بالضعف » •

قال : « وقاك الله من كل شر يا سيدتي ، ها أنذا أحمل سلاما اليك واكراما من مولانا ابن الامبراطور » • فلم تجبه • فحمل ذلك منها محمل الحياء ، وهو لا يعلم ما تضرره وقال لها : « أرجو أن تتحسن صحتك قريبا باذن الله ، لا سيما عندما تخرجين من هذه المدينة » •

قالت : « ولكنني لا أستطيع الركوب والسفر قبل بضعة أيام » • فقال : « أرى الاسراع في المسير أولى • لأن سيدي ابن الامبراطور ينتظر قدومك بفروغ صبر على سفنه ، وقد أعد لك كل ما تقر به عيناك » •

فأمسكت عن الجواب ، وهي لا تدري بساذا تجيب ، فلاحظت بربرة التغير في وجهها فابتدرته بالجواب قائلة : « ألا ترى أن سيدتي خائفة نقوى لا تستطيع الركوب ؟ » •

قال : « نعم ، أرى ذلك ، ولكنها ستحمل في الهودج على أكتاف الرجال ، فلا تشعر بشيء من التعب » • قالت : « ألا تظن أن حر الطريق يضر بصحتها ؟ » •

فقال : « وهل تظنين اننا فاتنا تدارك ذلك ؟ • لقد أعددتا للسيدة أرماتوسة هودجا ظلله المظلات من ريش النعام على أفخر زينة • تعالي أظريه » •

ثم نهض وخرج بها من الخيمة ، فرأت الهودج يحمله الرجال • والجند آخذين في تقويض الخيام والتأهب للرحيل ، فتحققت حبوط مسعاها ، وضياع أمهلها ، فاغرورقت عيناها بالدموع ، ولكنها أمسكت نفسها خيفة أن يظهر ذلك عليها ، وعادت الى الخيمة مع يوقنا صامتة ،

فاتم هو حديثه قائلا : « أن وصيفتك قد شاهدت الهودج بنفسها معدا لحملك ، فاذا أذنت مولاتي فلتأهب للسفر أصيل هذا اليوم » .
فلما سمعت أرمانونسة ذلك رجفت وقالت : « لا أستطيع السفر في هذا اليوم » .

قال : « قلت لك أن كل شيء معدا لسفرك المريح » وقد أمر مولانا قسطنطين أن أسرع بك اليه ، ولا أستطيع مخالفته » .
فقلت : « لا أستطيع السفر وأنا مريضة ، فأمهني يوما أو يومين ، وأجرك على الله » . قال : « لا أستطيع الانتظار ساعة واحدة ، ولا فائدة من الاخذ والرد في هذا الشأن » .

فتحققنت أرمانونسة أن الساعة قد أتت وآن وقت الانتحار ، وحالما صممت عليه شعرت بأنها يجب أن تبذل كل ما في وسعها قبل الشروع فيه ، فتجلدت وقالت : « لا أرى موجبا لهذا الاصرار ، وأنا بين يديك مريضة كما ترى ، أichel لك أن تعجل علي ؟ » .

فحملني يوقنا وقال : « قلت لك لا فائدة من الكلام وما أنذا ذاهب تأهباً ، وسأعود اليك بعد قليل لنحملك ، والسلام » .

قال ذلك وخرج وتركهما في الخيمة منفردتين ، فالتفت أرمانونسة وقالت : « ما رأيك الآن يا بربارة ؟ ألم يحن وقت الانتحار ؟ » . قالت ذلك ومدت يدها الى خنجرها ، ولم تكن بربارة قد سرقته بعد ، فارتمت عليها وأمسكت يدها قائلة : « لا أصدق يا مولاتي أن يدك اللطيفة تستطيع الاقدام على القتل . ألا تعلمين انك بهذا ترتكبين جريمة ؟ » .

فقلت : « ان موتي وهلاكتي في أسفل الدركات خير لي من أن أستبدل رجلا آخر بأركادايوس حبيبي » . قالت ذلك وخنقتها العبرات ثم أغمى عليها . فأسرعت بربارة الى الخنجر فأخفته ، وخرجت لتنادي بعض الجواري ليساعدها برش الماء ، فأسرع يوقنا الى الخيمة ليرى ماذا

حدث ، فجاءوها بالماء ورشوها ، فأفاقت ورأت يوقنا أمامها وقد تأثر لما شاهده من جمالها وقد ذبلت عيناها وتكسرت أهدابها من كثرة البكاء ، ولكنه ما زال يهددها ، مصرا على الذهاب بها في ذلك اليوم .

ضاققت فلما استحسنت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج
وبينا هم في ذلك اذ دخل عليهم أحد رجال يوقنا يستأذنه بدخول
رسول من الامير عمرو بن العاص ، فبغت يوقنا وبغت ، ولكنه أذن له
بالدخول ، فدخل فاذا هو بلباس السفر ، وقد علاه الغبار ، وعلى
رأسه العقال فحیی یوقنا ودفع اليه كتابا ففضه وقرأه « وأرمانوسة وبربارة
تنظران الى الرسول وتأملانه وترجوان خيرا من قدومه ، فنظر هو
اليهما وحياهما ، وهم يبد أرمانوسة كأنه يحاول تقبيلها ، وسلم على
بربارة ، فتفرست فيه فاذا هو مرقس ، فأشارت الى سيدتها ، وهمست في
أذنها أنه مرقس رسولها ، فالتفتت اليه أرمانوسة فأنست في وجهه أمارات
البشر ، وظفرتا الى يوقنا وهو يقرأ الكتاب فرأى لونه يتغير ، والرق
يرتجف بيده من شدة التأثر ، وما أتم قراءته حتى ظهر عليه الارتباك .
ووقف برهة صامتا ينظر الى الكتاب كأنه يقرؤه ، ولكنه كان غارقا
في بحار الهواجس .

ثم تظاهر بالتجلد وقال لمرقس : « كيف فارقت الامير ؟ » . قال :
« فارقت وقد ترك النرما قادما الى بليس » . فأسرع يوقنا في الخروج
ولم يلتفت الى أرمانوسة ولا الى غيرها .

أما أرمانوسة فانها توسمت في مجيء مرقس خيرا وقالت : « بسم
جئت يا مرقس ؟ وما الذي أوجب غيابك ؟ » . فتقدم وقبل الارض بين
يديها قائلا : « لقد جئت بالفرج يا مولاتي . وأما تأخري فقد كان بقضاء

منه تعالى » • ثم أراد أن يقص حكايته فخاف أن يسمعه يوقنا ، فكلّمها بالقبطية قائلاً : « علت بخيانة هذا الرجل ، وانه قادم بدسيّة متظاهرا بأنه رسول قسطنطين وما هو برسل منه ، ولكنه غادر خائن يسعى لخير نفسه » أما الكتاب الذي جئت به الآن فهو من عرو بن العاص أمير العرب القادمين لفتح هذه البلاد ، يهدده فيه ويأمره ألا يتعرض لك بسوء » •

فرفعت بربرة يديها الى السماء قائلة : « نحمد الله على ما أتانا من الخير على يدك يا مرقس • انك اهل لأعظم مكافأة على هذه الخدمة ، والمستقبل بيننا » •

أما أرمافوسة فلم تعلم كيف تشكره • على أن علو مكاتبتها أمسكها عن كثرة الاطئاب فيه ، ولكن ظواهر الشكر كانت تتجلى على وجهها • فقالت بربرة : « أخاف أن يحمله غيظه على الاسراع في أذيتنا انتقاما منا » • قال : « لا أظنه يجسر على الاتيان بحركة بعد هذا الكتاب ، فانه يهدده تهديدا شديدا اذا مسكسا بسوء ، ولا أظنه الا مبادرا الى الفرار حالا ، وها أنذا ذاهب لاستطلاع الخبر ، لتكونا في اطمئنان وراحة ، والاتكال على الله » • قال ذلك وخرج ، فتقدمت بربرة الى سيدتها وقبلتها قائلة : « الحمد لله يا سيدتي ، ان باب الفرج قد فتح » •

فقالت أرمافوسة : « لا أزال خائفة يا بربرة ، وما أدرانا أن العرب يحسنون معاملتنا ، فقد نكون تخلصنا من شر لنقع في شر أعظم » •

قالت : « ثقي بالعرب ، لأنهم اذا أمنوك فأنت في أمان . مع ما نعلمه من مخابرة سيدي والدك لهم • وعلى كل حال فان الامر لله ، فخنفي الآن ما بك واتكلي عليه » •

أما مرقس فخرج من الخيمة فرأى يوقنا ورجاله يحملون أحمالهم ، وقد ركب يوقنا جواده وكان رجاله راكبين مستعدين للرحيل قبل

مجيء مرقس كما قدمنا • فعاد بلهفة ينيء أرمأنوسة بفرار يوقنا ،
برجاله ، وهم جماعة كبيرة فقالت : « الى جهنم » •
ثم خرجت بربرة فرأت المكان قفرا ، وليس حولهم الا بعض الاحمال
التي تركوها سهوا للهنتم واستعجالهم ، وقد أمعنوا في الهرب حتى
كادوا يتوارون عن النظر ، فنادت بربرة سيدتها فخرجت وهي لا تصدق
أنهم فروا • فرأت المكان خاليا الا من خيمتها وخيمة جواربها •
فقالت : « يا مرقس أرى رجلا بلباس عربي على تلك الأكمة
فمن هو ؟ » • قال : « هو يا سيدتي رسول من الأمير عمرو الى سيدي
أيك ، وسأحكى لك حكايته بعد أن يهدأ روعك » •
فأفقدته الى حاكم بلبس لبعث من يحملها الى منزلها • فأسرع
الحاكم وجاء بجماعة من رجاله حملوا السيدة أرمأنوسة وحاشيتها الى
قصرها وهم يعجبون لما سم ، فقصت بربرة على الحاكم خياة يوقنا ،
فحمد الله على نجاة أرمأنوسة من الشرك •
وكانت الشمس قد مالت الى المغرب ، وأراد مرقس الذهاب الى
القرية لتفقد خطيبته ، فقالت له بربرة : « ثق يا مرقس أن سيدتي كثيرة
الثناء على غيرتك • أتقص علينا قصتك أم تذهب لمشاهدة خطيبتك ؟ » •
قال : « لك الامر ولكنني أحكي الحكاية باختصار » • وأخذ
يسردها عليهما كما وقعت حتى وصل الى سقوطه عن الجمل وكيف حمله
ذلك العربي الطويل الاسود الى المعسكر وضمد جراحه ، وانه انتظر أول
فرصة قابل فيها عمرو وأعلمه على حكاية يوقنا ، فأعطاه ذلك الكتاب
يهدده فيه ويأمره ألا يمس أرمأنوسة الى أن قال : « والعربي الذي
شاهدتمه معي انما هو زياد خادم يحيى النحوي » • وحكى لهما
حكايته ، وانه يحمل كتابا سريا الى المقوقس وفيه الأمان للقبض
كافة • وبينما هم في هذه الاحاديث ، وقد خيم الفسق ، اذا بخادم

يقول : « بالباب رجل يستجير » . قالت : « دعوه يدخل » . واذا هو كهل ينوح ويندب ويقول : « قد أخذوها يا سيدتي ، قد ظلمونا يا مولاتي » . فعرف مرقس أن الباكي عمه المعلم اسطفانوس . فهب من مجلسه وناداه : « ما الخبر يا عماه ؟ » .
 « فذعر الرجل وقال : « أنت هنا يا مرقس وقد أخذوا مارية منك ؟ آه يا ولداه ! » .

فصاح مرقس : « ومن أخذها يا عماه ؟ أخبرني » .
 قال : « أخذها ذلك الخائن الذي كان قد سعى في قتلها والقائما في الليل ، فانه لما رأى الجند قد حملوا على بليس ، وال حال حال حرب ، جاءنا في هذا الصباح ببعض رجال آبيه وأوسعونا ضربا ولكما وحملوا مارية وفروا بها » .

فاشتد غضب مرقس واسودت الدنيا في عينيه فحملق وقال : « الى أين أخذوها ؟ » . وهم بالوقوف ، وقبض على حسامه . فقال : « قد مضوا بها الى حيث لا أعلم ، ولكنهم ساروا غربا ، وربما قصدوا جهة عين شمس » .

فأراد الخروج وهو في أشد حالات الارتباك ، فأمسكته بربارة قائلة :
 « تمهل يا مرقس ، فانك ربما سرت الى جهة غير التي ساروا فيها » .
 ثم بعثت الى الحاكم فحضر فقالت له : « ان سيدتي أرمافوسة توصيك بمساعدة هذا الشاب ، فان ابن حاكم القرية قد اختطف خطيبته وغر بها ، فابث شرذمة من رجالك بثها في الطريق التي قد يسير فيها ذلك الغادر ، وليبحثوا عنه ويأتوا به وبالفاتة حيثما وجدوها » .
 فبعث الحاكم رجاله فرسانا ومشاة في كل الجهات . أما مرقس فانه أخذ شرذمة من الرجال وخرج بهم ، فلقه زياد فسأله الخبر فأطلعه عليه فقال : « أنا أسير معك يا صديقي ، ولا تخف فسأتيك بمارية في خير » .

فتفرقت السرايا على هذه الحال ، وبقيت أرمانيوس وبربارة
تنتظران النتيجة بفارغ الصبر ، وقد شغلها أمر مرقس كثيرا ، لأن ذهاب
خطيبته كان - الى حد ما - بسببها .

- ٩ -

أركاديوس يبحث عن أرمانيوس

فلندعهم يفتشون عن مارية ، ولنرجع الى أركاديوس ، فقد
فارقناه في الحصن بعد سير بربرة وهو على موعد معها لتطلعه على ما
يحدث لأرمانيوس ، ف قضى بضعة أيام على مثل الجسر الى أن استبطأ
عودتها فقلق ، وخاف أن يكون في الامر خديعة ، وندم على اعطائه خاتمه
لامرأة لم يرها الا مرة ، ففكر في ذلك طويلا فلم يهتد الى حل ، وأراد
أن يرسل رسولا الى بليس يستطلع الحقيقة فخاف انكشاف السر ،
فجلس ذات ليلة الى النافذة التي خاطب بربرة الى جانبها فتذكر ما
مر به ، وتقاذفته الهواجس ، ثم دخل عليه جندي وقال : « ان سيدي
الاعيرج يدعوك اليه حالا » . فأسرع اليه فاذا هو يتمشى في أرض الغرفة
ذهابا وايابا وقد أخذ منه الغضب مأخذا عظيما . فلما دخل أركاديوس
سلم عليه وسأله عن أمره فقال : « خذ يا أركاديوس هذا الكتاب واقراه » .
فتناوله فاذا هو مكتوب باللغة القبطية وعليه توقيع البطريك بنيامين .
فقال : « وما هذا يا سيدي ؟ » . قال : « أنا لا أحسن قراءة القبطية ،
لكنني فهمت من هذا الكتاب انه مرسل من البطريك عدو الرومان ،
وقد فرسه لي حالا » .

فقرأه أركاديوس فاذا هو حقا كما قال أبوه . وكان هو الكتاب

الذي أرسله جرجس من بليس ليعطيه للمقوقس ، فعلم أركاديوس أن أمه اذا عرف ما فيه قبض على المقوقس للتو والساعة ، وتعاطم الشر بينهما ، فيكون ذلك سببا ليأسه من نيل أرمافوسه ، فحرف الترجمة وقال : « ان فيه تحريضا للمقوقس على الروم ، وربما كان ذلك على غير رضى المقوقس أو علمه ، لأن الكتاب مرسل من بنيامين كما ترى » . فأدرك الاعرج ان أركاديوس يريد اخفاء شيء من الحقيقة فقال : « أراك تمالي الاقباط على أمرهم يا أركاديوس وتجاهل الحقيقة ، وما أدراك أن ذلك بغير رضى المقوقس ، وقد ثبت لنا أن هؤلاء القبط لا يحبونا ؟ » .

فقال أركاديوس : « وما الداعي لانحيازي اليهم وأنا أول نصير للروم كما تعلم ، ولا أحب أحدا غير الرومان ؟ » . قال : « لا أنكر صدق انتصارك للروم ، ولكنني شمت من كلامك رائحة الدفاع عن القبط ، ونسي تحدثني بأن أبث الى المقوقس ، وهو الآن في الحصن ، فأقبض عليه واجعله في القيود » .

فحار أركاديوس في أمره ، وخاف تفاقم الخطب وذهاب آماله أدراج الرياح فقال : « تمهل يا أبي » اني أعهد فيك التروي والحزم . ألا تعلم أن ظهورنا بعداوة القبط يضر بنا لأنهم يرون في ذلك بابا للخروج عن طاعتنا ، والعدو على الأبواب ، فيكونون عوناً لهم علينا ، فأرى من الحزم أن تتغافل عن أعمالهم » وظهر لهم الاخلاص الى أن نرى ما يكون من حربنا مع العرب » .

فتبصر الاعرج برهة ثم قال : « صدقت يا بني ، وقد عومت على العمل بما رأيت فأبقي هذا الأمر سرا ، أما المقوقس فأقسم بشرف الروم وكروسي القسطنطينية لأتقمن منه .. فقد نسي هذا الخائن أصله وخان دولته . وتحدثني نفسي أن أكتب الى الامبراطور ليعلم خيائته فلا يصاهره .

ولكن صبرا ۝ فان لحمه ولحم ابنته وسائر أهل بيته سيكون طعاما للسك ۝
فان غدره سينكشف قريبا ۝ وعلى الباغي تدور الدوائر » •

قال ذلك وأخذ ينزع ثيابه للرقاد ، فودعه أركاديوس وخرج ، وقد ازداد بلباله وعظم عليه غضب أبيه مما زاد العراقيل في سبيل حصوله على أرمانونسة • ولما سمع والده يهدد المقوقس ويذكر ابنته تقطع قلبه حزنا عليها ، ولكنه كظم النياط ليتدبر الأمر بالحيلة • فقام الى غرفته ، وهو لا يكاد يرى طريقه لشدة التأثر ، وبات ليله لا يستطيع رقادا فأخذ يفكر في أمر أرمانونسة وقسطنطين وأبيه ، وقد علم أنها اذا نجت من مخالب قسطنطين فلا يأذن له والده بالاقتران بها •

وفي صباح اليوم التالي جاءتهم الجواسيس ينبئونهم بنزول العرب بالقرما فبعث الاعيرج ابنه أركاديوس يتولى النظر في قطع الجسر بين الموصلين بين الحصن والجزيرة أي بينهم وبين البر الغربي كما قدمنا ، فلما عاد من مهمته أخذ كتاب أرمانونسة وأخذ في تلاوته ، ففهم أنها في ضيق وتستعجده به ، ولكنه لم يفهم سبب ذلك الضيق !

فخطر له أن يستطلع ذلك بالحيلة من صديقه أرسطوليس ، فذهب اليه في المكان الذي اعتاد أن يكون فيه فلم يجده ، فسأل عنه فقيل له أنه ذهب الى أبيه بالأمس ولا يزال عنده في بعض جهات الحصن ، والحصن بقرية كبيرة • فأخذ يسأل الخدم عنه حتى رآه قادما فاستقبله مسلما ، وقال له : « لقد أطلت الغيبة علي يا أرسطوليس ، وقد عودتني أن تلتقي كل يوم » •

قال : « كنت في شاغل مع سيدي الوالد بشأن أرمانونسة في هذين ايومين » •

فلما سمع اسم أرمانونسة كاد يتجلى الاحرار في وجهه فاعتراه الارتباك والتعجب لسبب الاشتغال بها ، فقال : « وما هو ذلك

الاشتغال ؟ لعله خير ؟! » •

قال : « هو خير ان شاء الله ، فان مولانا قسطنطين بن هرقل قد بعث وغدا ليحمل أرمانونة اليه ، وسيكون في انتظارها عند بحر الروم ليسير بها الى القسطنطينية » •

فحقق قلب أركاديوس خوفا على أرمانونة أن يفقدها ، ولكنه تجلد وقال : « ثم ماذا حدث ؟ » •

قال : « جاء لوالدي كتاب من قسطنطين في ذلك ، فبعث الى حاكم بليس أن يسلمها الى الوفد ، وكان بودنا أن يذهب أحدنا ليشيعها ، ولكن اشتغلنا بالتأهب للحرب ، حال بيننا وبين ذلك » •

فلما سمع أركاديوس الخبر لم يعد يتمالك نفسه من الاضطراب والتأثر ، وتعاطف الأمر عليه . وتحقق أن أرمانونة قد ابستجده ، فكيف لا يذهب لنجدها ، فظاهر بأنه تذكر أمرا يستدعي سرعة ذهابه الى غرفته ، فودع أرسطوليس وخرج وهو يفكر في أمره وأمر أبيه ، فوصل الى غرفته وقد شعر كأنما صب على جسمه ماء حار تارة وبارد تارة أخرى ، ووقف في الغرفة صامتا تتقاذفه هذه العوامل • ثم هب نفته الى خوذته فلبسها وتقلد حسامه وهم بالخروج من الغرفة يريد الركوب الى بليس ، فرأى في عمله هذا خطرا ظاهرا ، فأمسك وعاد الى الغرفة ووقف الى النافذة وغرق في بحار الهواجس لا يدري أيطيع عواطفه أم عقله • وبقي كذلك الى المساء وقد نسي نفسه ، فدخل عليه أحد الجند قائلا : ان رسولا بالباب ، قال : « فليدخل » • ولما رآه علم أنه قادم من بليس ، لما شاهد من أثر الفبار على وجهه وعلم أنه جاهد في سوق دابته في أثناء الطريق ، وناولوه الرسول كتابا فاذا هو من أرمانونة تقول فيه :

« اذا كنت تحب أرمانونة فأسرع الى بليس لاتقاذها ، لأنها

أصبحت بين مغالب الموت •

فلما قرأ الكتاب اتقادت نيران الغيرة والنخوة في عروقه ، فنسي إياه وكل دولة الروم ، وأسرع الى جواده فركبه وخرج من باب الحصن لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، وأطلق لجواده العنان ، وكان من خير خيل العرب العتاق حمله اليه صديق له من ضباط الروم في الشام •

وكان الليل حالكا والطريق وعرا ، ولكنه لم يبال شيئا ، فمضى هزيع من الليل وهو على جواده ، والجو هاديء وقد ساد الظلام والسكون ولم يكن يسمع الا صوت وقع أقدام الجواد خفيفا لنعومة تربة مصر وقلة الحصباء فيها • وبعد منتصف الليل بقليل تعب الجواد فجعل سيره خفيفا ، وأخذ يلتفت الى ما حوله فلم يشاهد الا أشباح الأشجار القرية تمر كأنها أصنام سابحة في الماء !

وفيما هو سائر تتقاذفه الهواجس سمع صوتا خفيفا عرف من رتته أنه صوت امرأة تستجير ، ثم انقطع الصوت بفتة ، وكان لشدة هواجسه في أرمأنوسة وما عرفه من الضيق المحيق بها كأنه في حلم يسمع صوتها تستجير ، فلما سمع ذلك الصوت خيل اليه أنها في يد العدو وتستجير به ، فوقف وأصاخ بسمعه جهة الصوت فلم يسمع شيئا ، فظن ما سمعه وهما • فهم بالسير فسمع الصوت ثانية وقد اقترب ، وإذا بالمستجير يتكلم بالقبطية ويقول : « اشفقوا على صباي • خافوا من الله اذا كنتم لا تخافون المقوقس » • فخيل اليه أن أرمأنوسة بين أيدي أناس يريدون بها شرا ، فهبت الحماسة فيه ونسي نفسه ، ولكز جواده ، فسار به الى جهة الصوت ، وكان قد سمعه بعيدا ، وبينه وبين الصوت غابة من شجر الجبيز ، فسار بجواده بين الأشجار يحملك ويتطاول بعنقه لشدة الظلام لعله يلمح أشباحا أو يرى أحدا ، وكانت قرعة درعه

وسيفه أعلى صوتا من وقع أقدام جواده ، حتى اذا اقترب من جهة الصوت سمع قائلا يقول : « أستجذك يا قادم واستحلفك بالله وبالشرف أن تنقذني من هؤلاء اللصوص » .

فأرسل نظره الى مخرج ذلك الصوت . فرأى ثلاثة أشباح وقوا تحت شجرة ، ولكنه لم يميز أحدا منهم لشدة الظلام ، فأغار بجواده وناداهم بصوت كأنه الرعد القاصف : « أين هم اللصوص ؟ اتركوا الفتاة والا أدقتكم المنون بحد هذا السيف » . وجرّد حسامه ، وكان بينه وبينهم نحو عشرين ذراعاً . فركنوا الى الفرار فتبعهم ، فسار كل منهم في ناحية واختفوا بين الأشجار . فخاف أن يبعد عن مخرج الصوت فيخطيء مكان الفتاة ، فعاد الى الشجرة التي شاهد الأشباح تحتها ، فرأى شبحاً يتلوى عند أقدام جواده وهو يقول : « حاك الله يا فارس وأنقذك من غوائل الزمان ، فقد آنقذتني من مخالب الموت والعار » . فترجل أركاديوس وأمسك المتكيلة وهو في شك من أن تكون أرمأنوسة . فاذا بالصوت غير صوتها ، لكنه كان مختفياً من شدة البكاء فأمسك بيد الفتاة وخاطبها باللغة القبطية قائلاً : « لا تخافي يا فتاة . انك في مأمن من شر أولاد الحرام » .

وأحس أركاديوس عندما قبض على يدها أنها باردة كالثلج ، وهي ترتجف وترتعد ، فقال لها : « لا تخافي يا فتاة ، قللي لي من أنت ؟ » . قالت : « اني فتاة مكيّنة ، قد اختطفني بعض أولاد الحرام يريدون بي سوءاً ، فجزاك الله خيراً على انقاذي . ولكن احذر أن يغدروا بك وأنت واقف هنا . فأنهم لا يخافون الله ، وكأنني أرى واحداً منهم وراء تلك الشجرة » .

وما أنتمت كلامها حتى شعر أركاديوس بنبلة مرت بنفذه ، ولكنها لم تصبه فتحول عن الفتاة وأسرع الى الجهة التي جاءت منها النبلة وصاح :

« ويلك يا خائن ! اني والله قاتلك لا محالة ، ولا أبالي اذا كنتم منات أو ألوفنا » . وكان الحسام لا يزال مجردا ، فوثب كأنه الليث الكاسر ، وخاف الرجل ، فأراد الفرار فأدركه بضربة جندله وقد صاح قائلا : « آه قتلتني ! » . فإذا هو يتكلم الرومانية ، فأجابه باللغة الرومانية قائلا : « أمن جماعة الروم هذه الخيانة ؟ تبا لكم ! » . والتفت الى ما حوله فلم ير أحدا ، فتحقق ان القوم فروا ، فعاد الى الفتاة فإذا بها قد خارت قواها ووقعت على الأرض من شدة الخوف وهي تقول : « قتل الخائن فالحمد لله » . فأمسكها أركادايوس وأجلسها ، وهو يود أن يعرف من هي ، ثم تذكر حبيته وتصور أنها في مثل هذا الضيق ، فاقشعر جسمه وقال للفتاة : « أين بلذك ؟ » . قالت : « بالقرب من بليس يا سيدي » . قال : « هل تعرفين هذا الخائن الذي يتخبط في دمه ؟ » . قالت : « نعم يا سيدي ، هو ابن حاكم القرية » .

قال : « وما الذي يريده منك ؟ » . قالت : « يريد اختطافي من حجر والذي ، وقد قضى زما طويلا يترقب الفرص للايقاع بي ، حتى تسكن والده الحاكم أن يجعلني ضحية النيل ، فأنتقذني الله على يد سيدتي أرمانونسة بنت المقوقس ، وهي ببليس ، فلما سمع بذهابها الى خطيبها قسطنطين صباح أمس ، انتهز الفرصة ، وجاء في زمرة من رجاله ، واختطفني قهرا بعد أن أوسع بي ضربا ، وفر بي الى هذه البساتين ، وقد كاد يقتلك بي ، لو لم تأت أنت لا نقاذي » .

فلما سمع اسم أرمانونسة خفق قلبه ، وازداد الخفقان لما سمع أنها سارت الى قسطنطين ، وأراد تحقق الخبر فقال : « وهل سارت أرمانونسة الى خطيبها ؟ وكيف سارت ؟ » .

قالت : « علمنا ونحن في قريتنا ، أن سرية من الجند الروماني جاءت من أنحاء الشام بأمر من الامبراطور ليحملوها اليه ، وسمنا أنها خرجت

من المدينة وسارت برفقتهم » •

قال : « هل رأيته أنت سائرة معهم ؟ » •

قالت : « لم أرها يا سيدي ، لأنني لم أسمع بخروجها للسير حتى جاءني هؤلاء الخائنون ، ولم أعد أعي شيئاً ، ولكنني بينما كنت معهم ، وهم يعذبونني . وقد حملني بعضهم على جواده ، رأيت خيل الروم تسير شرقاً . وأظن سيدتي أرمأنوسة معهم » •

فلما سمع ذلك نفذ صبره فقال للفتاة : « وأين الخيل التي جئتم عليها ؟ » • قالت : « لا أدري أين تركوها ؟ لأنني لم أكن أعي ماذا يفعلون لعظم اضطرابي » •

قال : « وهل نحن بعيدون عن بليس ؟ » • قالت : « لا أظننا بعيدين » •

ففكر في خير الطرق للاسراع الى بليس ، وماذا يعمل بالفتاة ليأخذها معه ، وليس عنده الا جواده ، وخاف ان هو تردد في الامر أن تذهب أرمأنوسة منه فقال : « اني أخشى عليك أن لا تحسني الركوب ، فهل تركيب خلفي ؟ » • قالت : « افعل ما بدا لك ، فاني حية بفضلك » • فركب وأردفها ، فتبسكت بأطراف ثوبه ، وساق جواده قاصداً بليس ، وهو يكاد لا يرى الطريق لعظم غيظه •

وفما هو سائر شاهد أشباحاً عن بعد ، وقد أسرعوا اليه على خيول ، وصاحوا به : « من القادم ؟ » • فلم يجبه لعظم ما به • فلما اقتربوا منه ورأوا الفتاة وراءه رموه بالنبال وصاحوا به : « تخل عن الفتاة والا قتلناك » • فعرفت مارية صوت مرقس فصاحت : « لا ترم النبال يا مرقس ، انه من الاصدقاء » • وكان أركاديوس قد هم بأن يضرهم ، فلما سمعها تناديهم بالاسم وقف وقال : « من تنادين ؟ » • قالت : « أنادي ابن عمي ، وهو قادم للبحث عني فيما أظن » • ولم يتما

الكلام حتى وصل مرقس ، وترجل ودنا من الفرس فأمسك بالزمام ، وهو في ريب من أمر الراكب ، وركوب مارية وراءه ، وأحاط رجال مرقس بالفرس وهم يصيحون : « من أنت ؟ » • وأركاديوس لا يريد أن يعرف أحد منهم أنه ابن الاعيرج فقال : « لست السارق يا قوم » • وقالت مارية : « انه شهم كريم ، أنقذني من مخالب الموت » • فترجل أركاديوس ، والدرع تغشاه ، والخوذة تغطي معظم رأسه ، حتى لا يستطيع أحد معرفته ، فقال للجميع : « هذه فتاتكم فاحملوها » • فأمسكوا بجواده قائلين : « من أنت ؟ قل لنا حتى نكافئك خيرا » • قال : « لا حاجة بكم الى معرفتي ، واستحث جواده وسار يخترق الصحراء قاصدا بلييس » •

وكان أولئك القوم : مرقس ورجاله ومعهم والد ألفتاة ، وقد أنهكهم التعب ، لأنهم قضوا طول ليلهم يهزعون من مكان الى آخر يفتشون عن مارية •

فحالما سار الركب قبل المعلم اسطفانوس ابنته وقال لها : « الحمد لله على سلامتك يا بنيتي » • وسلم مرقس عليها • ثم حملوها على فرس من أفراسهم ، وساروا بها الى القرية فرحين ، وقد عجبوا لأمر ذلك الفارس وتكره مع ما صنعه معهم من الجميل ، فسألوها عن حكايتها فحكيتها لهم كما وقعت ، فازداد إعجابهم بشهامته •

أما أركاديوس فسار على جواده ، والليل لا يزال حالكا ، حتى دنا من بلييس • والسور محيط بها ، والابواب مقفلة ، والحامية على الأسوار حذرا من قدوم العرب ، فخاف ان هو دنا من السور أن يصيبه شر • لأنهم لا يعرفونه ، وتحير هل ينتظر النهار فيدخل المدينة بحيلة ، أو يسير في أثر الجند الذين قيل له أنهم حملوا أرمانوسة • وفيما هو يسير قرب المعسكر غثر جواده حتى كاد يكبو ، فنظر الى ما عثر به فإذا هي جبال

وأوتاد ، فترجل وتأمل ذلك المكان ، فعلم أنه أثر مضرب خيام ۝ وقد نيت آثارها هناك ، فتأمل وضع الخيام على قدر ما سمحت له شدة الظلام ، فعلم أنها خيام رومانية ، وشاهد مع ذلك آثار آنية وثيابا رومانية ، فتحقق أنها الخيام التي أقلع أهلها في صباح الامس ۝ وما زال يفتش في تلك الآثار متحيرا حتى دنا الفجر ، وأخذت تلك الآثار تنجلي له ، فشاهد خيمة لا تزال مضروبة في آخر ذلك المعسكر ، فسار وقاد جواده وراه لعله يجد فيها خيرا ، فسمع صوتا يناديه من داخل الخيمة : « من القادم ؟ » ۝ فعرف أن الذي يخاطبه من جند الروم فقال : « بل من أنت ؟ أعدو أم صديق ؟ » ۝ فقال « أنا من جند الروم » ۝ قال أركاديوس : « لا بأس عليك ، لأنك من جندنا » ۝ وتظاهر بأنه من قواد الروم جاء بهمة ۝ فخرج اليه الرجل من الخيمة فإذا هو جندي كما ظن ، وظهر الجندي الى أركاديوس ولباسه فظنه من كبار القواد ، ولم يكن أركاديوس لابسا خوذته ، وقد فعل ذلك اخفاء لحقيقة حاله : لأنه لو لبسها لعرفه كل من رآه ۝

فقال أركاديوس : « ما بالكم تقيمون في هذه الصحراء ؟ ولماذا لم تقيموا داخل الاسوار ؟ » ۝ قال : « قد أقمت أنا وجساعتي الليلة هنا بأمر مولانا الحاكم بعد فرار يوقنا أمس من هنا » ۝

فقال : « وكيف فر وقد جاء لحمل أرمانونسة ؟ » ۝ قال : « اكتشفوا انه جاء بدسياسة ، ولم يكن مرسلا من مولانا قسطنطين كما ادعى ، وبعد أن خرجت السيدة أرمانونسة الى هذا المكان ، ومكثت في هذه الخيمة مدة ، وقد أعدوا الاحسال ، وهسوا بالمسير ، جاءهم رسول بكتاب من كبير العرب القادمين الى هذه الديار ، فخاف يوقنا وتركها وفر برجاله » ۝

فأحس أركاديوس عند ذلك كأن ثقلا كبيرا تحول عن صدره
 وقال للرجل : « اذن لم يأخذ أرمأنوسة معه ؟ » . قال : « لا » . قال :
 « والى أين ذهبت هي ؟ » . قال : « عادت الى قصر الحاكم في بليس » .
 فتحقق أركاديوس عند ذلك ان أرمأنوسة لا تزال في خير ، ولم
 يأخذها أحد . فاطمأن قلبه ، ولكنه أراد أن يقابلها ويكلمها ويشفي أوار
 ضوقه اليها ، ولم يكن قد جلس اليها بعد . ونظر الى هندامه : وتحير
 كيف يدخل المدينة صباحا ، مخافة انكشاف أمره ، فتذكر أن جواده معروف
 عند معظم جند الروم . ولا بد لمن يراه نهارا من أن يعرفه ، فاذا أخفى نفسه
 لا يستطيع أن يخفي جواده . ثم نظر الى ثيابه وقد اهتلق الصبح فرأى
 السيف ملطخا بالدماء ، وعلى درعه نقط منها لطختها ساعة قتل
 اللص ، وبقي برهة يفكر ، فتذكر الفتاة التي أنقذها من القتل ، وقال
 في نفسه : « لعلني أستطيع أن أبعث معها كتابي الى أرمأنوسة ، لأنها فتاة
 مثلا ، ولا شك أنها تخلص لي الخدمة ، لأنني أنقذتها من الموت . ولكن
 من أين لي الوصول اليها الآن » .

وينما هو يفكر في ذلك . وقد تحول عن الخيمة لثلا يرتاب فيه
 أحد : اذ حانت منه الثمالة فرأى رجلا ينظر اليه من بعد ويتأمله ، ولا يجسر
 أن يدنو منه ، فبقي أركاديوس ماشيا ، وقد أخذ بزمام جواده « وقاده
 وراءه » فرأى الرجل يدنو منه ، فخاف أن يكون قد جاء مخادعا فناداه :
 « من أنت ؟ » .

فارتس على قدميه وقال : « أطلب اليك يا سيدي أن تقول لي
 من أنت ؟ فاني أشعر بوطأة فضلك علي وأحب أن أعرفك ؟ » .
 فقال : « ومن أنت ؟ » . قال : « أنا مرقس القبطي ، وأنت الذي
 أنقذت ابنة عسي من القتل ، فانها بعد أن وصلنا الى البيت وحكت لنا
 حكاية نجاتها لم أستطع الصبر على جهلي من أنت ، فتعقبتك لكي أراك »

على نور النهار ، فإذا أنت ملثم فلم أعرفك ، ولكنني أتهيب لباسك ، وأخاف هذا الجواد » . قال : « وهل تعرف جواد من هذا ؟ » . قال : « نعم أعرف ، انه جواد البطل أركاديوس بن الاعيرج » . فقال : « فاعلم اذن اني من أصحاب أركاديوس » وكفى » . قال : « نعم يا سيدي ، ولكنني أشعر بعظيم فضلك علي ، ولا أدري كيف أكافئك ؟ »

قال : « لم أعمل ما عملت التماسا للمكافأة ، لأن لي من فضل سيدي أركاديوس ما يفنيني عن ذلك » .

قال : « نعم يا سيدي ان فضله علينا وعلي أنا بالتخصيص » . قال : « وكيف اختصت نفسك بفضله » . قال : « انه أنقذ خطيبتي من القتل مرة قبل هذه يوم ساقوها الى النيل » .

قال : « وكيف تقول خطيبتك ان أرمأنوسة هي التي أنقذتها ؟ » . قال : « نعم هي التي أنقذتها ولكن بوساطته » . قال : « لم أفهم مرادك ، فأفهمني كيف أنقذتها هي بعون أركاديوس ولا وصول لها اليه ؟ » .

فارتبك مرقس في أمره ، وندم على ما فرط منه ، وخاف أن يكون فيما قاله ما يؤاخذ عليه أرمأنوسة ، وكان قد تعجب يوم تناول الامر من أرمأنوسة مختوما بخاتم أركاديوس ، ولم يعلم كيف توصلت هي إليه بتلك السرعة ، مع علمه أن أركاديوس كان في الحصن اذ ذاك ، وكان بطن من أرمأنوسة اصطنعت خاتم أركاديوس تزويرا ، فلاح له أن في التصريح بأمر ذلك الكتاب خطرا ، فلم يجب .

فقال له أركاديوس : « ما بالك لا تعجب ، وقد قلت انك تشعر بمضلي عليك ؟ » . فظهر عليه الارتباك ولم يجب .

فقال له أركاديوس : « أتدعي الاخلاص وأنت تتردد في اطلاعي على الحقيقة ؟ أهذا جزاء الخير ؟ » .

فوقع مرقس على قدمي أركاديوس وقال : « ان في المسألة سرا لم افهسه . وأخاف اذا قلت أن يجيء منه ضرر ، ان تسترك تحت هذا اللثام مما يزيد خوفي ، فهل لك أن تعلمني من أنت حتى أبوح بالحقيقة ، أرجو أن لا يترتب على قلبي شر لأحد الناس . وما جزاء الاحسان الا الاحسان » .

فسال أركاديوس كل الميل الى معرفة سر الامر ، وتوسم بسر قس خيرا . وعزم على أن يستخدمه في توصيل كتابه الى أرمانيوس ، أو أن يتوصل اليها بوساطته اذا أخلص له الخدمة لأنه قبضي . وتذكر بعد الاخذ والرد معه أنه رآه غير مرة مع رجال أرسطوليس في الحصن .

فقال له : « تعال معي على افراد » . فافتردا بعيدين عن بليس في منزل خرب . يظهر من اقتضاه أنه كان معصرة يصطنمون فيها الخمر ، وليس حولها الا الصحراء وبعض الاشجار ، فجلسا تحت شجرة ، فرفع أركاديوس اللثام عن وجهه ، فحالما رآه مرقس وقف مبهوتا ، وهم بتقيل يديه ، وقد ذعر وقال : « العقويا سيدي ، أنت مولانا أركاديوس وأنا لا أعلم ؟ » .

قال له : « اني بازاحة هذا اللثام قد أطلعتك على سر لم يطلع عليه أحد ، فاحذر أن تفوه بكلمة أمام أحد ، أو أن تذكرني ، فاني جئت متنكرا حتى لا يعرفني أحد . هل فهمت ؟ » .

قال : « نعم يا سيدي ، واني أقسم لك بالصليب والمعمودية انسي أخلص القول والعمل في كل ما تريد ، الا ما يخشى منه الضرر بالسيدة أرمانيوس ، لأن لها علي فضلا مثل فضلك ، فاذا عاهدتني أن لا تؤذيها في شيء أطلعتك على الحقيقة ، والا فاني مصر على الكتمان ولو قتلتي » . فازداد أركاديوس شوقا الى معرفة الحكاية ، وعاهده على عدم التعرض بأذى لأرمانيوس مهما يكن من أمرها .

فقص مرقس عليه حكايته من يوم أن خرج من الحصن مع بربرة الى أن حكم على خطيبته بالفرق ، وكيف أنقذها بكتاب سلسه اليه أرمانونسة . وعليه خاتم أركاديوس ، ثم شرح له ذهابه الى القرما للتحقق من موت خطيبها ، وما وقع من أمر يوقنا ، الى آخر الحكاية . فانجلت المسألة لأركاديوس جيذا ، وسر كثيرا لنجاة أرمانونسة ، وأعجب بشهامة ذلك الشاب ، لأنه كان وسيلة في انقاذها ، ورأى من نفسه ميلا الى مكاشفته بأمره توسا للخير فيه . فقال له : « أما وقد رأيت هذه المروءة ، وعلمت ما تكنه من الاخلاص لأرمانونسة فسأطلعك على أمر لم يطلع عليه أحد سواك ، وانسي أمل، فيك أن تكتسه وتبقى على مروءتك » .

فابتدرة مرقس قائلا : « اني مطيع في كل ما تأمرني به الا اذا كان فيه ما يلحق الضرر بسيدتي أرمانونسة » . فقال أركاديوس : « حاش لي أن أريد بأرمانونسة سوءا ، بل أطلب اليك أن لا تطيع أحدا في أمر يسها بشر ، فانها — ولا أخفي عليك — أعز الناس عندي » .

فتعجب مرقس لذلك وقال : « يكفيني انك لا تريد بها سوءا » . قال : « أظن يا مرقس وافهم ما أقوله لك ، أنت تعلم منزلتي ونسبي . ولا تعجب لمكاشفتي اياك واستسلامي لك ، فقد آنست منك شهامة ومروءة سهلا علي ذلك . وأنت خطيب مارية وتعرف قلوب المحيين » . فاعلم اني أحب أرمانونسة حبا شديدا ، ولم يعرف بهذا الحب أحد سواها وخادمتها بربرة . وأما أمر خاتني فهو بيدها ، وقد دفعته اليها عربونا لنسجة ، وأما قسطنطين فبهي لا نجبه ، وقد أرسلتك للتثبت من موته لعلها تنجو منه » . وأوضح له حكايته على قدر ما تسمح له منزلته ثم قال : « وقد جئت الآن خفية عن كل من في الحصن لانقاذها ، اذ بلغني أن

قسطنطين بعث يستقدمها اليه مع يوقنا ۞ وسأنيط بك أمرا أرجو أن تقوم به بالحزم والدراية بحيث لا يلحظ أحد شيئا منك فأنا أريد مقابلة أرمأنوسة قبل عودتي الى الحصن ، ولكني لا أستطيع الدخول الى بليس لئلا يعرفني أحد ، فسا الرأي ؟ » .

قال : « الامر لسيدي ، فهل تريد أن توافيك الى مكان خارج المدينة ؟ » .

قال : « نعم أريد ، ولكن كيف السبيل الى ذلك بغير أن ينكشف أمرنا ؟ » .

ففكر مرقس قليلا ثم قال : « أرى أن أكاشف سيدتي أرمأنوسة بسا دار بيننا ، وأدعوها الى منزل خطيبي بدعوى انها تريد أن تقوم بواجب الخضوع والشكر لها » .

فقال أركاديوس : « ولكنني لا أظنها تذهب ، لأن المسافة طويلة » .
قال : « اذا لم تستطع الخروج الينا فانا ندير حيلة أخرى » .
فقال أركاديوس : « أرى أن أتكر بلباس مثل لباسك ، وأسير كأنني رسول اليها ، فتأخذ أنت هذا الجواد وتذهب به الى القرية وتبقيه هناك حتى أعود ، فتكون أنت في انتظارى على الطريق فاركب وأسير في طريقى » .

فقال مرقس : « حسنا ، فهل أعطيك ثيابي الآن ؟ » . قال : « هات خوذتك وردائك وسيفك » وخذ هذه الدرع وهذا الحسام وهذا الجواد ، واذهب الى القرية واحذر أن تخبر أحدا بأنك رأيتني أو عرفت شيئا عني » .

فتبادلا الثياب ، وأخذ مرقس الجواد والدرع والحسام ، وسار قاصدا القرية ، وسار أركاديوس كأنه أحد جنود الروم قاصدا بليس ، فلما اقترب من الأسوار كانت الأبواب قد فتحت وأخذ أهل تلك

الخيمة في تقويضها وحملها ، فدخل هو في جملة الداخلين ، ولم يتبه له أحد .

- ١٠ -

لقاء الحبيبين

باتت أرمأنوسة تلك الليلة تفكر تارة في مرقس وخطيبته ، وطورا في تأخر أركاديوس عن المجيء لنجدها بعد أن بعث اليه برتين ، وكاشفت بربرة بذلك ، فقالت : « أظنه لا يستطيع الخروج من الحصن خلسة خوف الفضيحة ، أو لعله يأتي في صباح الغد » .

وأصبحت وهي تنتظر رجوع مرقس ، أو من ينبئها بخبره أو خبر خطيبته ، لأنها كانت في قلق عليها ، فجاءتها بربرة تنبئها أن الحراس عادوا وأخبروها بظفره بمارية ، وتمنت أن تظفر هي بأركاديوس أيضا ، فقالت أرمأنوسة : « وكيف ظفروا بها ؟ وماذا فعلوا بذلك الخائن ؟ » .

قالت : « قتله فارس لم يعرفوه بعد » .

وفيا هما في الحديث جاء بعض الخدم يقول : « ان رجلا يريد

السيدة أرمأنوسة » .

فسألت بربرة عن الرجل ، فقيل لها أنه من الجند ، ولعله رسول ، فهرولت وهي تحسب أنه رسول من أركاديوس ، فاذا هو بلباس مرقس ، أو مثل لباسه فظنت لأول وهلة أنه هو ، ولكنها لما تأملته علمت أنه غيره ، فقالت له : « ماذا تريد ؟ » . فقال : « أريد السيدة أرمأنوسة ، قاني رسول اليها من صديقي مرقس ، وقد جئت لأشكرها بالنيابة عنه » . فقالت بربرة : « انها لا تزال في الفراش الآن ، وسأعلمها بتقدمك ، ولا شك » .

أنها تر كثيرا بنجاة مارية • وقد يتيسر لك رؤيتها اذا عدت بعد قليل •

فقال : « لا : بل أريد مقابلتها الآن • وكان يكلمها باللغة القبطية •
فعبجت لهذه الجرأة ، وتأملت وجه الرجل فاذا هو روماني ، فلاح
لها أنها تعرفه لما رأت بينه وبين أركاديوس من الشبه ، ولكنها لم
تكن تتوقع أن يكون أركاديوس نفسه لما رأت من لباه وحاله •
فقالت : « قد لا تريد أن تقابل أحدا الان » •

فأمسك يدها وقال : « أظنها اذا عرفت من انا لا تستع عن
مقابلتي ، فاني رسول جئت بها بشارة من أركاديوس بن الاعرج ، فهل
تعرفينه يا بربارة ؟ » •

فلما سمعت لهجته رجح لديها انه هو ، فالتفت الى ما حولها فلم
تر أحدا من الخدم فقالت له : « لعلك سيدي أركاديوس ؟ » •
قال : « ربما كنت هو (وتبسم) فأين سيدتك يا بربارة ؟ » •
فبغت ، وخفق قلبها فرحا ، وقالت : « تمهل قليلا ، لأن في دخورك
الآن بفتة خطرا عليها ، فاصبر قليلا غير مأمور لأمهد السيل للملاقاة » •
ثم دخلت على سيدتها ، وعلى وجهها أمارات البشر ، وهي تضحك ،
فلما رأتها أرماتوسة عجت لسرورها فقالت : « ما وراءك يا بربارة ؟ » •
قالت : « ما ورائي الا الخير ؟ » •

قالت : « ومن القادم ؟ » • قالت : « يقول انه صديق مرقس ،
وقد جاء لينبئك بنجاة عروسه من يد اللصوص » • قالت : « قد سررت
كثيرا بنجاتها ، ولكنني لا أرى ذلك داعيا لما يظهر من سرورك » •
قالت : « وما عسى أن يكون سبب سروري اذن ؟ وهل يكون
سروري برسول قادم من عند سيدي أركاديوس أكثر من ذلك ؟ كلا !
لأن هذا انما يترك أنت ، وأما أنا فلا فاقة لي فيه ولا جمل » •

فبغتت أرمأنوسة ونهضت قائلة : « هل هو رسول من أركاديوس
يا بربرة ؟ أخبريني ما هي رسالتك ؟ » .
قالت : « لا أعلم اذا كان رسولا من أركاديوس أو هو أركاديوس
عينه ؟ » . وتبسمت فقالت أرمأنوسة : « ما بالك تخطئين ؟ افصحني .
نهزئين بمواقفي وتسخرين من قلبي ؟ » .
قالت : « حاش لله يا سيدتي ! كيف تقولين ذلك وأنت تعلمين
حرمك عندي ؟ ان الواقع بالباب الآن اما أن يكون أركاديوس أو رسولا
من عنده ، وقد تركت أمر تمييزه حتى أستشيرك ، فهل تريدان أن يكون
أركاديوس أو رسولا من عنده ؟ » .
قالت : « لا أعلم ، سلي قلبك . ولكن أرجو أن تسرعني في
الافصاح فقد نفذ صبري ، هل هو أركاديوس أو رسوله ؟ قولي » .
قالت : « اذا كنت لا تفضلين مني فهو سيدي وحبيبي أركاديوس ،
فهل تأذنين له بالدخول ؟ » . فخفق قلبها فرحا ، وعلا وجهها
الاحمرار ، ثم تلاه الاصفرار ، وقالت وصوتها يرتجف : « فليدخل » .
ثم استأنفت فقالت : « ولكن تهلي يا بربرة . اني ارى قلبي يخفق
كثيرا . ولا أدري ماذا يحل بي عند مقابلته ؟ » .
فقالت لها : « تجلدي » والا فاني اقول له ان سيدتي ليست هنا ،
أو أنها لا تريد مقابلتك . وليهدأ قلبك فانه لابس لباس الجند حتى
أنك ربما لا تعرفينه فهل يدخل ■
قال : « كيف لا أعرفه ؟ فليدخل » .
فخرجت بربرة وعينا أرمأنوسة تشيعانها ، وقد أحست بارتعاش
جسدها وبرود أطرافها ، ولم تصدق أن أركاديوس على بضع خطوات
منها ، ولما وقع ظره عليها نزع خوذته عن رأسه ، واقترب منها وهي
جالسة تحاول الوقوف فيقعدنها الحياء والرعشة . أما هو فمد يده

يصافحها فأحس يبرد أناملها وارتعاشها ، ونظر الى وجهها فرأى الحياء يعلوه : وقد أطرقت لا تستطيع النظر اليه لشدة اشغالها •

ولكنها ظلت ممسكة بيده ، وهو ينظر الى تلك اليد الجميلة البضة تزبد جبالها الخواتم الثمينة المرصعة • وبقي لحظة صامتين والهوى يتكلم ، ثم بدأ هو فقال : « كيف حال ذلك الخاتم يا أرمأنوسة ؟ » •

فرفعت رأسها ونظرت اليه والحياء يمنعهما عن الجواب ، ثم أطرقت وقد ازداد خفقان قلبها حتى كاد يغمى عليها ، ف شعر أركاديوس بذلك فأراد مداعبتها ، فقال وهو يضبط بأنامله على يدها : « أين وضعت ذلك الخاتم ؟ » •

فنظرت اليه وهي تبسم ، وتنهدت وأشارت بيدها الاخرى الى قلبها « تريد أن الخاتم في قلبها • وازداد وجهها احمرارا • فقال : « وماذا فعلت بقسطنطين ؟ » •

فجذبت يدها من يده والتفتت اليه شبه مغضبة ، كأنها تقول له : « لا تذكرني بمصائبي » • فقال : « ولم لم تذهبي مع رسوله وهو ينتظرك عند بحر دمياط ؟ » •

فلم تتمالك نفسها عند ذلك وقالت : « دعني ومصائبي يا أركاديوس • كفاني ما قاسيته » •

فتناول كرسيًا كان الى جانبه وجلس ، وقد أخذ منه الهيام مأخذا عظيما ، فأمسك بيدها وضغط عليها قائلا : « بل كفاني توييخا يا أرمأنوسة » •

قالت : « ومن قال لك اني أوبخك ؟ » • قال : « عينك ! » • قالت : « لقد أخطأت الظن ، وأنا المستحقة للتوبيخ لأنني لم أصرح على رؤوس الاشهاد بأني لا أريد ذلك الرجل ، ولكنك تعلم حالي » • فقال : « قلت لك يكفيني توييخا ، وأنت تبالغين في توييخي ، فاذا

كنت ترين في كتمانك قصورا . فكم يكون قصوري ؟ ولكنك لا تجهلين
أمري أيضا » .

قالت وهي مطرقة ، وقد ازداد توردها وجنتها وتلاها العرق على
جبينها : « اني أعلم أنك رهن مشيئة والدك ، فلا لوم عليك اذا غادرتني
مراعاة له ، ولكنني أود قبل مماتي أن تتحقق مما لك في هذا القلب
من .. » . قالت ذلك وشرقت بدموعها .

فازداد هيام أركاديوس ، ورأى أنها توبخه لامساكه عن التصريح
بحبه لها ؟ فأخرج منديلا ومسح به جبينها ، ثم مسح به وجهه فالتفتش
من ريحها ، والتفت اليها فازدادت خجلا ، وبالت في الاطراق . فقال
لها : « هل تظنين ارادة أبي تحول بيني وبينك ، وقد سلمت خاتمي
وقلبي ؟ وما الذي ساقني اليك الآن مخاطرا بحياتي ، وأنا لا أدري ما
يسوقني اليه غضب أبي اذا علم أنني غادرت الحصن على حين غفلة ،
ونحن في حال حرب ؟ وكم يكون غضبه اذا علم أنني جئت لأجلك ؟ » .

فجذبت يدها من يده وهي لا تزال مطرقة وقالت : « قلت لك أنك
مقيد بارادة أبيك فكذبتي » . فقال : « وهل أبي يحول بيننا ؟ » .
قالت وقد نظرت اليه ظر العاتب : « وماذا إذن .. وأنا لا ألومك ،
فإن اطاعة الوالدين واجبة ، لأنها من وصايا الله العشر » .

فشعر أركاديوس بثقل العبارة عليه ، وما تتضمنه من التوبيخ ،
وثار فيه الحمية الرومانية ، واعتدل في مجلسه وقال لها : « اعلمي
يا أرمانيوسية أن أركاديوس لا يطيع أحدا في سبيل اغضابك ، ولا يشبه
عنهك أمر في السماء أو الارض ، وهيهات أن ينال منك ابن الامبراطور
شعرة قبل أنه تجسري الدماء ، ولا يحول بيني وبينك شيء الا اذا أردت
أنك التقرّب من البلاط الملكي ، وفضلت القسطنطينية وقصورها
على هذا الاسير المقتون » .

فتنهت تنهدا عميقا ، والتفتت اليه قائلة : « أراك تستهزئ بعواطفي
أو لعلك تستضعف النساء فلا تؤمن بباتهن في الحب ، ولا يعلم مقدار
ما أنا فيه الا هذه الرفيقة العزيزة التي هي بمنزلة والدتي ، وان في
هذا الخنجر الذي لم يفارقني لأكبر شاهد على صدق محبتي لأركاديوس » .
قالت ذلك وأشارت الى الخنجر في بعض جهات الغرفة .

فخفق قلبه عندما ذكرت الخنجر وقال : « ماذا تعين بالخنجر ؟ » .
فتقدمت بربارة عند ذلك « وكانت مصغية الى ما يتبادلان من عبارات
الوداد ، وقلبا يكاد ينفطر ، ودموعها تساقط على خديها من التأثر ،
وقالت : « انها كانت تخفي علي أمر هذا الخنجر ، ثم علمت انها كانت
تريد الاتحار ان تحققت وقوعها في يدي قسطنطين ، وقد كادت توقع
نفسها ضرا عند قدوم يوقنا لو لم يصل مرقس الخادم الامين بالبشرى » .
فأعجب أركاديوس بباتها وشهامتها ، وازداد تدلها بها فقال :
« أتكونين في مثل هذا الثبات وتشكين في ثباتي ؟ بقي يا أرمانوسة ان
هرقل وجنوده ، وأهل الارض قاطبة ، لا يستطيعون مس شعرة من شعرك
وأركاديوس حي يرزق ، ولو علمت أن جهري بحبك الآن لا يأتيك بضرر
لوقفت على قارعة الطرق وأشهرت غراممي ، ولكنني رأيت من الحزم
أن نصبر حتى يأتي الله بالفرج ، فهل تبقين على العهد ؟ » .
قالت : « أتسألني يا أركاديوس بعد ما رأيت وسمعت ؟ أتسألني
عن البقاء على العهد وقد خالفت الشرع والعرف من أجلك ؟ أتسألني
اذا كنت أصون عهديك ؟ » .

قال : « ليجع الله بيننا وهو على كل شيء قدير ، فلنأخذ الامر
بالحزم والتروي ، فان قسطنطين لن يطع فيك ، والحالة لا تسمح بذهابك
اليه ولو أراد أبوك ذلك ، فان العرب قد قطعوا السيل على المارة ،
ولا بد من أن تنقضي هذه الحرب اما لنا واما علينا ، وستسمعين عن

حبيك أركاديوس ما يترك . والله لأحاربن الروم والعرب في سبيل رضاك ؟ » .

فأمسكت بيده قائلة : « لا تذكر الحرب ولا المحاربة ، اني أخاف عليك النسيم ، فكيف بالنبال والسيوف ؟ وكيف تقول انك تحارب عني ؟ » .

قالت : « دعنا من الحرب ، وهلم بنا نرحل عن هذه البلاد ، بلاد المخاطر والقتل » .

فوقف بغتة ويده على حسامه وقال : « أتريدين أن يفر أركاديوس من وجه العدو ؟ وهل ترضين به جباناً يخاف الموت ؟ ولماذا هذا الحسام اذن ؟ » .

قالت : « لا وحبك ! لا أحب الجبان ، ولا أرضى أن يكون أركاديوس جباناً ، ولكن قلبي لا يحتمل أن أرى أو أسمع أن الناس يرمون النبال عليك » .

فقال : « دعيني اذن وشأني والوغي فاذا سلنت بعدها كنت أهلاً لرضاك فلا تندمين على استبدالي بقسطنطين » .

فصمت وهي تردد بين الشهامة والحب ، ولم تجب . فنهض أركاديوس عند ذلك وهو يقول : « لا بد لي يا أرمانيوس من العودة الى أبيك الآن لئلا يسني عار لتخلي عن الحصن خلسة . ونحن في حرب فقد خرجت منه ولا يعلم بي أحد ، ولقيت في طريقي مارية ، خطيبة خادمك مرقس ، وقد اختطفها للصوص . وسعت صوتها تستجد المارين . فخيّل الي أن أرمانيوس في يد العدو ، فأنتقدتها وسرت وأنا ملثم أخاف أن يراني أحد فيعرفني ، حتى جئت الى ظاهر بلبيس ، ولقيت مرقس وتعارفنا سرا ، فلبست ثيابه متكررا ، وتركت جوادي وثيابي معه ، وقد توسمت فيه الخير ، وهو الذي أخبرني بجلية الخبر عنك ، وسنعمد

عنه في المخابرة حين الابتعاد • والآن لا بد لي من الذهاب » •
 فنهضت أرمافوسة ونظرت اليه وهي حزينة لا تريد فراقه ، ولكنها
 قالت له : « سر بحراسة الله وها أنذا باقية في بلبس لا أدري ما يكون
 من أمرنا والعرب قادمون إلينا ؟ » •
 قال : « سأحث أبالك أن يستقدمك من بلبس عندما يتحقق خيانة .
 يوقنا » •

قالت : « افعل ذلك يا أركاديوس ، فأنا على العهد الى أن يقضي
 الله بما يشاء » •
 فهم بالخروج ولكنه عاد فقال لها : « فاتني أن أذكر لك سروري
 بالوسيلة التي أنقذت بها مارية من الاغراق في النيل » •
 قالت : « لملك تذكرني بجرأتي عليك واستعمالي خاتمك يا
 أركاديوس ؟ » •

قال : « حاش الله ، اني سلتك قلبي أفلا أسلمك خاتمي ؟ فاصنعي
 ما بدا لك ، ولكن ألا ترين أن تنعمي على أركاديوس بتذكاري منك ؟ » •
 قالت : « وما عسى أن أقدم لك وقد ملكت كل عواطفي ؟ ان لدي
 تذكارا ثمينا أخذته من أمي لم يفارق عنقي منذ صباي ، وهو أثمن ما
 عندي من الحلى ، وهو هذا الصليب » • ومدت يدها الى عنقها وأخرجت
 سلسلة ذهبية علق بها صليب ذهبي مرصع ، قد نقش عليه اسمها
 بالقبطية ، وناولته اياه فتناوله وقبله قائلا : « لا ريب عندي ان هذا
 الصليب سيدفع عني كل غائلة ويقيني من كل شر » • قال ذلك وعلقه
 في عنقه وخبأه بين أثوابه ، ثم أمسك يدها وودعها وهو يقول : « اذكري
 أركاديوس ولا تنسيه ، فانه سيذكرك ما بقي حيا ، وسيستعيد باسمك في
 حومة الوغى يوم تتقارع السيوف ، وتتصادم النبال ! » •
 ثم خرج بعد أن ودع بربارة ، فأحست أرمافوسة أن قلبها قد

افزع من مكانه ، وظلت تنظر اليه وهو يمشي في أرض الغرفة حتى خرج من الباب ، فتحوّل الى النافذة تشيحه بنظرها وهو يتلفت لوداعها حتى توارى .

* * *

أسرع أركاديوس يطلب مرقس ليركب الى الحصن ، وقد أوجس خيفة من غضب أبيه ، وكأنه كان في سكرة وصحا بفتة ، فهول يطلب مكان مرقس ، فوصل الى القرية ونظر يسنة ويسرة فلم ير أحدا ؛ فدخل القرية وجعل يبحث عنه لعله يراه فلم يظفر به ، فشغل باله ، وهو لا يعلم أين يقتش عنه ، ولا يعرف من يسأله عن أمره ، ولا يعرف منزله ، فجعل يطوف كالتائه . ولما لم يره خرج من القرية حائرا لا يدري الى أين يذهب ؛ فحدثته نفسه أن يسير الى مكان المعصرة حيث فارقه لعله بقي هناك مختبئا . وبينما هو في سبيله رأى غبارا يتصاعد عن بعد ، فوقف ينظر الى ما وراء ذلك الغبار ، فاذا به قد انكشف عن جيش جرار تتقدمه الاعلام والفرسان ، فعلم أنه جيش العرب قدم الى بليس ، فوقف متحيرا يحرق أسنانه لما أصابه في ذلك اليوم من فقد فرسه وسلاحه ؛ ولبت يفكر في أمره . والجند يقترب نحوه ، فخاف عاقبة وقوفه هناك وهو راجل لا يستطيع النجاة لو أدركه فارس من أولئك الفرسان . ولم يكذب يفكر في ذلك حتى رأى فارسا يعدو نحوه بأسرع من لمح البصر ، فلم تطاوعه أفقته وشهامته على الفرار ، فبقي واقفا وقد تهيأ للدفاع . فاذا بالفارس أحد فرسان العرب . وعليه العمامة والشملة ، وقد دنا منه وفاداه بالعريّة . فلم يفهم أركاديوس مراده . ورآه يهوى عليه بالرمح ؛ فاستل هو الحسام وهجم عليه ، وقد أدرك

مقدار الخطر المحدق به ، ولكنه نسي نفسه وموقعه في سبيل شجاعته .
 وضرب الفارس ضربة أصابت رجل جواده . فنزل الفارس اليه وجعل
 يتقارعان ، فأعجب الفارس بشجاعة أركاديوس وأكبر أمره ، وأراد أن
 يسوقه أسيرا . ثم جاء فارس آخر ، وتعاون الاثنان على أركاديوس ،
 فقطعنه أحدهما بالرمح فأصاب زنده . فسقط الحسام من يده . فهم به
 الاثنان وأوثقاه . وسارا به الى المعسكر . وكان جند العرب قد وصلوا
 اذ ذاك وأخذ العبيد في ضرب الخيام وازال الاحمال ، ونصبوا خيمة
 الامير عسرو في ميسنة المعسكر ، وأنزلوا الهودج ، وجعلوا يشتغلون
 بتدبير شؤونهم .

فصلوا أركاديوس الى الامير . وكان قد أوى الى خيمته ،
 وجلس أمراؤه بين يديه ، ونصبوا عليه أمام الخيمة . وأركاديوس
 لا يفهم لسانهم ، وقد عظم عليه الاسر كثيرا ، ولعن الساعة التي خرج
 فيها من الحصن ، ورأى أنه في موقف حرج قد لا ينجو منه .
 فأدخلوه خيمة الامير ، فوقف بين يديه موثقا ، وتقدم اليه وردان
 وسأله بلسان الروم قائلا : « أمن جند الروم أنت أم من رجال
 المقوقس ؟ » .

قال : « بل أنا من جنود الروم ، وكلنا جند واحد روما وأقباطا » .
 فقال له مترجم كلام عسرو : « وما الذي جاء بك الى هذا المكان ؟ » .
 قال : « خرجت من المدينة في حاجة فظفر بي رجالكم منفردا
 فأمسكوني ، وليست هذه عادة الابطال ، ونحن نسمع أن العرب لا
 يفترون » .

قال : « نعم ان العرب أصدق الناس عهدا ، وأحفظهم لمقام الرجال
 ولكن حال الحرب تقضي بالقبض عليك ، فأخبرنا بما عليه جندكم ، ولا
 تخف شيئا فانك أسير بين أيدينا ولا ينقذك الا الصدق » .

قال : « ونحن لا نعرف غير الصدق شعارا ، ولولا ذلك ما امتدت
سطوتنا على الخافقين . وأنا لا أخاف من الموت اذا هددتموني به . أما
جندنا فأبطال لا يهابون الموت ولا يخافون العدو » . فقال عمرو لوردان :
« دعه يجلس » .

فقال : « لا حاجة بي الى الجلوس : وما نحن ممن يمل الوقوف » .
فعجب عمرو لرباطة جأشه ، وما يتجلى في وجهه من الشجاعة :
وما ينبعث من حديثه من الذكاء ، فقال له : « أنت من أفراد الجند
أم أنت من كبارهم ؟ » .
قال : « بل أنا من أفراد الجند . وأما قوادنا فستلقونهم في ساحة
الحرب » .

فازداد عمرو اعجابا بشجاعته وأحبه . لأنه كان محبا للشجعان .
أما جلساء عمرو فاستنكفوا جرأته فقالوا لعمرو : « ألا أمرت بقتل
هذا العليج ، فانه قد تجاوز الحد في جوابه » .
فأسكتهم وقال لأركاديوس : « اني لأعجب بشجاعتك . ولم ألق
بين جند الروم مثل هذه الجرأة . ولذلك فاني أبقي عليك بشرط أن
تخلص لنا الخدمة » .

فقال أركاديوس : « أما ما ترجوه من خيأتي فبعيد المنال . فتمجيلك
بقتلي أجمل بك وبسي » .
فمال عمرو الى معرفة حقيقة حاله . فأجل الأمر الى فرصة أخرى .
وقال لوردان : « خذوه الى مكان أمين . وليكن هناك حتى أطلبه » .
فساقوه الى بعض الخيام موثقا ، فصار يفكر في حاله . وما أحدق
به من الخطر .

* * *

....

أما أرمافوسة فانها روضت نفسها على الصبر ، وارتاح بالها ، وسرت بمقابلة أركاديوس ، وأعجبت بشهامته وبسالته . ولما توارى عن نظرها عادة الى بربرة وتنفست الصعداء قائلة : « فحمد الله تعالى على ما أولانا من النعم ، فقد تخلصنا من الموت » وشاهدت حبيبي وكلمته وتحققت ثباته ، أما قسطنطين ، فلا أظنه يجسر على دخول هذه البلاد ولو كان حيا ، وقد دخلها العرب ، هي في حرب معهم ، فأطلب اليه تعالى أن يطيل اقامتهم بيننا منعاً لذلك الرجل من دخول هذه البلاد الى أن يقضي الله بما يشاء » .

فتبسمت بربرة وقالت لها : « ألم أقل لك يا سيدتي ان أركاديوس شهم باسل حازم أمين ، وكم تقدمت اليك أن تلقي حملك على الله ، وهو ينقذك من مخالب الموت كما أنقذ مارية لخطيئها ، فانها كادت تذوق كأس المنون مرتين ، والفضل في انقاذها بعد الله لحبيبيك أركاديوس . متعك الله به ! هلم بنا ننزل الى الحديقة ترويحاً للنفس بعد أن اطمأن بالك وسكن روعك » .

فنزعت أرمافوسة ثيابها ، ولبست رداء سماوي اللون ، وجعلت على رأسها شبكة من اللؤلؤ ، وفي صدرها عروة من الذهب المرصع ، ويدها الأساور ، وتطيبت ، وأرخت ذوائبها على كتفيها ، ومشت تجر ذيل رداءها ورائها ، وبربرة تمشي الى يسارها ، فخرجت من الغرفة ، ونزلت الى رحبة الدار ، ومنها الى الحديقة ، وبعثت الى الجواري الا يبرحن مكانهن ، لانها تفضل النزهة على افراد . فدخلت الحديقة وجعلت تخطر بين الرياحين والازهار فلم تكد تمشي خطوتين حتى علت الضوضاء في المدينة ، وهربوا الحاكم مسرعا يطلب مقابلتها ، فأذنت له ، فدخل وعلى وجهه امارات الاقتباس والبغته ، وحياها وهو مرتبك ، فسأله فقال : « يسوءني أن أبلغك خبر مجيء العرب الينا

بمعدتهم ورجالهم وخيلهم ، وقد تصاعد غبارهم حتى بلغ غناز السماء .
فلما سمعت أرمافوسة ذلك اضطرب قلبها ، ولكنها ، حمدت الله
على ذهاب أركاديوس فقالت : « وهل وصل الجند ؟ » .

قال : « نعم يا سيدتي ، وقد جاءني رسول منهم ومعه كتاب من
أميرهم ، يطلب الينا أن نسلم المدينة » . فقالت : « وبم أجيته ؟ » .
قال : « أنتظر أمرك يا مولاتي ، لأن مولاي المقوقس أوصاني بالأآسي
أمرنا ألا بعد استشارتك ، وبها أنذا بين يديك ا » .

فقالت : « وكيف نسلم لهم وعندنا العدة والرجال ؟ وهل بعثت الي
أبي في شأنهم » .

قال : « قد بعثت اليه غير مرة منذ وصلوا الى القرما . وهو عالم
بقدومهم ، ولا أدري ماذا أعد لدفعهم ؟ » .

فتغير لون أرمافوسة وجلا ، لعلها بقوة العرب ، ولكنها تذكرت
ما قاله لها مرقس من أمر الاسان الذي كتبه عمرو لوالدها بشأن
المحافظة على القبط خاصة ، فسكن روعها ، فقالت للحاكم : « عليك
بالتأهب للدفاع ، وبث رجالك على الأسوار والحصون حتى نرى ما
يكون » . فعاد ، وأخذ يعد المعدات ، ويث رجاله في الحصون ، وأجاب
العرب بأنه لا يسلم .

وعادت أرمافوسة الى قصرها مضطربة ، تارة تحمد الله على
ذهاب أركاديوس ، وطورا تقول : « ليته بقي ليدافع عنا اذا مست
الحاجة » . وبينما هي تفكر في ذلك قالت بربارة : « ألم يكن من
التقل يا مولاتي أن نخرج من هذه المدينة قبل وصول العرب ؟ » .

قالت : « قد خطر لي ذلك من قبل ، ولكنني وثقت بعهد عمرو .
وهو لا شك يوفي بالعهد ، ولا يريد بنا شرا . وليتنا نبعث اليه مرقس
نطلبه على أمرنا » .

قالت : « مرقس ليس هنا ، ولم يعد منذ خرج للبحث عن خطيته » .
 قالت : « ولكنه ظفر بها ، الا نطينه يعود إلينا اليوم ؟ » .
 قالت : « أخبرني سيدي أركاديوس أنه أبقاه ليحرس له جواده
 وثيابه حين جاء إلينا ، ولعله يعود عندما يرجع إليه سيدي فرسله إلى
 عسرو » .
 ومضى ذلك اليوم في التأهب ولم تقع حرب .

* * *

قضى أركاديوس سحابة يومه في حبسه لم يذق طعاما ، تتقاذفه
 انهواجس ، يفكر تارة في أبيه وفي إبطائه في الرجوع إليه ، وتارة
 أخرى في جواده وفي مرقس ، ثم يفكر في أرمانوسة وكيف انهار في
 بليس والعرب يهون بفتحها . وكان اذا تذكر هذا ود لو أنه ظل
 قريبا منها لعله يستطيع الدفاع عنها ، ثم ينظر إلى يديه فيرى أنه
 مكبل لا يستطيع حراكا ، فتصغر نفسه في عينيه ويسأم الحياة . وبات
 ليلة لم تذق عيناه الكرى ، حتى اذا لاح الفجر أغمض جفنيه . وما عثم
 أن سمع صوت المؤذن يدعو المؤمنين إلى الصلاة ، فالتفت وعادت
 إليه هواجسه . وجاءه رجل بالطعام فأبى ، ولما علم عمرو بذلك بعث
 إليه وردان يرغبه في الطعام ويستطلع حقيقة أمره ، ولكنه لم يشن عن
 عزمه ولم يذق طعاما ولا شرابا . فقال له وردان : « ألا تزال مصرا
 على عنادك ، ترجو النجاة من هذا الأسر ؟ » .
 فقال أركاديوس : « قلت لك اني لا أهاب الموت ، وليس من
 شيم الروم أن يهابوه » . قال وردان : « والله لولا رحمة أميرنا لقتلناك » .
 قال : « لا حاجة بي إلى رحمتكم فاصنعوا ما شئتم وكفى » .

فازداد وردان اعجابا به ، وأيقن أنه من خاصة الروم ، وجعل ينظر الى لباسه ويتأمله ، فرأى في عنقه سلسلة ثمينة من الذهب ، لا يتأتى لمن كان في مثل لباسه أن يتقلدها ، وقام في نفسه أنه من كبار القواد ، فأراد التحقق وهم بانتزاع السلسلة ، فمنعه أركاديوس وقال له : « لا تمد يدك الى ثيابي ، فانما أنتم تطلبون نفسي وهي في أيديكم » . فأخذ وردان من جرأته ، وازداد رغبة في أخذ السلسلة ، وقال له : « أخسأ ولا تكثر من الهذر والهذيان وأنت مقيد في الاغلال » ولئن لم تنته عن الاسراف في القول لأضربن عنقك بهذا الحسام » .

فجحظت عينا أركاديوس ، وعض على شفتيه من الغيظ وقال : « كفى تهديدا وثرثرة ، ان الشجاعة لا تكون بقتل الاعزل . فأبلغ أميركم عني هذا ، وانتي على استعداد لمبارزة أي شجاع من رجالكم » . فهابه وردان ، وتذكر أن عمروا حظر قتله ، فتركه وسار الى عمرو ليخبره بما دار بينهما ويحرضه عليه . أما أركاديوس فظل الغيظ يشتد به حتى دمت عيناها . لكنه تذكر أنه في الأسر ولا يليق به البكاء ، فتجلد وانتظر ما يأتي به القضاء . وفيما هو في ذلك جاءه وردان يدعوه الى الامير ، فسار معه يجر قيوده وهو لفرط غيظه لا يكاد يبصر أحدا من الجنود العرب الذين خرجوا من خيامهم ليشاهدوه . حتى وصل الى خيمة عمرو فوجده جالسا في صدرها وبين يديه أمراء جنده ، وبجانبه رجل في زي غير عربي . وابتدعه عمرو قائلا : « علنا أنك لا تزال تطاول وتتحدى رغم ما أنت فيه من الاغلال » .

فقال أركاديوس : « ليس الاسر عارا على الرجال ، وانما العار أن تقيدوني وأنا واحد وأنت ألف » .

فقال عمرو : « حلوا قيوده لنرى ما يكون من أمره » . ولما حلوها قال له عمرو : « ها قد حللنا قيودك فما شأنك ؟ » . قال : « ان

أنصفتم ، فلينهض الى مبارزتي أحد رجالكم . فان غلبني فدمي حلال له .

فهم أركاديوس بأن يفصح عن أمره . ولكنه أمسك : وقال : « ان ساحة الحرب تميز الوضع من الرفيع » .

فازدادت رغبة عمرو في معرفته وقال : « أصدقنا الخبر يا رجل ، ولك منا الانصاف » . قال : « وماذا تريدون مني ؟ » . قال : « قل من أنت ، فانا نراك فوق عامة جندكم شجاعة » .

قال : « ان بين عامة جندنا رجالا أصعب مني مراسا وأشجع ، أم حسبتم أننا مثل من لقيتم من جند الشام ؟ » .

فأمر عمرو بتقييده ثانية وقال له : « حبنا فك قيودك سيحملك على ترك التطاول والعناد ، ولكنك أخلفت ظننا بك » .

وبينما هم يعيدون تقييد أركاديوس ، تقدم وردان الى عمرو وهمس في أذنه مشيرا الى السلسلة الذهبية التي في عنقه وقال : « لعل هذه السلسلة تنبئنا بشيء من خبره » . فأمر عمرو وردان أن يأتي بها اليه . ولم تجد مقاومة أركاديوس اذ كان وثاقه قد شد ، ودفعوا بالسلسلة الى عمرو ، فأمر بحمل أركاديوس الى محبسه ، وكان هذا لا يكاد يعني شيئا لفرط تأثره ، اذ كان يؤثر قطع عنقه على أن تؤخذ منه السلسلة . فلما ذهبوا به ، أخذ عمرو يتأمل في الصليب المرصع الذي في السلسلة ثم قال : « انه شبيه بما وجدناه في أسلاب الروم بالشام وببيت المقدس . ولكنه أئمن فيما يلوح لي » .

فقال وردان : « ذلك حسني على الشك في أمر الرجل ، وجعلني أظن أنه من كبار القواد قد جاء متنكرا » .

فالتفت عمرو الى الرجل الذي بجانبه وقال له : « ماذا ترى في هذا انصليب يا زياد ، فانك أخبر بأحوال الروم ولباسهم ؟ » .

وكان زياد حين ذهب الى المقوقس في الحصن برسالة عمرو التي ضمنها الامان للقبط ، قد سمعهم هناك يتحدثون بغياب أركاديوس المفاجيء . وكان قد رآه قبل ذلك في الاسكندرية . ولكن أمره التيس عليه حين رآه في حضرة عمرو ، فتناول السلسلة من يد عمرو ، وأخذ يقلب الصليب بين يديه ، فقرأ اسم أرمافوسة مكتوبا على ظهره باللغة القبطية ، ولكنه كتم ذلك ، وقال : « هل يأذن لي الأمير في أن أستطلع سر الرجل بيني وبينه ، فاني على رأي وردان فيه ؟ » .

فقال عمرو : « افعل ما بدا لك » . فأخذ زياد السلسلة وسار توا الى المكان الذي حبس فيه أركاديوس ، فوجده غارقا في بحار الهواجس ، وقد أخذ الغضب منه مأخذا عظيما ، وأجفل حينما رآه داخل عليه ، غير انه تجلد ليرى ما يبدو منه . ثم جلس زياد أمامه وقال : « بعثني الامير عمرو ابن العاص لأسألك في أمر ، وأرجو أن تجيبي عنه » .
فقال أركاديوس : « وما ذلك ؟ » . قال : « من أين لك هذه السلسلة ؟ » . وأراه اياها ، فما كادت عيناه تقعان عليها حتى أقشعر جسمه وارتعدت فرائصه وترقرقت الدموع في عينيه . لكنه تجلد وقال : « جاءني اتفاقا » .

فقال زياد : « هذا بعيد الاحتمال لأن مثلها لا يحوزه من كان من العامة » .

قال : « ليكون ذلك حقا ، ولكنني حصلت عليها اتفاقا والسلام » .
فقال : « وكيف كان ذلك ؟ » . قال : « وجدتھا في الطريق » .
قال : « قل لي ما اسمك ؟ » . فكاد أركاديوس أن ييوح باسمه ولكنه أحجم حذر الموت وقال : « وماذا تريد من اسمي ؟ » .
قال : « هذا ما يريد الامير أن يعرفه » . قال : « اسمي طيطوس » .
قال : « أمن جند الروم أنت أم من الاقباط ؟ » . قال : « بل من » .

جند الروم » •

قال : « ومن أي سلاح ؟ » • قال : « وما أدراك بجند الروم وتعدادها وأسلحتها ؟ » • قال : « أعرفها جيدا » • فهل أنت من جنود الاسكندرية أم منف ، أم من جنود النجدات التي جاءت أخيرا من القسطنطينية ؟ » •

فلحظ أركاديوس في أسئلته معرفة بأحوال الجند الروماني ، رغم قبايته العربية ، ولكنه مع ذلك يحسن الكلام باليونانية : فقال : « بل أنا من جند الاسكندرية » • قال : « ولعلك من فرقة القائد أركاديوس » • فبغت وقال : « ربما كنت منهم • ولكن ما أدراك بجنود الروم • لعلك ممن سكن هذه البلاد ؟ » •

قال : « كنت مقيما هنا منذ بضع سنين وما شأنك أنت وهذا ؟ قل : هل تعرف أركاديوس ؟ » •

فعجب أركاديوس من الحاحه ، وخاف أن يكون قد عرفه فيقع في الخطر العظيم فقال : « أعرفه ، ولكنني أسألك أمرا واحدا فهل تجيبني اليه ؟ » • قال : « وما هو ؟ » •

قال : « أعطني هذه السلسلة وافعل بي بعد ذلك ما تريد ، واسألني مهما شئت فأجيبك » •

فقال زياد : « لم يؤذن لي بذلك ، ويهمني أمر هذه السلسلة أكثر مما يهمك ، فانها على ما يظهر لأرمانوسة بنت المقوقس ، وأنت تقول أنك من بعض الجند فكيف وصلت اليك ؟ » •

فأنكر أركاديوس عليه ذلك قائلا : « لا أظنها لها ، ولكنها وقعت الي محض اتفاق » •

فقال زياد : « عجبا لاضطراب كلامك ، فبينما تقول أعطني هذه السلسلة واسألني مهما شئت ، مما يدل على اعظامك لها ، تعود

فتقول انها وقعت اليك اتفاقا ، فكيف هذا ؟ »

فارتبك أركاديوس ، ولم يعد يستطيع التخلص من هذه السورطة فسكت . فاستتج زياد من سكوته أمرا حملة على زيادة التدقيق في السؤال « فعاد يستجوبه فلم يجبه ، فألح عليه فأصر على السكوت ، فقال له أخيرا : « انك ان أصررت على السكوت فلن يصبك الا الاذى فأفصح » . فلم يجب ، فعجب زياد لسكوته وقال له : « لماذا لا تفصح .. قل . أجب » . فرفع أركاديوس نظره اليه ، وقد أخذ منه الغضب مأخذا عظيما ، وقال : « لا أجيبك الا اذا أخبرتي أنت عن حقيقة حالك ومن أنت ؟ فاني أرى أنك لست عريبا ، وما الذي تخشاه وأنا مقيد اليدين بين يديك ؟ » .

قال : « وما ينفعك تصريحي وما يضرك ! هذا ليس من شأنك ، وانما أنت أسير بين أيدينا ، ولا تظن تكتمك يخفي حقيقتك فقد عرفاك ، وأنا أول من عرفك » .

قال متجاهلا : « وكيف لا تعرفني وقد تسميت وانتسبت » .
فضحك زياد وقال : « أتريد أن أصدق انك طيطوس ، وأنت أعظم من ذلك بكثير . اذا أصررت على الانكار فان ذنبك يزداد ثقلا » .
فقال أركاديوس : « قل من أنا اذن » .
قال : « أنت أركاديوس بن الاعرج » .

فبغت أركاديوس ، وخاف العاقبة ، ولكنه ابتسم مظهرا الاستخفاف ، وقال : « من أين لسيدي أركاديوس أن يأتي الى هنا وهو محاط بالابطال ، لا يخرج من معسكره الا في المئات والالوف من الجند ، ليتني كنت اياه ، ولو آل ذلك الى أن تقتكوا بي الآن » .
فانقلب شك زياد يقينا لما ظهر على وجه أركاديوس من الاضطراب وقال : « دع عنك هذا ، واعلم أن أركاديوس الذي لا يخرج من معسكره

الا محاطا بالمئات والالوف قد خرج من حصن بابل وحده ، وترك
القوم هناك يفتشون عنه » .

فازدادت حيرة أركاديوس وخفق قلبه ، وتراكت عليه الهوم من
كل ناحية ، وقال في نفسه : « وما الذي أوصل هذا الرجل الى الحصن ،
وهو من جند العرب ؟ وكيف نجا منه ؟ » . ثم فكر في الامر قليلا
وقال : « استحلفك يا أخا العرب بمن تعبد أن تخبرني من أنت ؟ ومن
تعبد حتى استحلفك به ؟ » . قال : « ما لك ومن أعبد ؟ » .

قال : « أسمع أن العرب أهل عهد وذمام ، واني أبوح لك بحقيقة
أمري اذا وعدتني بأن تنجز أمرا أطلبه منك » .

قال : « قد أعدك ولا أستطيع الوفاء فليس أمري بيدي » .
قال : « أعلم ذلك ، وأنا لن أعاهدك على ما لا يريده أميرك ، فانه
اذا عرف من أنا قد يطمع في قتلي ، وما أنا بخائف من الموت » .
قال : « ماذا اذن ؟ » .

قال : « عدني ، وأقسم انك ستفعل ما أقوله لك ، ولو بعد مماتي » .
فارتاب زياد في الامر ، وعجب لطلبه هذا ، وقال في نفسه : « ان
للرجل سرا عميقا لا بد من معرفته ، فقال : « أعاهدك على شرف العرب
وشهامتهم أني أفعل ما تريده الا نجاتك من الموت . قل ما بدا
لك » .

فقال أركاديوس : « أما وقد وعدتني فاني أعترف لك بأنني
أركاديوس ابن الاعرج ، وليفعل بي أميركم ما يشاء ، وقد فهمت من
حديثك أنك دخلت الحصن ، وظهر لي أنك تستطيع الدخول بين جند
الروم بغير أن ينكشف أمرك ، فرجائي اليك أن تحتفظ بهذه السلسلة
وهذا الصليب ، حتى اذا قضي علي تدفعهما الى صاحبتهما أرمأنوسة
سرا ، وتقول لها أن أركاديوس مات شهيدا » .

ف عندما سمع زياد كلامه تعجب عجباً لا مزيد عليه ۝ ولم يفهم معنى هذه الرسالة لعلبه بما بين القبط وبين الروم من عداوة شديدة ، فكيف يصل هذا الصليب اليه وهو لأرمانوسة ، فأراد أن يستطلع جلية الخبر فقال له : « وما العلاقة بينك وبينها ؟ » •

قال : « هذا ليس لك ۝ ولا هو من شأنك ، فقد عاهدتني أن تفعل ما أطلبه منك ۝ وهذا ما أرجوه ، فأما أن تفي بالوعد أو تخلفه » •
قال : « أما الخلف فحاش لي أن أرتكبه ، ولكنني أريد الافصاح لعلني أستطيع أن أتقذك من الموت ۝ » •

قال : « قلت لك أنك لا تستطيع ذلك ۝ ثم تقول الآن أنك تفعله ؟ أتتهزأ بي دع عنك الوعود وافعل ما أقوله لك ۝ » •
قال : « أترضى بالموت ولا ترضى افشاء شرك ۝ » •
قال : « ان الموت أسهل علي من الافشاء ۝ » •

فقال زياد : « أستحلفك بحياة صاحبة هذا الصليب ، اذا كنت تحبها ۝ أن تقول الحق ولا تخف ، فان تصريحك بالحقيقة أنفع لك ۝ » •
فأجفل أركاديوس عند ذلك وقال : « أراك شديد الميل الى معرفة علاقتي بأرمانوسة ، وتستحلفني باسمها كأنك تظن اني أحبها » •

قال : « وهل في الحب عار ؟ فاذا كنت لا تريد الافشاء خوفاً من غضب أبيك فثق أني أكتم عنه وعن سواء أمرك فقل ولا تخف ۝ » •
فقال : « أما وقد بلغ الامر بيننا هذا الحد فقل لي من أنت ؟ ۝ » •
فقال : « لست من جنذ العرب ، وكفى ۝ فقل ولا تخف ۝ » •

ففكر أركاديوس قليلاً فلاح له أن الرجل قد يكون من جواسيس المقوقس الى العرب ، أو ربما كان من جواسيس أرمانوسة ، فاستبشر به وقال : « أما والحال كذلك ۝ وقد أردت بي خيراً فأبوح لك بأنني أحب أرمانوسة وهي تحبني ۝ وقد أخذت هذا الصليب تذكاراً منها

لا يعلم به أحد سواك الآن ، وحيي لها سر لا يعلم به أبي ولا أحد من جند الروم . وهذه حكايتي والسلام ، فافصح أنت الآن وقل لي من أنت ؟ » .

قال : « أنا من بعض موالي أرمانوسة » وقد جئت هذا المعسكر فلم يسيئوا الظن بي لأن أصلي عربي . أما وقد علمت الآن حقيقة أمرك فثق بالنجاة على يدي باذن الله ، وها أنذا عائدا الى الامير » . قال أركاديوس ، وقد توسم فيه الخير : « لقد وثقت بك وثوقا تاما ، وأنت تعلم اني أستطيع أن أكافئك خيرا ، فأبذل جهدك وصن سري » .

فعاد زياد الى الامير عمرو ، وقد صمم على بذل الجهد في انتقاذه ، ولكنه لم يصل الا وقد ركب عمرو ، وصاح في الناس : « النفير النفير » . وأخذ الجند في التأهب لمهاجمة المدينة ، فلم يملك فرصة لمخاطبته في شأن أركاديوس ، ولاح له أنه ربما استطاع اطلاق سراحه ، والناس في شغل عنه بالحرب .

- ١١ -

العرب في بلييس

كانت أرمانوسة في اطمئنان على أركاديوس ، لظنها أنه سار الى الحصن كما قدمنا ، ولكنها أصبحت في خوف على نفسها من العرب ، لم يكن يخفف من وقعه الا ما علمته من اتصال أبيها بهم . أما حاكم بلييس فأخذ في الاستعداد للدفاع ، فأعد الجند وفرقهم

على الاسوار فرقا ، فلما أصبح ورأى العرب تأهبوا للهجوم على المدينة ، نادى الجند وجاء الاساقفة والقسيسون فصلوا فيهم ، وحرضوهم على الثبات . وقرأوا الاناجيل ، وحملوا الصلبان والاعلام ، ورشوا الجند بماء المعمودية . وكان عندهم زجاجة منه جاءتهم من القدس ، فاحتفظوا بها من أزمان طويلة ، فلما اجتمع الجند في ساحة المدينة للصلاة جاءوا بالزجاجة وصبوا منها شيئا في وعاء كبير فيه ماء ، وأخذوا من ذلك الماء ورشوا به الجند ، وحملوا الشموع والمباخر ، وتفرقوا على الاسوار تأهباً للقتال .

وأطل الحاكم من أعلى السور ينظر الى العرب ، فرآهم قد ركبوا خيولهم واصطفوا صفوفاً ، والاعلام تخفق فوق رؤوسهم ، وتقدم فارس منهم يطلب المبارزة ، وأخذ يجول على جواده منادياً : « البراز البراز » حتى الظهيرة ، فلم يخرج اليه أحد ممن على السور ، فعاد الى معسكره ، فاجتمع الامراء وتشاوروا فرأى عمرو أن يسرع القوم باقتحام الاسوار قبل أن تأتي المدينة نجدة من حصن بابل . وسرعان ما تقدم العرب الى الاسوار وأخذوا يتسلقونها .

وكانت أرمانونسة تنظر من نافذة قصرها الى العرب وحربهم ، فلما رأتهم يتسلقون الاسوار اضطربت وخافت خوفاً عظيماً ، ونادت بربارة فجاءت تجري وهي تقول : « لا تخافي يا سيدتي ، ان لنا على أمير العرب عهداً كما تعلمين » .

ثم سمعتا ضجيج أهل المدينة وصراخهم فأيقنتا أن العرب دخلوا بنيس ، فصاحت أرمانونسة : ويلاه يا بربارة قد قتلنا ! وأمرت الحراس باقفال أبواب القصر والتحصين فيه خوفاً من الفاتحين . وجعلت تسترق النظر من النافذة فإذا بجيش الروم قد فر ، وأهل المدينة في هرج لا يلوون على شيء ، والعرب قد انتشروا في الحديقة ، وجاء أحدهم

يطرق باب القصر ، فلم يجسر أحد من الخدم أن يفتح خوفاً على أرمانونسة ، فسمعوه يقول : « افتحوا . لا تخافوا . اني رسول من الامير عمرو الى السيدة أرمانونسة » .

فلم يصدقوه ، ولما ألح في القول أطلت بربارة من نافذة فوق الباب تستوضح أمره ، فأجابها بالقبطية أنه رسول اليها من عمرو ، فعجبت للباسه العربي ، وكلامه القبطي ، فقالت : « ماذا تريد ؟ » . قال : « افتحوا . اني أريد أن أكلم السيدة أرمانونسة في أمر ذي بال من الامير عمرو » . فلم تصدقه فأخرج من جيبه السلسلة وفيها الصليب . وأشار بها اليها ، فلما رأت بربارة السلسلة عرفت ، وأسرت الى سيدتها تقص الخبر فصعقت له ونادت في خدمها أن يفتحوا له الباب . فدخل مسرعا الى أرمانونسة ، وهي في خوف شديد ، فلما رآته عرفت انه الرجل الذي كان مع مرقس يوم جاءها الى الخيمة وهي عند يوقنا ، فقال لها : « لا تخافي يا مولاتي . ان الامير عمرو قد أرسلني لأدخل السكينة على قلبك فانك في أمان من هول ما ترين أنت وكل من يأوي اليك » . فأسرعت اليه ، وأخذت السلسلة من يده وقالت : « من أين هذه ؟ » . وحدثت فيها فاذا هي سلسلتها وصليها ، فاضطرب قلبها وجزعت وصاحت به قائلة : « كيف وصلت اليك ؟ وأين صاحبها ؟ »

قال : « لا تجزعي يا سيدتي ان صاحبها في خير ، وهو اركاديوس بن الاعرج ، وقد عرفت قصته ، وسأقص عليك خبره ، فلا تخافي » .

فقالت : « قل حالا ، فاني لا أستطيع صبرا . أين هو ؟ وكيف وصل اليكم ؟ » . فهمس في أذنها : « انه أسير في معسكر العرب ، ولا خوف عليه لأنهم لم يعرفوه ، ومتى انقضت الحرب

أسعى في اطلاق سراحه » •

قالت وقد اشتد قلقها ، واضطربت جوارحها : « قل الآن وافصح ، كيف وصل الى المعسكر ؟ •• يا ويلاه ! أسر أركاديوس يا بربرة ! » •
فهمت بربرة بسؤال زياد عن أمره فقال : « ولكن قبل أن أقص الخبر خذوا هذا العلم وانصبوه على باب القصر ، ليعلم الجند أنكم في ذمتنا » •

فنادت الخدم ، فأخذوا العلم ونصبوه على الباب ، وجلس زياد يقص عليهما حكاية أركاديوس كما علمها منه ، وأرمانوسة كلها آذان ، وقد امتقع لونها وخفق قلبها واصطكت ركبتيها وما صدقت أن جاء على آخر الحكاية فقالت : « وهل هو أسير عند العرب الآن ؟ قد يكونون أصابوه بسوء وبخاصة اذا عرفوا أنه ابن الاعيرج » •

قال : « انهم لم يعرفوه ، وهم لا يفتكون بأسراهم غدرا ، فلا تخافي • وها أنذا ذاهب لاستجلاء خبره وأعود اليكم » • وخرج زياد وقد ترك أرمانوسة على مثل الجمر تلطم كفيها بأكية وتصيح : « يا ويلاه ! أأركاديوس حي ؟ آه من الدهر ! كم يعمل على كيدي ! وحتى متى ؟ » •

فجعلت بربرة تخفف عنها وتعزيها ولو أنها لم تكن أقل قلقا منها ، وذهب زياد توا الى معسكر العرب فرآه يكاد يكون خاليا لاشتغال الرجال بالفتح ، وقصد الى محبس أركاديوس ، فذهل ذهولا عظيما لما دخله ولم ير به أحدا ، فخرج يطوف المعسكر يبحث عنه فلم يقف له على أثر ، فعاد الى الخيمة يفحص ما فيها لعله يستطلع شيئا عنه ، فرأى أمراسا من الشعر مقطعة بغير آلة حادة ، وعلى بعضها أثر الدم ، فظن أن النزاة فكوا وثاقه وضربوه أو قتلوه ولكنه لم ير جثته ، فوقع في حيرة وحزن شديدتين ، ورثى لحال

ارمانوسة عندما تعلم ذلك ، فوقف لا يدري ماذا يعمل •
فلنتركه في حيرته على أركاديوس ، ولنعد الى حصن بابل
لنرى ماذا كان من أمر أبيه وأهل الحصن بعد خروجه •

* * *

تركنا الاعيرج في غرفته بعد ذهاب أركاديوس ، وقد حسي
غضبه لما تخيله من خيانة المقوقس وهم بأن يدعوه ويؤنبه ، ولكنه آثر
السكوت الى أن تنتضي الحرب ، وقد أضر الشر •
وفي صباح اليوم التالي جاءته رسله ينبئونه بوصول العرب
الى بليس بعد أن فتحوا القرما ، فاضطرب ، وبعث الى أركاديوس
لبشاورة في الامر • فقبل له ان أركاديوس ليس في قلعة ، فاستقصى
خبره ، فلم يجد مخرج ملاءم ولم يعد بعد • فقلق - وعجب لذهابه
بغير استئذان ، في ابان الحرب ، فأرسل الى المقوقس - فجاء وأخذ
يتدارسان ما جاء من الانباء ، وسأله عن أركاديوس فأجاب بأنه لم
يره • وما عثم أن شاع خبر غياب أركاديوس في أنحاء الحصن ،
وأخذ الجند والقواد والناس يشاءلون ، فلم ينبئهم بخبره منبئ ، فعظم
ذلك على الاعيرج ، وخارت قواه ، لأنه كان يعتمد على أركاديوس
في أمر الحصن والاستحكامات وما يتعلق بها ، فبعث من يفش عنه
في ضواحي الحصن لعله يكون قد ذهب في حاجة فلم يقفوا له على
أثر أو خبر ، فخامرته الشكوك ، فكان يتهم المقوقس باغتياله ، ثم
يراجع نفسه فيظنه ذهب على جواده لتفقد الحصون فكبا به الجواد
فسات • فشغل بهذه الهواجس عن اعداد المعدات وتحصين الحصون •
ولاح له بعد لأي أن يفقد جماعة من خاصته يبحثون عنه في الاماكن
المجاورة • وأمرهم أن يستقصوا خبره ما استطاعوا ، ففرقوا في ضواحي

الحصن ، وأوغل بعضهم شرقا الى جوار بليس ، فعثروا بمرقس واقفا ومعه جواد أركاديوس وسيفه ودرعه ، وقد فارقناه هناك ينتظر عودة أركاديوس ، فأمسكوه وسألوه عن أمره وعن أركاديوس . فقال انه لا يعلم شيئا ، فجاءوا به الى الاعيرج ، فلما رآه الاعيرج ومعه جواد ابنه وعدته وسلاحه وثيابه صاح به : « ويلك ! أين أركاديوس ؟ » . وهدده بالقتل أو يصدقه القول ، فلم يزد على قوله انه كان مارا بجوار بليس فرأى الجواد والمدة ، ولا يعرف شيئا عن صاحبهما . فقال له : « ومن أين أتيت بهذا الثوب ؟ انه ثوب أركاديوس . لملك قتلته وأخذت أسلحه ؟ » . قال ذلك وبعث الى المقوقس ، فلما جاء سأله عن الرجل فصرح انه من خدم ابنه أرسطوليس ، وسأله فأصر على الانكار ، ولكنهم رجحوا الشبهة عليه ، وارتابوا في أمره ، ولا سيما عند رؤيتهم سيف أركاديوس ملوثا بالدم وكان هذا على أثر مقتل خاطف مارية ليلا . فاشتد غضب الاعيرج ، وتراكت عليه الظنون ، وقال للمقوقس : « لا أعرف قاتل ولدي الا منك ، فان مرقس هذا من رجالك ، وقد وجدنا جواد ابني وسلاحه وثيابه معه ، فأنت مطالب بدمه ، واذا كان قد قتله فدم الاقباط كلهم لا يكفيني دية له » . فعجب المقوقس لذلك الحادث الغريب ، واستأذن الاعيرج في استجواب الشاب ، فضلا به هو وأرسطوليس ، وبذلا الجهد في استنطاقه فلم يفيدا منه شيئا عن أركاديوس ، فهدداه بالقتل فقال : « اقتلاني أو فافعل بي ما شئتما » .

فأمسكه أرسطوليس وقال له : « أما أرسلتك بكتاب البطريك الى أبي ؟ فقص علينا ما فعلت بعد ذلك » . فحكى لهما من الحكاية ما لا يلقي شبهة على أركاديوس ، وقد اعترم أن يحافظ على سر أركاديوس جهده . ولو آل الامر الى قتله ، لأنه كان عالما خوفه من أبيه اذا علم

بما بينه وبين أرمانيوس : وكان يشعر بفضل أركادوس عليه . فأبت عليه شهامته الا الانكار خوف الايقاع به ، فبقي مصرا . وعبثا حاول المقوقس وأرسطوليس استجوابه .

وأخيرا قال له المقوقس : « اعلم يا مرقس انك بانكارك هذا تجر ويلا عاما على الاقباط كلهم . وأنت تعلم أمرنا مع هؤلاء الروم ، وما بيننا وبينهم من الضغائن ، ونحن لا نكاد نستطيع دفع الشبهة ، فاذا كنت أنت القاتل فقل وعلينا انقاذك من القصاص ، واذا كنت تعرف القاتل فبح ونج نفسك ونجنا ؟ »

فقال مرقس : « لا أعرف شيئا عنه ، ولا أعلم أن هذا الجواد وتلك الثياب له ، ولكنني لا أرى ما يدعوكم الى الظن بأنه قتل » .
فقال المقوقس : « وما أدراك أنه لم يقتل ؟ وكيف يكون حيا وتسلب منه ثيابه ودروعه ؟ » .

قال : « لا أعلم ، ولكنني أقول أنه لم يقتل » .
قال : « وهل أنت واثق من أنه لم يقتل » .
قال : « نعم اني واثق من ذلك ، وأطلب اليك أن لا تلج في السؤال الى ما وراء هذا الحد ، فاني لا أجيبك ولو قطعت رأسي » .
فقال المقوقس : « كيف تقول انك لا تعلم عنه شيئا ، ثم تقول انك واثق من حياته ؟ » .

قال : « قلت لك يا سيدي اني لا أجيب عن سؤال آخر ولو قطعت رأسي ، وهذه هي حياتي بين يديك فافعل ما تشاء » .
فأمر به فأخرجوه مغلولوا الى المخفر ، وانفرد المقوقس بابنه فقال :
« ما قولك يا أرسطوليس ؟ » .

قال : « أرى في الامر سرا لا يعلمه الا الله ، ويلوح أن مرقس آل على نفسه ليكتمن السر ، ولو كان هناك فائدة من قتله لقتلناه ، ولكن

قتله يزيد المشكلة تعقيدا ، فلنجبسه الى حين . وما دام قد أكد أن
 أركادايوس حي ، فلنتعهد للاعيرج بأننا مطالبون بدم ابنه أو نجده » .
 وفيما هما في الحديث اذ جاءهما رسول الاعيرج يدعوهما اليه ،
 فذهبا فرأياه يتقد غيظا ، فلما دخلا صاح وهو لا يدري ماذا
 يقول : « اعلم يا ابن قرقت (لقب المقوقس) انني لا أطلب دم ابني الا
 منك ، والقطرة الواحدة منه تساوي أهل مصر جميعا » .
 فجعل المقوقس يهديء من غضبه ويقول : « لا تعجل بالامر . فان
 الرجل لا يحزم بسوته . وأنا الكفيل لك بحياة أركادايوس » .
 واما بين يديك : لا نخرج من الحصن الا عند عودته سالما . وما
 أدرانا ؟ فلعله عند العرب ؟ أو لعله غائب في مهمة ؟ على اني لن أفتأ
 استدريج الرجل حتى نعلم منه الحقيقة ، والفرج يأتي من حيث لا
 ندري »

ففكر الاعيرج برهة ثم نظر الى المقوقس : « اعلم أيها الحاكم اني
 ملق تبعة فقد ابني عليك وعلى ابنك ، وكفأكما خداعا ، وأقسم بشرف
 الروم ورأس الامبراطور هرقل لأمزجن دماءكم بمياه النيل اذا لم تأتوا
 بولدي أركادايوس حيا » .

فاضطرب المقوقس ، وخشي العاقبة ، لعلمه أنه حقا يخادع الروم ؛
 وأسر لنفسه قائلا : « ان العرب لا يلبثون أن يأتوا ظافرين لا محالة .
 فاذا غلبوا يرفعون عنا هذه التبعة . انسا الحيلة في اقناع الاعيرج
 بالصبر » . ثم خاطب الاعيرج قائلا : « اني أشاركك القلق على أركادايوس
 وان ضياعه ليعز علينا جميعا ، لانه من نخبة رجالنا ، بل هو عندنا
 في حربنا مع هؤلاء العرب ، وهذا فضلا عن أننا في حال لا تأذن لنا
 بالانقسام فيما بيننا ، ولا خفي الا سيظهر ، وقد قلت لك اننا مطالبون

بدمه ، فاصبر ان الله مع الصابرين » . فقال : « سأصبر بضعة أيام ، وأتينا في الحصن لا تخرجان منه ، فيثا العيون والارصاد للبحث عنه » . ثم تركهما وخرج الى الحصون ، وأوصى قواده أن يمنعوا المقوقس وابنه من الخروج مهما يكن السبب .

أما مرقس فلبث في سجنه يفكر في حاله وقد تحير في أمره ، لا يدري أيبقى على الكتمان فيعرض نفسه للخطر ، أم ييوح بحقيقة الحال فيعرض أركاديوس لغضب أبيه ؟ وفيما هو في ذلك اذ جاءه أرسطوليس وعلى وجه أمارات الكآبة ، فلما رآه مرقس ازداد بلباله ، وشعر ان كتماناه هو السبب في هذه المصائب . فقال أرسطوليس : « أهكذا فعلت بنا يا مرقس ؟ » .

قال : « وماذا فعلت يا سيدي ؟ » . قال : « بينما أنت تؤكد لنا بقاء أركاديوس حيا ، اذا بك تكتم عنا حقيقة حاله . والاعرج مصر على طلب ابنه منا ، وقد اتهمنا بقتله ، وأنت تعلم أمرنا مع هؤلاء الروم ، وقد بذلنا الجهد حتى لا تظهر لهم دخيلتنا ، أفتفتح هذا الباب للإيقاع بنا ؟ » .

ففكر مرقس برهة ثم قال : « وكيف يتهكم بقتله وقد خرج وأنتم لا تعلمون ؟ وما شأنكم أنتم وشأني ؟ » . قال : « ومن يصدق كلامنا هذا ، والاعرج لو عرض شكواه هذه على ديوان القسطنطينية لصادف أذنا صاغية ، ومعدات العاقبة وبالا علينا » .

فصمت مرقس قليلا ثم قال : « وما رأيك اذا جاءهم كتاب منه مهور يخاتمهم ينبئهم بأنه على قيد الحياة ؟ » . فقال أرسطوليس : « ومن أين لنا ذلك ؟ » . قال : « هب أنه جاءهم مثل هذا الكتاب ، فهل يكفون عن اتهامكم ؟ » .

قال : « لا شك انهم يكفون ، ولكن أنى لنا هذا ؟ » • قال :

« اذا أذتم لي بالخروج من الحصن أتيتكم بالكتاب » •

فمجب أرسطوليس لهذا السر الغريب ، ولم يفهم كيف يستطيع

مرقس هذا الامر • وكيف يقوله كأنه واثق من عمله ؟

فقال : « أتستطيع هذا حقا يا مرقس ؟ » •

فقال : « نعم يا سيدي ، على أن لا تسألوني كيف آتي بالكتاب • ولا

تقولوا للاعيرج اني ذهبت لآتي به ، بل قولوا اني ذاهب للبحث عنه

أسوة بما يفعل الآخرون » •

فبهت أرسطوليس ثم قال : « مهلا حتى أطلع أبي على ما تقول » •

وخرج الى أبيه فاذا هو مبجل الفكر لا يستطيع الكلام لفرط ما

أنم به ، فلما دخل عليه حياه فقال له : « ما وراءك يا أرسطوليس ؟ » •

فقص عليه الخبر •

فقال : « ما بال هذا الرجل يعرض علينا من المعجزات أنواعا ؟

ولماذا هذا التكتم ؟ ان في المسألة سرا عميقا ، ولكنني أخاف يا

أرسطوليس أن يتخذ خروجه من الحصن ذريعة للفرار ، ومن يضمن اننا

عودته ؟ » •

قال : « لا حيلة لنا فيه ، وهو مصر على كتمان أمره ، فأرى أن

تحمل التبعة في ارساله لعله ينفعنا ، أما بقاؤه مسجوناً فلا نفع لنا

منه ، وهب أنه فر فالتبعة علينا لا تزيد ولا تنقص ! لأن غاية الامر

أن تتمم بقتل أركاديوس ، وهذا واقع فعلا • هذا واني أستشف من كلام

مرقس الصديق ، ولا أظنه يخوننا ، وقد عرفناه من زمن ، وعلمنا بلاءه

في خدمتنا » • فأطرق المقوقس برهة ثم قال : « أترى أن ثق به ونستأذن

الاعيرج في إرساله ؟ » •

قال : « هذا ما أراه ، فلمله يأتينا بالخبر اليقين ، أو لعل أركاديوس

يعود من تلقاء نفسه » .

ثم ذهب الى الاعيرج وقال له : « ان مرقس هذا أقدر الناس على انبحث عن ابنك ، فلنرسله عسى أن يقف على كنه الامر » .

فقال : « وكيف نطلق سراحه وهو الذي قتله أو علم بقتله ، وقد قبضنا عليه وجواد أركاديوس وعدته وثيابه معه ؟ » .

فقال المقوقس : « يلوح لي أن الرجل بريء من القتل ، ونحن نعرفه منذ أمد بعيد ، ولا نرا محلا للتهمة : فأرى أن نرسله في هذه المهمة كما أرسلنا سواه ، فلمله يعود بالخبر اليقين » .

فقال الاعيرج : « فليذهب » عليكما عبء ما يفعل » .
فأذعنا وجاء الى مرقس فأطلقا سراحه ، وأوصياه بالعودة على عجل ، فودعهما وخرج .

* * *

أما زياد فانه لما افتقد أركاديوس في محبسه ولم يجده ، ولم يعثر عليه في ناحية من نواحي المعسكر ، عاد الى بلبس ليطلع أرمأنوسة على الامر . وكانت أرمأنوسة في قصرها ومعها بربارة والخدم ، وهي على مثل الجمر في انتظار زياد . فلما أبطأ عليها أخذت تندب سوء حظها ، وتقول : « يا بربارة ، ويلي قتلوا أركاديوس ! أين أنت يا أركاديوس ؟ آه من جبروت الدهر ! » . وفيما هي في ذلك اذ سمعت غوغاء في الدار ، وجاء خادم يقول لها أن رجلا رومانيا بالباب ، فخرجت بربارة اليه فاذا به أركاديوس يقرع الباب وعلى وجهه اشارة الرعب ، وعلى زنده آثار الدم ، فلما رآها صاح بها : « أين أرمأنوسة ؟ هل هي في خير ؟ » .

قالت : « نعم في خير » ، فدخل مسرعا وهو لا يكاد يصدق انه

يراهما على قيد الحياة ، فلما وقع ظره عليها لم يزد على قوله :
« الحمد لله • أنت حية » فدهشت وقالت : « ما خبرك يا حبيبي ؟ وكيف

أتيت ؟ هل رأيت زيادا ؟ » •

قال : « لا ، لم أره » •

قالت : « كيف نجوت من الأسر ؟ » •

قال : « نجوت منه بالرغم من الحبال التي شدوا بها وثاقي »
وما ساعدني على تمزيقها الا خوفاً عليك ، فقد كنت في الخيمة بعد ذهاب
زياد بالصليب الذي أرسلته اليك ، فسمعت قرع الطبول وفتح الابواب
والعرب يهيمون بالهجوم على بليس ، فوقفت أرى ما يكون من أمرهم ،
فاذا بهم قد تسلقوا الاسوار ودخلوا المدينة ، فأيقنت أنهم سيصيبونك
بسوء ، فبعت عواطفي واتقد دمي حتى غاب رشدي ، وهممت بالمجيء
للدفاع عنك عسى أن أموت دونك أو أنقذك ، فحاولت قطع الوثاق
فلم أستطع ، لأنه كان أماسا مجدولة من الشعر ، فأصبحت كالمجنون ،
وأخيرا أسندت ظهري الى عمود الخيمة ، وجعلت أحك بالجبل به ذهابا
وابابا ، فشرعت بنتوء حاد بارز من العمود فجعلت أمر الجبل عليه كأنني
أحزه به حزا ، وقد شعرت بقوة غريبة ، فكنت أحك ظهري بالعمود
صعودا ونزولا ، وأحاول التملص من الوثاق وأضغط ذراعي بعنف • حتى
غرز الجبل في لحمي وأنا لا أشعر ، فانقطع الجبل بعون الله ، فأسرعت
الى الاسوار لا ألوي على شيء ، وجئت مسرعا وأنا لا أكاد أصدق أنني
ألقاك • فالحمد لله على سلامتك »

فأعجبت أرمانونسة بشهامته ، وتناثرت الدموع من عينيها لعظم
تأثرها ، وقالت : « حماك الله من كل سوء ، أنا في خير » وقد من الله
علينا باللقاء »

فقال : « لمن هذا العلم الذي على باب القصر ، قالت هو علم عربي

بعثوه إلينا لحمايتنا من السلب ، وكأني بهم لا يريدون بنا سوءا » .
ولمسل له جرحه فاذا هو لطيف تتج عن شدة العنف في محاولته قطع
النواقي ، فضمده ولبس الثياب . وأطل من النافذة فرأى العرب قد
أمنوا في المدينة قتلا ونهباً ، فثارت حيته الرومانية . وجعل يملل
ويحزن على ما أصابه العرب منهم فقالت أرمافوسة : « ما بالك
تملل ؟ » . قال : « أتملل أسفا على ما حل بجندنا ، ألا ترين العرب
ينهبون المدينة ويقتلون حاميتنا ؟ مهلا سوف يلحقون منا في حصن بابل
ما يردهم على أعقابهم » .

ولم تشأ أرمافوسة أن تخبره بما دار بين أييها وبين العرب من
الاحذ والمطأخوفا من الفضيحة عند الروم . فقالت : « حماك الله
يا أركاديوس من نوائب الزمان ، فلو كان في جند الروم مثلك لما مكن
للعرب في هذه البلاد ، فاجلس الآن واسترح لترى ما يأتي به الغد » .
قال : « آه يا أرمافوسة ! لا أستطيع البقاء على هذا الذل ، ولا
أطيق أن أرى الروم يذبحون ذبح الاغنام ، وان نفسي تحدثني بأن
أقتلد الحسام وأهجم على العرب لأروي غليلي من دمائهم » .
قالت : « لا تلق بنفسك الى التهلكة ، وسوف تلقاهم في الحصن ،
وما لنا وللحرب يا أركاديوس ، فأنا لا أطيق فراقك » .

فعاد صوابه اليه وقال : « أما رأيت مرقس يا أرمافوسة ؟ » .
نالت : « لا لم أره » ولماذا ؟ وكيف وقعت في السر ؟ قل لي » .
قال : « خرجت من عندك الى المكان الذي واعدت مرقس فيه ،
فلم أقف له على أثر ، وفيما أنا أبحث عنه وصل العرب بخيولهم وقبضوا
علي ، فوالله لو كنت على ظهر جوادي ما استطاعوا الي سبيلا » . ثم
تذكر جواده وثيابه فقال : « ولا أدري كيف ذهب مرقس بثيابه
والجواد » وأخشى أن يكون رجالنا قد قبضوا عليه وساقوه الى

الحصن وانهموه بقتلي ، وربما قتلوه ظنا منهم انه قتلني » ،
 فقلقت أرمأنوسة على مرقس وقالت : « مسكين مرقس ، انه لا
 يستحق ذلك ، وعسى أن يكون في مأمن ، وسنظر في أمره . أما أنت
 فابق هنا ريثما ينجلي الامر » .

فتهد تنهدا عميقا وقال : « أنعلمين انه لا أشهى الى قلبي من
 جوارك ، ولكن النجدة والمروءة يقتضيان اللحاق بالجد ، وهم في
 حالة حربهم مع العرب واني لا أدري ماذا أبدي لوالدي عندما أعود
 ولا أظنه يصدق قولتي مهما بالفت في الاعتذار » .

قالت : « غدا نرى ما يكون » . وقضوا بقية اليوم وباب القصر
 موصد .

وباتوا ليلتهم ■ فلما جاء الصباح أقبل بعض رجال العرب
 يقودون رجلا موثقا ، فلما دخلوا به القصر اذا به مرقس ، فسألوا
 أرمأنوسة عنه ، لأنهم قبضوا عليه عند الاسوار فادعى أنه من خدم
 السيدة أرمأنوسة . فقالت : « نعم هو من خدمني » . ورحبوا به ،
 ولما رأى أركاديوس فرح فرحا عظيما ، وقص عليه قصته ، وقال له
 ان المقوقس وابنه متهمان بقتله ، وأنه اذا لم يجعل بالمسير سعى الاعيرج
 وسجنهما وقد يقتلها .

فصاحت أرمأنوسة : « ويلاه يا أركاديوس ان أبي وأخي في خطر
 الهلاك وحياتهما في يدك » .

فقال : « لا تخافي يا أرمأنوسة على انقاذهما والذود عن كل من
 تحبين . لا تخافي ، ولولا خوفي عليك لأسرعت الى الحصن ، ودفعت هذه
 التهمة عنهما ، انما يجب أن أبقى هنا لأرى ما يؤول اليه أمرك » .

قالت : « أنا لا أريد أن تذهب الى الحصن الآن ، ولا أن تحضر
 المعارك ، ولكنني لا أريد أن يهلك أبي وأخي ، فان الروم ظلمة ، لم يخرج

منهم شهم غير أركاديوس » •

فقال أركاديوس لمرقس : « وكيف حالهم في الحصن ؟ » • قال :
« فارقت أباك قلقا عليك ، وقد بث العيون والارصاد ، وبعث الرسل
للبحث عنك ، ولما لم يعثروا عليك شدد النكير على سيدي المقوقس
وابنه أرسطوليس ، وهو ينوي الايقاع بها اذا لم يعلم خبرك • وأنا
الآن أعترف لك اني جئت على نية أن أزور كتابا عن لسانك وأختمه
بخاتمك الذي عرفت منك أنه مع سيدتي أرمانوسة ، وأذهب بالكتاب
الى أيك بأنك حي وأنك آت عما قليل » •

فقال أركاديوس : « أصبت يا مرقس ، ونعم الرأي رأيك • الي
بقطعة من البردى لأكتب الكتاب » • فلم يجد شيئا من البردى هناك
فقطع قطعة من قماش كان غطاء للفراش ، وهو نسيج كتاني يعرف بالقباطي
من صنع مصر ، كانوا يستعملونه للكتابة ، وعليه كتبت المعلقات السبع
وعلقت في الكعبة فكتب الى أبيه يقول ما معناه :

« أبي العزيز المحترم

« لا ألومكم على قلقكم علي لخروجي من الحصن وأتسم لا
تعلمون ، وسأطلعكم على ما حملني على ذلك فيما بعد • وأما الآن
فاني أكتب اليكم لتطمئن قلوبكم فأنا حي مقيم ببليس ، بعد أن أسرني
العرب فنجوت من الأسر ، وعرفت من أحوال هؤلاء العرب ما سألصه
عليكم ، وفيه قوة لنا • ولولا جراح أصابتنني في ذراعي لجئت اليكم بدل
هذا الكتاب ، ولكنني سأسرع حالما أستطيع الركوب • وذلك قريبا ان
شاء الله ••

« كتبه ولدكم أركاديوس »

فحمل مرقس الكتاب ، وتقدم الى أرمانوسة وسجد أمامها وقال :

« أرجو منك يا سيدتي أن تشفقي على عبدتك مارية » •

قالت : « وما خبرها ؟ قال : « مررت بالقرية في طريقي اليك وأردت الدخول اليها فأمسكني العرب وجاءوا بي اليك » وأخشى أن يكونوا قد أصابوا مارية بسوء ، فأستحلفك بسيدي أركاديوس هذا أن تنظري في أمر انقاذها » •

فأجابه أركاديوس قائلاً : « ان لك علينا أفضالا تقضي بأن نذود عنك وعن مارية جهدنا ، لا تخف ، كن براحة بال » •

قال : « ولكنني لا أستطيع السفر قبل أن أعلم ما آل اليه أمرها في هذه الحرب » •

فالتفت أرمأنوسة الى بربرة كأنها تستشيرها ، فقالت : « الرأي يا سيدتي أن نبعث الى الامير عمرو فنخبره أن أهل مارية ممن ينتسبون الينا ، ونأتي بهم جميعا ليكونوا معنا » • فقالت : « أحسنت يا بربرة ومن يذهب ؟ » قالت : « زياد وهو لا يزال هنا » •

ثم خرجت فأتت به ، فلما رأى مرقس سلم عليه وصافحه وسأله عن أمره ، فقصت بربرة القصة عليه ، فقال : « لا تخف يا مرقس ، فإن أهلكم في ذمتي وها أنذا ذاهب لأظفر في شأنهم » • وخرج •

ولبت الجميع في انتظاره ، ثم دق باب القصر وعلت الضوضاء واذا بالخدم يقولون ان أمير العرب قد جاء يريد الدخول ، فقالت أرمأنوسة لأركاديوس : « الأولى أن تختبئ لئلا يراك فيعرفك » فاختبئ في بعض غرف القصر ، وخرجت بربرة لاستقبال الامير ، وهي أول مرة شاهدت فيها مثل هذا الرجل ، فرأته كما تقدم وصفه ، وقد أحاط به جاعة من قواده ، وفي مقدمتهم وردان المترجم ، فأسرت بربرة بهم الى بهو كبير جلسوا فيه • فقال وردان : « ان الامير جاء بنفسه ليطمئن أرمأنوسة بالآ خوف عليها ولا على أحد ممن في منزلها » • فقالت بربرة : « اتنا

نمجز أيها الأمير عن إيفاء الشكر حقه فقد أمتنا وجنبنا الحرب
وأوزارها »

ثم خرجت وعادت بسيدتها ، وقد لبست أحسن ما يكون من الثياب
الفاخرة : وعلا وجهها احمرار الحياء فزادها جلالا ، فجلبت وخاطبت
عمروا قائلة : « ان ما أوليتنا من الفضل لا يسعنا القيام بشكره » .

فأجابها عمرو وهو مطرق : « ان هذا في سليقتنا وقد عامدنا أباك
على حمايتك . وساء لي كثيرا ما ارتكبه ذلك الخائن يوقتنا من خداعك ،
ولو أدر كنا له لعاقبناه شر عقاب . أما الآن فاعلمي أنك في ذمتنا ، وأنا
لا نفدر في أعمالنا ، فإذا شئت البقاء هنا بقيت ، وإذا أردت المسير الى
أيك بعثنا معك من يوصلك الى حيث تريد ، فاختاري » .
فأطرقت أرمانوسة ثم قالت : « أؤثر الذهاب الى أبي اذا أذن
الأمير » .

قال : « لك ذلك » . وكان وردان يترجم بينهما ، فقال له عمرو :
« هبى لها من يكون في ركبها الى حيث تريد ، وكن أنت حارسا
لهم » .

قال : « سمعا وطاعة » .

وأرادت بربارة أن تقدم لضيوفها شيئا من الخمر على عاداتهم ، فقال
لها وردان : « احذري أن تفعلي ذلك لأن الخمر محرم في ديننا ، وليس
عليكم الا التأهب للمسير ، وفي صباح الغد نبعث اليكم رجالا يسرون
في حراستكم » .

فشكرته . ثم قام عمرو مودعا وخرج . وخفت أرمانوسة الى
أركاديوس وأخبرته بما كان فقال : « اذن أسير أنا أيضا معكم الى
قرب الحصن ، ثم انهدر وأدخله وحدي ، وأنت تذهبن الى منف » .
وعند الظهيرة جاء زياد ومعه مارية ووالدها ، فطار مرقر .

فرحاً « وأوصى أرماتوسة بهم خيراً ، وقال لها : « فليذهبوا معكم
الى منف لأنهم يكونون في مأمن هناك » فوعده خيراً ثم ودعهم وخرج
يحصل كتاب أركاديوس الى أبيه •

* * *

لبث أهل الحصن في انتظار مرقس « ثم سمعوا بسقوط بليس ،
فتكدر المقوقس كثيراً وخاف على ابنته ، ولكنه كان مطمئناً لما لديه
من العهود . وفي اليوم التالي وصل مرقس بكتاب أركاديوس ، فدفعه
الى أبيه فقرأه . واطمأن قلبه على ابنه ، ولكنه بقي في حيرة لا يدري
لخروجه سبباً • ولما خلا مرقس بالمقوقس أطلعه على ما أتاه عمرو
من الجميل مع ابنته وأنها ستكون في منف بعد قليل ، فبعث بعض رجاله
لاستقبالها وتشييعها الى قصرها •

ولبث الاعرج يوماً آخر في انتظار أركاديوس حتى جاء ودخل
عليه فقبله ورحب به وسأله عن سبب غيابه فقال : « أنت تعلم يا سيدي
غيرتي على شرف الروم ، وقد رأيت الجواسيس يأتوننا بالأخبار
المتناقضة ، فلم نفهم حقيقة قوة العرب ، فحدثني نفسي أن أذهب
لاستطلاع حالهم ، وأنا أعلم أنك لا تأذن لي خوفاً علي ، فخرجت على
حين غفلة من الحراس ، على ألا اغيب الا يوماً واحداً واثقا من اني
اذا عدت وأخبرتكم بما استطلعتة تعفو عن عملي •

« فلما وصلت الى جوار بليس خشيت أن يكون جوادي ولباسي
الفاخر حائلين بيني وبين ما أريد » فرأيت رجلاً من جنودنا خارج المدينة ،
فتبادلا الثياب وتركنا جوادي عنده ، وسرت الى معسكر العرب ،
وكانوا مخيمين أمام المدينة ، وما كدت أن أخرج من المعسكر حتى
قبضوا علي وسجنوني ، وبقيت الى أن أقتحموا بليس ، ففأفلتهم

وقطعت الوثائق ، ودخلت المدينة وعلمت ما استطعت علمه ، فإذا عددهم لا يزيد على أربعة آلاف مقاتل ، ولكنهم ، والحق يقال ، يهجمون على الاسوار هجوم الاسود ، ويأرون كأنهم ذاهبون الى مغنم . ولكننا بحول الله سنبدد شلهم أمام هذا الحصن . فان بليس ليست مدينة حرب » .

فقال الاعرج : « بورك فيك ، وهم به وقبله وقال : » انها نجاعة فائقة الحد يا ولدي لأنك عرضت نفسك للخطر الشديد » . فقال : « ولا ينجح الا المخاطر المجازف » .

فقال : « ولكنني رأيت على سيفك أثر الدماء ! » . فأجاب في غير اكتراث : « لعله كان ملوثا من قبل وهذه هي جلية الخبر ، وما علينا الا الاستعداد والتحصين ، فان العرب لا يلبثون أن يقدموا علينا » . فأمر الاعرج بالتأهب للقاء العرب . وبعث الى كبار قواده . وخطب فيهم حائثا على الثبات والدفاع فاسبا ما لقيه العرب من النصر في طريقهم الى الحصن الى ضعف جنود الفرما وبليس ، ثم فرقهم في القلاع على السور ، وأوصى ابنه بتعهدهم وتنفذ الاسوار . فبعث أركاديوس رجالا الى خارج الحصن يتفقدون الخندق المحيط به ، وأوصاهم أن ييذروا فيه حسك الحديد بذرا ، أي أن يفرسوا الحسك في قاعه وجدراته . فاذا هجم العرب على الاسوار حال لخندق بينهم وبينه ، فاذا نزلوا الخندق دخل الحسك في أقدامهم ، وأكثرهم عراة فتعوق تقدمهم .

أما أرمانونسة فانها وصلت الى ضفة النيل بموكبها ، وكان أبوها وأخوها قد علما بقدموها فخرجوا لملاقاتها ، ورجا بها وسألاها عن العرب ، فروت ما حدث لها معهم ، وأثنت على شهامة عمرو فاستبشروا بنجاح حيلتهما . وكانت القوارب معدة لاستقبالها فركبت ومن معها

الى منف . وأجالت نظرها في الحصن لعلها ترى أركاديوس فتتزوّد منه بنظرة . فإذا هو يرقبها من أعلى السور عند كنيسة المعلقة ، فجرى قاربها وهي تسترق النظر اليه كأنها تودعه وتدعو له بالسلامة ، وقلبها يخفق وجلا لئلا يصيبه سوء ، فقد خيل اليها لما عاينته من شجاعة العرب وبطشهم انه في خطر ، فتناثرت الدموع من عينيها . وكان القارب فد جرى بعيدا ، وبربارة معها تنظر اليها وتراقب حركاتها ، فأدركت ما هي فيه فخطبتها قائلة : « سلمي أمرك الى الله ، وهو يحرسك يا مولاتي » .

وكانت مارية وأهلها قد ركبوا قارباً آخر ، وسارت القوارب تسخر عباب الماء ، والوقت أصيل ، فلما أشرفوا على ضواحي منف تذكرت أرمانونسة ما كان من أمرها مع أركاديوس وقسطنطين ، وشكرت الله على نجاتها . ولكنها ما زالت توجس خوفاً على حبيبها ، فأدركت بربرة ذلك فقالت لها : « ما لي أراك غارقة في بحار الهواجس ؟ بقي بالله وتوكلي عليه ، فإن الذي أتقذك وأتقذ أركاديوس من مخالف الموت حتى الآن سيحرسكما الى يوم اللقاء ، وهو قريب ان شاء الله » . فلما دنوا من شاطئ منف ، ورسا القارب عند الرصيف ، تذكرت أرمانونسة تلك الليلة المقمرة التي باحت فيها بسرّها لبربرة ، فانقبضت نفسها وغلب عليها الجزع ، فطفرت الدموع من عينيها ، وكان الخدم والحاشية في انتظارها على الرصيف ، فاستقبلوها بالأزهار والرياحين ، وجاءت الجوّاري واستقبلنها باسمات الشجور ، يحمدن الله على سلامتها ، وكن قد سمعن بما أحدث بها من الخطر في بليس ، ورافقنها من الرصيف الى الحديقة . كل ذلك وهي في شغل عنهم جميعا بهواجسها وخفقان قلبها ، وما صدقت أن وصلت الى قصرها حتى دخلت غرفتها ، وكانت بربرة قد تركتها وذهبت لتعد مكانا لنزول

خطيبة مرقس وأهلها ، وأوصت الخدم بهم خيرا . ولم تكن مارية المسكينة أقل قلقا من أرمانونسة لأجل مرقس . ثم عادت بربارة الى غرفة سيدتها ، وكانت الغرفة مزينة بأنواع الرياحين والأثاث الثمين . فرأتها قد استلقت على السرير ، وأوغلت في البكاء والنحيب ، فأخذت تخفف عنها وتؤملها بالفرج القريب .

فتنهدت أرمانونسة وقد خنقتها العبرات ، ولما سكن روعها قالت : « دعيني يا بربارة من الآمال الباطلة ، فنحن قد عدنا الى حيث كنا ، وعادت مخاوفنا الينا ، وكان ما مر بي في أثناء هذه الغيبة أضغاث أحلام » . فأمسكت بربارة يدها ، وجلست الى جانبها وهي تبسم لتخفف قلقها وقالت : « كيف تقولين انها أضغاث أحلام ، وقد نلت ما كنت تتسنى ؟ ألم تكوني في ريب من محبة أركاديوس . وقد رأيته وكلسته غير مرة ، وتبادلتنا عربون المحبة . ووثقت بحبه لك ؟ ألم يكفك ما رأيته من غيرته عليك وشغفه بك ؟ ألم تكوني في ريب من أمر قسطنطين ، وقد تحققت الآن نبأتك من قبضته ؟ أليس هذا بالشيء الكافي الآن ؟ فكيف تقولين انها أضغاث أحلام ؟ » .

فاجابتها أرمانونسة : « أجل : أنها أضغاث أحلام لأنني قد عدت الى هذه الغرفة كما خرجت منها ؟ ولم أنل شيئا غير الآمال ، وما أحسب ما مر بي من رؤية أركاديوس وسماع كلامه الا حلما مر وزال » . بل أراني أكثر قلقا عليه من ذي قبل ، فقد كنت في ريب من حبه ، ولم أكن أشعر بشئ ما أنا فيه من القلق عليه . فهل تجود لي الأيام به ، وأرى ذلك الوجه الباسم ، وتينك العينين البراققتين ؟ » . وشرقت بدموعها ، فأخذت بربارة تخفف عنها وتشغلها بالآمال والوعود ، وكانت الشمس قد مالت الى المغرب ، فأخذت يدها وخرجت بها الى شرفة القصر ، فأطلت على الحديقة « وبربارة تمنى بالأحاديث ، وتذكرها

بما مر بها لتصرفها عن هواجسها ، وهي صامئة تنظر الى البر الثاني من النبل تستأنس بقربه من الحصن ، فأمرت بربارة الخدم فجاءوا بالوسائد وفرشوها في الشرفة ، وجلستا تارة تتشاكيان . وطورا تتأملان ، وأرمانوسة لا يرضيها الا الحديث عن أركادايوس ، وربارة تلهيها تارة به وطورا بسواه .

حديثه ، أو حديث عنه يطربني هذا اذا غاب ، أو ذباك ان حضرا كلاهما حسن عندي أسر به لكن أحلاهما ما وافق النظرا

* * *

أما أركادايوس فلبث ينظر الى أرمانوسة حتى توارى قاربها عن نظره ، فوقف برهة كاسف البال يتأمل فيسا يتهده من الخطر ، وما يحول بينه وبين حبيبته من العوائق ، وبقي برهة على هذه الحالة حتى دعاه أحد جنود الحامية أن يذهب الى أبيه لأمر يريده فيه ، فسار حتى دخل على أبيه ، فإذا هو جالس وحوله أرباب مجلسه يتداولون فيسا هم فيه . فلما دخل حبي والده وجلس الى جانبه ، فأنس والده شيئا من الارتباك في وجهه فابتدعه قائلا : « ما لي أرى أثر الانقباض في وجهك يا أركادايوس ؟ هل داخلك خوف من أمر العرب ؟ » . قال ذلك وهو يتسم كأنه يمازحه .

فاتتبه أركادايوس لحاله ، وأظهر الاستغراب قائلا : « أنت تعلم يا أبتاه أنني لا أخاف الموت ، ولا أحسب للحرب حسابا ، فكيف تقول أنني خائف ؟ وما الذي يخيفني وأنا تحت جناحك ؟ لا سيما أنني رأيت هؤلاء العرب ، وعلمت من ضعفهم وقتلهم ما لا تعلمون ، وأما ما ظننته في من الارتباك فأنما هو شدة اهتمامي بالاستعداد وتهيئة الوسائل لدفع الأعداء ، ولا شك في فوزنا عليهم باذن الله وهمة أبطال الروم » .

وأشار الى الحضور ، فأجابوه جميعا : « أننا بين يديك متفانون في سبيل
الرومان ، ضاربون بسيف جلالة الامبراطور الى آخر نسمة من حياتنا » .
فأثنى الاعيرج على غيرتهم وصرفهم ، فخرجوا يجرون سيوفهم
وطيالسهم ، فلما خلا الاعيرج بابنه أوصد الباب ودعاه الى القرب منه
وقال له : « اطلعني يا أركاديوس على ما خبرته من أمر هؤلاء العرب
وقوتهم مما عاينته وشهدته » ودع الاستخفاف والبسالة جانبا ، وقل
كيف استطاع هؤلاء البدو فتح حصون الفرما وبلبيس مع ما ذكرته من
ضعفهم وقتلتهم ، ونحن نعلم ان حامية بلبيس قوية وحصونها منيعة ؟ » .
فصت أركاديوس برهة يفكر ولم يبد جوابا لعله أن العرب لم
يستطيعوا ما استطاعوه الا بما أعارهم القبط من العون سرا وجهرا ،
وتذكر أمر أرمأنوسة وحباية عسرو لها ، وما لاقته من الحفاوة والاکرام ،
وأيقن أن ذلك لم يكن نتيجة خلق العرب فقط . وحدته نفسه أن يصرح
بما خاخره من الشك ، ولكنه خاف أن يزيد الخرق اتساعا ، فتزداد الهوة
الحائلة بينه وبين أرمأنوسة . وكان أبوه يرقب ارتباكها ، وينظر جوابه
بفارغ الصبر ، فلما أبطأ في الجواب أعاد السؤال قائلا : « مالي أراك
صامتا لا تجيب ؟ افصح وقل الصدق ولو كان علينا ، فان ذلك أول
معدات الدفاع ، لأننا اذا عرفنا قوة عدونا وثقل وطأته عرفنا السبيل
الصواب الى دفعه » .

فلم يدر أركاديوس بم يجب ؟ وخاف أن يسيء أبوه الظن به فتبسم
وأظهر الاستخفاف وقال : « لم يكن سكوتي لشيء مما خاخر ذهنك ،
ولكنني كنت أفكر في السبب الحقيقي فلم أهتد اليه ، على اني أعلم أن
الحرب سجال يوم لنا ويوم علينا ، فلا عجب اذا انتصر العرب على بعض
حصوننا الضعيفة ، فلعل الله قدر أن يكون دفعهم على أيدينا فننال الفخر
دون جند الروم بمصر » .

فقال الاعرج : « بورك فيك يا ولداه ، فأوص رجالك بالثبات ، وشجعهم . وشقق مراميهم وأسلحتهم . والاتكال على الله . ولا تنس الجسر بين الحصن والجزيرة فاننا كنا قد نزعناه ثم أعدناه لحاجة اقتضت اعادته ، فأمر بنزعه لئلا يكون للعرب سبيلا للوصول الى منف . وكذلك الجسر بين الجزيرة والبر الغربي ، اعمل على اعادته لكي تتمكن من جلب المؤونة والذخيرة من منف عند الحاجة . وبث العيون في جهات بليس لينبئونا بقدوم العرب . فنكون على بينة من أمر مسيرهم ، فلا يأتوقنا على غرة . وأوصيك وصية أخرى أرجو ألا تنساها ولا أثنك تجهلها ، وهي أن تحذر المقوتس ورجاله . فانهم يبالون العرب علينا » .

ثم افترقا ، وسار أركاديوس الى قلعته . فأوصى الجند بنزع الجسر . واعادة الجسر الآخر الموصل الى منف . وبعث الجواسيس الى بليس . وأوصاهم باليقظة ليراقبوا حركات العرب . فاذا علموا بسيرهم نحو الحصن عادوا اليه بالخير . ثم تحول الى غرفته ، وكان الليل قد أسدل نقابه ، فنزع خوذته وسلاحه وجلس الى النافذة المطلة على النيل . وقد هدا الجو ، وأوت الطيور الى أوكارها ، وهب النسيم عليلا . وجرى النيل بازاء الحصن هادئا . وأطل البدر من وراء الافق فأرسل أشعته على سطح الماء تتلأأ تتلأأ ضعيفا . فأرسل نظره الى جهة منف ، حيث تقيم أرمانوسة ، وتصور حاله معها وما هو فيه ، فغلبت عليه الهواجس . وتراكت عليه الهموم ، فانقبضت نفسه ، وأظلمت الدنيا في عينيه . وتجير في أمره ، فخليل له أن العرب سيفلبون بسا نالوه من عون القبط . فارتعدت فرائضه ، وثقل عليه عار الانكسار . فقال في نفسه : « اني لأؤثر الموت على الفرار . ولكن أرمانوسة جعلت الحياة عزيزة علي » . ثم عاد فتصور أنهم تغلبوا على العرب وأعادوهم القهقري ، وأخذ يفكر فرأى أن ذلك أيضا لا ينيله بغيته من أرمانوسة ، لما يعلمه مما بين أبويهما من الضغائن

والاحقاد . فلبث يفكر في ذلك حتى شعر بالتعب والنعاس : فذهب الى فراشه ينتظر ما يأتي به القدر . وقضى معظم اليوم الثاني في التأهب . وفي مساء ذلك اليوم جاءهم الجواسيس ينبئونهم باقلاع العرب عن بلبس « وقدمهم نحو الحصن . فهاج الناس وماجوا ، وأخذوا يطلون من المنافذ والمرامي ليشاهدوا العرب قادمين ، فقفوا ليلتهم ساهرين بعدتهم وسلاحهم ، والعرب لم يصلوا . وفي صباح الغد شاهدوا الغبار يتطاير من وراء المقطم ، فتحولوا الى شمالي الحصن يراقبون وصول العرب ، فلما كان الضحى تكاثرت الغبار وبانت من ورائه الاعلام والفرسان والهجاة . ثم وصلت الساقة ، وعسكر الجميع في البقعة التي بين الحصن والمقطم » وكانت كلها بساتين وغياضا لا شيء من العمارة فيها الا بعض الاديار القائمة مبشرة هنا وهناك . فنصبوا خيامهم فيما هو الآن جامع عمرو وما يحيط به . فشاهدهم الروم يضربون خيامهم ، ويتصبون اعلامهم ، وكان أركادايوس في جملة الناظرين ، فتذكر أيام بلبس وما كان من أسره هناك .

أما المقوقس فتظاهر بالاهتمام والرغبة في دفع العرب ، وذهب الى الاعيرج وكله في شأن معدات الدفاع . وكان الاعيرج يكتف ما يعلمه عن المقوقس والعرب ، فأجاب : « اتنا لا نلبث أن نعيدهم على أعقابهم ، وهم انما غرهم ما لا قوه من ضعف حامية بلبس » . فقال المقوقس : « واني لأعجب من فتحهم بلبس وهم في مثل هذا العدد القليل ، فانك لو أشرفت على معسكرهم لرأيتهم شذمة قليلة لا تلبث أن ترتد خاسرة اذا خرج جندنا اليها » . فقال الاعيرج مستهزئا بقول المقوقس الدال على الجهل بضروب الحرب : « ليس من الحزم أن تترك حصننا ونخرج اليهم طالما كانت المؤونة ملء مخازننا وطريقنا الى منف مفتوحة ، ولكننا تركهم وشأنهم

حتى يملوا الانتظار ، فاذا هاجموا الحصن رددناهم بالنبال والحجارة »
 فان الحصن يمتنع على أضعاف أضاعفهم لما تعلم من مناعته » وبخاصة
 بعد حفر الخندق المحيط به ، فان هؤلاء العرب اذا هاجمونا واحتملوا
 نبالنا منهم الخندق من الوصول الى السور ، فاذا نزلوا الخندق انفرست
 أشواك الحديد في أقدامهم وهم خفاة . كل ذلك والنبال تتساقط عليهم
 من مرامي السور »

وقضوا ذلك اليوم في مراقبة العدو » والنظر إلى ملابسهم وخيامهم
 وأعلامهم عن بعد ، لأنها تخالف ما عند الروم .

وكان أركاديوس قد راعه كل ذلك عن قرب ، فوقف الى جانب أبيه ،
 وأطلا على بعض المرامي ، وأخذ أركاديوس يصف لوالده خيام العرب ،
 فدلّه على خيمة عمرو ، وحظيرة الجمال ، وخيام النساء والاولاد ، ومواقع
 الرايات . والاعيرج يعجب ويستغرب لاختلاف ما عندهم عما عند
 العرب ، فلما كان الاصيل رأى أركاديوس رجلا قادما عن بعد ومعه علم
 أبيض يتبعه رجلان آخران ، والكل مشاة ، فعلم من لباسه أنه عربي ،
 فأدرك أنه قادم لشأن من الشؤون فأنبأ والده ، فنادى الرسل من أعلى
 السور ، وأمر بالترجمان فجاء ، فلما دنا الثلاثة من الحصن تقدم أحدهم
 وخاطب الحامية بالقبطية ، بلغة دلت على أنه ليس دخيلا فيها ، فأغناهم عن
 يترجم كلامه . وكان مرقس في جملة الوقوف على السور ، فعرف أن
 المتكلم زياد العربي صاحب يحيى النحوي ، ومعه وردان ورجل آخر لم
 يعرفه ، قالوا أنهم جاءوا بكتاب من أميرهم الى المقوقس . ففتحوا باب
 الحصن وأدخلوهم ، وقد تكأأ الجند لرؤية لباسهم وهيئتهم ، أما هم
 فساروا بأقدام ثابتة كأنهم دخلوا الحصن فاتحين ، فرافقهم بعض الحراس
 حتى وصلوا الى غرفة المقوقس ، وكان جالسا بجانب الاعيرج ، وبجانبه
 ابنه ، وبجانب الاعيرج أركاديوس ، وبين أيديهم أرباب المجلس ،

ومعظمهم من الروم ، فدخل وردان وقدم ملفا مكتوبا بالعربية ، فأمر
المقوقس الترجمان ، فتلاه عليهم واذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عمرو بن العاص أمير جند العرب
القادم لفتح مصر الى المقوقس حاكم مصر . أما بعد فان الله قد كتب لنا
النصر منذ دخلنا هذه الديار ، ففتحنا الفرما وبليس عنوة ، ولا بد لنا من
فتح هذا الحصن ان عنوة وان صلحا ، ولا نبالي بمن يقتل منا في سيل
فتحه ، فان أحدا ينظر ساعة الشهادة ليلقي وجه ربه . وها أنذا أعرض
عليكم واحدة من ثلاث : فأما أن تدخلوا في ديننا فيكون لكم ما لنا
وعليكم ما علينا ، وأما أن تؤدوا الجزية عن يد وأتم صاغرون ، وأما
السيف ، فاختاروا لأنفسكم » .

« كتبه عمرو بن العاص »

* * *

فلما أتم الترجمان تلاوة الكتاب تكدر الاعرج ، واشتد به الغضب ،
ونظر الى المقوقس كأنه يستشير في الجواب . فأمر باخراج الرسل
والاحتفاظ بهم حتى يعودوا بالجواب . وأخذ أهل المجلس يتفاوضون ،
فأظهر المقوقس أن التسليم لا يليق بهم ، وهم لم يغبوا على أمرهم بعد ،
فأقروا الرأي وأجمعوا على أنهم يختارون السيف ، وكتبوا الجواب
ومهره المقوقس باسمه ، لأنه الوالي الذي تصدر الرسائل عنه ، وأعطوه الى
مرقس وكان بين يديه ، ليوصله الى رسل العرب ، وأمرهم أن يشيعوا
الرسل الى باب الحصن . فلما ذهبوا خاف المقوقس أن يظن عمرو فيه
سوءا عندما يقرأ الكتاب ، وكانت الشمس قد مالت الى المغرب ، فذهب
الى غرفته فخلا بابنه . وبحثا الامر ، فقال أرسطوليس : « أرى أن نبعث

الى العرب نستعملهم الفتح » وتفهمهم أننا على عهدنا معهم » • فقال :
« بأي لغة نكتب الكتاب ؟ ومن يوصله ؟ » • قال : « يوصله مرقس فانه
يعرف العرب ، وأما كتابته فتكون بالقبطية ، وترجمانهم يترجمه الى
لسانهم »

فكتب أرسطوليس كتابا بالقبطية أبان فيه ان الكتاب الذي بعثه
أبوه ردا على خطابهم انما كتبه ليموه به على من معه من الروم ، وليريه
أنه يريد دفع العرب ، ولكن الحقيقة أنه باق على عيده معهم ، ولا يلبث
أن يسلم الحصن اليهم ويتفق معهم على شروط الصلح ، ولكنه استعملهم
قضاء ذلك حتى سنوح الفرصة •

وجيء بمرقس الى المقوقس والليل قد أرخى سدوله • فدفع
اليه الكتاب ، وأوصاه أن يحتفظ به ، وسأله : « كيف توصله الى معسكر
العرب » •

فقال مرقس : « أما الخروج الى العرب فلا يخلو من الخطر ، وهؤلاء
الروم قد أساءوا الظن بنا ، فهم يراقبون خطواتنا مثل خطوات عدوهم ،
فاذا اشتبهوا في أحدنا دققوا في استطلاع حاله ، فكيف اذا رأوني سائرا
ليلا نحو معسكر العرب ؟ فالرأي أن أحتفظ بهذا الكتاب الى فرصة أذهب
فيها الى منف لغرض ما ، ثم أتحوّل من هناك الى طريق آخر يؤدي الى
معسكر العرب ، فلا يراني أحد ، فاستحسن المقوقس وأرسطوليس رأي
مرقس وأبقيا الكتاب معه تلك الليلة ، فذهب الى ميته فوق السور •
وتذكر طريقة أركاديوس وأرمانوسة ، وما لهما عليه من الفضل ، أيقن
أن مساعي المقوقس هذه تضر أركاديوس ، وربما أذاقته حتفه اذا دخل
العرب الحصن على غرة ، وأن أركاديوس اذا أصيب بسوء عاد ذلك
بالوبال على أرمانوسة ، وفي هذا ما يسيء والدها وأخاها ، كما أن
شرا يصيب أركاديوس يسيء والده !

فوقع في حيرة من أمره ، فبينما حبه لأركاديوس ولأرمانوسة بدفعه الى اطلاع أركاديوس على الامر لينجو هو وخطيته . تراه يأتف من خيانة المقوقس وهو مولاه ويذهب مذهبه في كره الروم : ثم بدا له في الصباح التالي أن خير السبل لبلوغ الغايتين في آن واحد انما يكون في ابعاد أركاديوس عن الحصن عندما يقتحمه العرب ، ولا سيما لابعاده الا اذا جاء عن يد أرمانوسة لدالة الحب بينهما . وأما أن يترك أركاديوس الحصن فرارا من العرب فهذا مستحيل لما هو عليه من الشجاعة والنخوة .

فلما وضع له الرأي زال قلقه وسكن روعه . وذهب توا الى مولاه المقوقس ، فاذا هو في مجلس الاعيرج وابنه وجميع كبار القواد يتفاوضون ، فانتظره حتى خرج ، فأوماً المقوقس اليه أن يتبعه . فقبه حتى وصل الى غرفته فقال له : « لقد قررنا في جلستنا هذه أن نبقي متأهين لا نقاجي العرب بحرب ، فربما طال حصارهم وقد نحتاج الى مؤونة ، ولذلك رأينا أن نبعث فريقا منا الى منف ، فتطش أرمانوسة علينا ، فاذا ذهب الناس بأحبالهم فاسلك أنت طريقا آخر الى معسكر العرب رادفع الكتاب الى أميرهم » . فقال مرقس : « حسنا يا سيدي ، وعلى ترى يوم نجاتنا من هؤلاء الروم قريبا ؟ » . وقد أراد مرقس أن يستطلع رأي سيده ليكون على بصيرة من ساعة الخطر فيسعى في انقاذ أركاديوس . فقال المقوقس : « ان يوم النجاة قريب ، قد يكون بعد بضعة أشهر » ولا يخفى عليك يا ولدي أن استسلامنا للعرب ، أو تسهيل الفتح عليهم ، يجب أن يبقى سرا ، فاذا استمعلنا الامر ظهر تواطؤنا على الروم واتنا نحن الذين ساعدناهم ، أما اذا طال الحصار فان الشبهة ترتفع عنا بعض الشيء ، فاحذر أن يطلع أحد على شيء مما ذكرته لك ■ .

فخرج مرقس وفعل ما أوصاه به المقوقس ، واطمأن على أركاديوس ، فسار مع من ساروا الى منف ، فلقى خطيبته ووالديها ، ففرحوا لرؤيته

ايما فرح ، واستطلعوه الخبر فطأنهم وبشرهم بالفرج القريب ، ومكث عندهم برهة يستمع بحدث مارية ورؤيتها ، وهي لا تدري أتبكي أم تفرح وقد تعاقبت الحوادث من كل جانب •

ثم لقي بربرة فذهب معها الى أرمافوسة فلما رآته استبشرت ، لعلها بأنه مطلع على أسرار قلبها ، عالم بما بينها وبين أركاديوس ، وبأحوال والدها وشقيقتها في الحصن ، فاستطلعت الخبر فقال : « ان العرب نزلوا خارج الحصن ، وقد كتبوا الينا أن نسلم ، فأجبناهم بأننا مصرون على الدفاع الى آخر نسمة من حياتنا » •

فضحكت بربرة وقالت : « دعنا من المزاح وقل الحقيقة ، فقد علمنا أن مولانا المقوقس أخذ عهدا على أمير العرب ؟ أفلا يزالان على العهد ؟ » • قال : « نعم يا سيدتي ، انهما باقيان على العهد ، هذا كتاب من سيدي المقوقس الى الامير عمرو بهذا الشأن » • ومد يده وأخرج الكتاب ودفعه الى أرمافوسة ، فقرأته ، فلما جاءت على آخره شعرت بانقباض • ولكنها صمتت برهة ثم قالت : « وماذا تكون عاقبة هذا التواطؤ على أركاديوس ؟ الا ظنه يصبح في خطر ، وهو شجاع اذا لقي الموت لا يفر منه ؟ فما هذا يا مرقس ؟ ان العاقبة وخيمة علينا جميعا على ما أرى » •

فابتسم وقال : « طيبي نفسا يا سيدتي ، فقد قضيت يوما كاملا أفكر كيف أنقذ سيدي أركاديوس من الخطر ، فبدت لي حيلة اذا أطلعتك عليها استصوبتها لا محالة » •

قالت : « وما هي ؟ » •

فأطلعها على ما دبر ، فقالت : « بورك فيك ، هذا هو الرأي الصواب وأحذر أن تطيء في أخباره ، واني أترك لك ملء الحرية في دعوتك اياه الي عن قولتي ، وقد ألقيت الحمل عليك ، ولك بعد ذلك الاجر من الله ومني » •

فجثا مرقس أمامها وقال : « اني عبدك وخادمك ، واذا سفكت دمي في خدمتك لا أفي جزءا من فضلك » . فأنهضته وقالت : « بورك فيك من شهم غيور » . فقبل يدها وقال : « أرجو أن تأمرني باعداد قارب أركبه هذا المساء ، وأنزل منه بعيدا عن الحصن ، حتى أصل الى قبالة معسكر العرب » . فأصعد اليهم وأبلغهم الرسالة « . فأمرت بربرة بذلك » . أما هو فذهب الى بيت خطيبته وقضى بقية ذلك اليوم .

- ١٢ -

فتح الحصن

بقي الحصن محاصرا والعرب معسكرون حوله سبعة أشهر ، جاءهم في أثناءها مدد من الخليفة عمر بن الخطاب مؤلف من أربعة آلاف رجل ، فصارت قوة العرب ثمانية آلاف ، وفيهم جماعة من نخبة قواد الاسلام . وقد مضت الاشهر السبعة وأركاديوس على مثل الجمر تشوقا لأرمانوسة . لأن الاتصال كاد أن يكون منقطعا بينهما . فمل الاصطبار ، وتاقت نفسه الى لقيها ، وطارت روحه شعاعا الى مقرها .

ففي ليلة من ليالي الشهر السابع كان أركاديوس في حجرته ، وقد أعد فرائشه التماسا للرقاد ، لعله يرى طيف حبيبته في منامه . وتوسد الفراش ، ولم يكذب يفعل حتى جاءه أحد الحرس ينبئه بمجيء مرقس فاختلج قلبه في صدره ، توقعا لأن يكون قادما برسالة من أرمانوسة ، فأذن له ، فدخل وسلم ، فقال له : « ما وراءك يا مرقس ؟ » . فقال : (ما ورائي الا الخير » . قال : « قل » . فدفن اليه رقا ففضه ، فاذا

هو من أرمانونسة تقول فيه :

« من أرمانونسة الى حبييها أركاديوس .. أما بعد فاذا كانت أرمانونسة لا تزال تخطر في خاطرك : أو ما برحت حياتها تهتك » فأسرع اليها بنف عند وصول هذا اليك ، والسلام » .

فلم يكذب يتلو الكتاب حتى تغير لونه ، وانقبضت نفسه خوفا على أرمانونسة . وقال لمقرس : « هل جئت بهذا الكتاب منها ، أم هي أرسلته اليك مع رسول ؟ » . قل : « بل أرسلته مع رسول دفعه الي وكر راجعا » . فقال : « انها تدعوني فيه لأذهب على جناح السرعة : ولكنها لم تذكر سبب هذه الدعوة » .

قال : « خيرا ان شاء الله ، فهل أزمعت الذهاب ؟ » . قال : « لا بد من ذلك ، ولكن كيف أترك الحصن ونحن محصورون ، والعرب محدقون بنا من كل جانب ؟ » . قال : « تذهب متكررا ، فتقضي بضع ساعات عندها ثم تعود ولا يعلم بك أحد » .

قال : « نذهب اذن بعد نصف الليل متكررين كأننا من جواسيس أركاديوس ، فاذا ظنوا بنا سوءا قلنا لهم شعار الجند المتفق عليه الليلة ، فهل تذكره ؟ » .

قال : « نعم ، ان الشعار الليلة لفظ (هرقل) » . فاتفقا على ساعة من الليل يجتمعان بها في ناحية من الحصن ، ثم التقيا وجاءا الى الباب بلباس جند المقوقس ، فحاولا فتحه فنهض الحراس ومنعوهما من الخروج ، فذكرتا شعار الليل ، فأطلقوا سراحهما فخرجا . وكان مقرس قد أعد قاربا عند الضفة فركباه : وأوصى النوتية أن يسرعوا ما استطاعوا ليصلوا الى منف عند الضحى ، فسار القارب والكل سكوت ، وأركاديوس يستحث النوتية ، ويحسب لخروجه هذا ألف حساب خوفا من غضب

آبيه . حتى وصل الى منف ، وأطل على قصورها ، فكان أول ما شاهده قصر أرمانوسة ، لأنه أعلاها كلها . ولم يكن قد دخله من قبل ، فأخذ يستعد للمثابة حبيته بعد طول الغيبة .

أما هي فكانت تتوقع قدومه ، وقد أرسلت بعض الخدم مع بربرة لاستقباله خوفا من انكشاف الامر ، ولبت هي في الحديقة تنتظر قدومه وقلبا يخفق وربتها ترتعشان . وكلما آنت صوتا أو رأت شبحا ظنته أركادايوس ، فأخذت تمشي في طرقات الحديقة تلهي بمشاهدة الازهار وتقف طورا عند أقفاص الحيوان تشاغل بمراقبة حركاتها ، حتى سمعت وقع أقدام ثم دخل اثنان بلباس جند القبط ومعهما بربرة ، فمرفت أنهما أركادايوس ومرقس ، فتقدمت اليهما ، فأشارت بربرة اليهم جميعا أن يصعدوا الى القصر ، فصعدوا . ثم استأذن مرقس وسار الى خطيبته ، ودخل أركادايوس وأرمانوسة غرفتهما ، وبربرة معهما . ولم يصدقا أنهما مجتمعان حتى سلما وتصافحا ، فقبض أركادايوس على يدها فأحس بكهرية ارتعش منها جسمه ، ونسي الحصن وأهله والعرب والروم ، ولكنه ما يرح في قلق لمعرفة سبب استقدامها اياه على هذه الصورة ، فوقفا برهة لا يتكلمان ، ولحظ أركادايوس في وجه أرمانوسة نحولا وذبولاً فأنطر قلبه . وكانت بربرة قد أعدت لهما مائدة عليها أنواع الاطعمة والاشربة ، فلما جلسا قالت أرمانوسة : « مرحبا بالقادم بعد طول الغياب ، قد كنا نحسب الحصار على الجند في الحصن فقط ، فإذا هو حصار علينا أيضا » .

فقال : « لا تبدئي بالعتاب قبل أن تخبريني عن سبب استقدامك اياي بمبارة مبهمة شغلت بالي وأكثرت عندي الظنون » .
قالت : « ما دعوتك الا لأراك ، فقد قضيت سبعة أشهر منذ ودعتك المرة الاخيرة ، وأنت تنظر الي من نافذة الحصن ، وأنا لا يرتاح لي بال

ولا أذوق رقادا حتى صرت الى ما تراه من الضعف ۝ وخشيت أن يكون ذلك الوداع آخر عهدنا باللقاء ، لا سيما أننا في حال توجب الاضطراب والخوف . ألا تزال على عزمك تخوض معامع القتال غير مبال بما يقاسيه هذا القلب ؟ »

قال : « انما أحب الحرب يا أرمانوسة من أجلك لأدافع عنك ، وأستقبل السيوف والنبال تعزيزا لمقام خطيبك عندك » .
فقطعت عليه الكلام قائلة : « ان كنت تحبني وتبغني رضي فاقلمع عن القتال ، ودع الحصون ، وابق الى جانبي ، فاني لا أستطيع صبرا على بعدك » .

فتنهذ وقال : « نعم اني أحبك ، وأنت تعلمين ذلك ، ولكنني أحب شرفي ، وأحب وطني أيضا ، أتريدين مني أن تترك حصوننا غنيمة لهؤلاء العرب القادمين الينا من أقصى بادية الحجاز ، ونحن الروم أرباب المجد والسطوة ، وقد رفعت أعلامنا على هام الامم ، ودانت لنا الملوك والقيصرة ؟ أنظر أمام نقر من البدو رعاة الابل ؟ أترضين لي ذلك ؟ » .
وكان يكلمها والعرق يتصب من جبينه لعظم تأثره .
قالت : « كلا » فما قصدت الى الحط من مقامك ، فاني أفاخر الناس ببطولتك وبسالتك ، ولكنني اعترمت الا أفترق عنك بعد اليوم أبدا ، وهذا هو سبب استقدامي اياك » .

فنهض مذعورا وقال : « أصحيح ما تقولين يا أرمانوسة ؟ هل تريدين لي هذه الخيانة ؟ ألا تهجلين اذا ذكر أركاديوس أن يقال أنه جبان يفر من الحرب ؟ لا أعلمك ترضين بذلك » .
قالت : « قلت لك أني لا أرضى لك حطة ، ولكنني لا أرضى أن تعرض نفسك لحرب لا أمل بالفوز فيها » .
فمجب لقولها هذا وقال لها : « وما أدراك ؟ أتخمين جند هذا

الحصن كجند بليس والفرما ؟ أما الفرما فلم يكن فيها أحد من الروم على ما أعلم ، أم أنت تستخفين بي ؟ » .

قالت : « رأيت فيما يرى النائم أن الحصن أخذ : وخفت أن يصيبك شر ، فاستقدمتك الي على ألا يفرق بيننا الا الموت . فاذا سرت سرت معك ، أو قعدت قعدنا معا . . هذا قلوي والسلام » .

فتلطف بالجواب تخفيفا لما ثار في قلبه ، وقال : « تعقلي يا حبيتي . فقد صبرت أشهراً فاصبري أياماً ، وسترين العاقبة كيف تكون ، ولو تركني أبي أفعل ما أريد لخرجت الي جند العرب المعسكر حول الحصن بشرذمة من رجالي فقط ، وبددتهم أيدي سبا ، ولكنني أعمل برأيه مكرها . اما اذا نشبت الحرب واحتدم الوطيس فالفوز لنا لا ريب فيه باذن الله » .

فتبسمت ثم قالت : « وهب أنكم حاربتم العرب في هذا الحصن ثم خرجتم منه الي غيره فانك تحاصر في ذاك أيضا . ثم تذهب الي حصن آخر ، وهكذا ، وتترك أرمانونسة في زوايا النسيان لا تنام الليل خوفا عليك . أيرضيك هذا ؟ » .

قال : « حاش لي أن أنسى أرمانونسة ، أو أغفل عن راحتها ، وأعدك وعدا شافيا أن واقعة هذا الحصن ستكون الحد الفاصل : فاذا بقيت بعدها لم أفارقك أبدا » .

قالت : « أنقسم لتفعلن هذا ؟ » . فأقسم بشرفه وبمحبتها أنه اذا انقضى أمر هذا الحصن سواء لهم أم عليهم فلن يعود الي حرب أو الي فراق .

وطال بهما الحديث حتى صارت الشمس في الاصيل ، فقال أركاديوس : « أراني قد نسيت واجبي ، فتركت معقلي وجندي على حين غفلة ، وجئت وقد طال بي المقام . هلا أذنت لي بالذهاب ، وموعدا قريبا ان شاء الله » .

فأمكنه تريد اقتناعه بالبقاء قليلا وهو يعتذر ، وإذا ببعض الخدم داخل وعلى وجهه اشارة البغته .

فقال بربارة : « ما الخبر ؟ » فقال : « رأيت سفنا قادمة من الحصن » . فأطلت أرمانيوس من شرفة القصر ، وأطل أركاديوس : فإذا السفن سفنهم ، وفيها بعض رجالهم ، فاختلج قلبه في صدره . وما لبث أن جاء قارب عليه بضعة من رجال المقوقس .

فاستقدمتهم بربارة الى القصر ، فمسعدوا وهم يتأفون ، وعلى وجوههم ملامح البغته والخوف . فتقدمت أرمانيوس وكاستهم وأركاديوس منزو يسمع فقال لهم : « ما وراءكم ؟ » . فتقدم أحدهم وقال : « ان المقوقس بعثنا اليك لتكوني على أهبة السفر اذا اقتضت الحال » . فوقف أركاديوس مذهولا ، ولكنه لم يتكلم . فقالت أرمانيوس : « وما الداعي لهذا التأهب ؟ » . قال : « لأن العرب دخلوا الحصن في هذا الصباح على حين غفلة . وخرج سيدي المقوقس ومن بقي من الجند الى جزيرة الروضة على الجسر الذي كانوا قد نزعوه . فأعادوه ومروا عليه ، ونحن نتوقع أن يتعقبهم العرب ويشطروهم الى المجيء الى هنا » . فلما سمع أركاديوس بسقوط الحصن تفرقت الدموع في عينيه . فتوارى وراء حائط الشرفة لئلا يلحظ أحد منه ذلك ، وجعل يحرق أسنانه ويتأوه . أما أرمانيوس فرأته بهذه الحال . ولم يكن سقوط الحصن شيئا غير متوقع عندها ، ولكنها تظاهرت بالاستغراب أمام أركاديوس لكي تنطلي الحيلة عليه . فلما رأته على هذه الحال تركت الجندي يتكلم مع بربارة : ودت منه على الترفه بحيث لا يراها أحد ، وأمسكت يده فإذا بدموعه تتساقط على خديه وهو لا يبدي حراكا ، فقالت له : « أأركاديوس يبكي ؟ لقد صدق القائل : (لا تذكر الحزن الا اذا رأيت دموع الابطال !) . مالك يا حبيبي ؟ » . فلم يجب لأن العبرات

خنته ، فقالت : « ما بالك لا تجيب ؟ » • فحرق أسنانه وتهد ، وهو يتميز غيظا ، ولم يجب • فأمسكت بيده فاذا هي باردة ترتجف ، وأراد جذبها منها فضغطت عليها وقالت : « لماذا لا تجيب يا أركادبوس ؟ » • فالتفت اليها والدمع ملء عينيه وقال : « كيف لا أبكي يا أرمأنوسة وقد خرج الحصن من أيدينا ، وأنا محبوس هنا لا أستطيع حراكا ؟ ومن الغريب ان هؤلاء الرعاة لم يفعلوا ما فعلوه الا وأركادبوس بعيد عنهم • ولكن آه يا أرمأنوسة • آه من الحب ! ما أعظم سلطانة ! ان الحب وحده كان سبب سقوط هذا الحصن ، فقد كان في وسعي ملاقة الشر قبل وقوعه ، ولكن جبي أرمأنوسة حملني على التجاهل • فالعرب لم يغلبونا ، ولكنها خيانة أنا شريك فيها على غير قصد ، والحب يعني ويصم • آه منه ! » •

فأدركت أرمأنوسة مراده ، فعمدت الى مغالطته لئلا يزداد غضبه فقالت : « اجلس يا حبيبي ريثما نسأل هذا الرسول عن كيفية سقوط الحصن لعلنا نكشف أمرا جديدا » •

قال : « وماذا عسى أن تكشفني ؟ فقد كشفت الحقيقة ، وعرفت سر الامر ، فهل أستطيع بعد هذا كله أن أواجه أبي وأنا لا أدري ما يكون ظنه في ، الا يعدني شريكا في الخيانة ؟ » • قال ذلك وهو يحاذر أن يسمعه الرسول أو يعلم به ، وقد شاقه أن يعرف كيف سقط الحصن ، فقال لأرمأنوسة : « اسأليه عن الحصن كيف سقط ؟ » •

فمادت الى الجندي ، وكان في انتظارها مع بربرة ، فقالت : « احك لنا كيف دخل العرب الحصن ؟ » • فقال : « لا نعلم كيف دخلوه ، ولكننا أصبحنا فاذا هم يتسلقون الاسوار ، وكان سيدي المقوقس قد أمرنا بالخروج الى جزيرة الروضة فعبرنا على الجسر وأقمنا هناك » • فقالت : « ألم تدفعوا العرب عند دخولهم ؟ » • قال : « فعلنا ، ولكن

جند الروم دافعوا قليلا ، ولم يترك العرب لنا فرصة للدفاع » .
 فقالت : « هل جاء أبي الى جزيرة الروضة ؟ » .
 قال : « نعم يا سيدتي ، ومعه رجال حكومته وسائر جنده » .
 فقالت : « وماذا جرى للاعيرج ورجاله ؟ » .
 قال : « أظنهم ساروا الى الاسكندرية ليتحصنوا فيها » .
 فقالت : « أذهب وحده أم سارت معه حاشيته ؟ » .
 قال : « أظنهم ساروا جميعا على غير نظام ، لأنهم انما خرجوا من
 الحصن فارين . ولكنني لم أر ابنه أركاديوس معهم ، ولم أره أبدا .
 والناس يتحدثون بشأنه . ويزعمون أنه قتل أو فر قبل دخول العرب
 الحصن » .
 فقالت وهي تصرفه : « سنتأهب للرحيل طوعا لأمر أبي » . ودعت
 بربرة وقالت : « يجب أن تأهب . ولكنني في قلق على أبي . فلنرسل
 اليه من يأتينا بتفصيل الواقعة . فقد لا يكون هناك داع للسفر » .
 أجابت بربرة : « ليس لهذه المهمة أليق من مرقس . وهو الآن عند
 خطيبته » فبعثوا اليه فجاء مسرعا . ولما أخبرته بربرة خبر الحصن
 لم يستغرب . لأنه كان على بينة من قرب سقوطه . فقالت له : « أين
 مارية ؟ » . قال : « في البيت مع أبويها » . قالت : « فليأتوا إلينا جميعا »
 وليقيموا في القصر ، وأما أنت فاذا رأيت ثم حاجة الى غرارنا فعد إلينا
 مسرعا » .
 قال : « سسما وطاعة » . وخرج فجاء بخطيبته ووالديها . وودعهم
 جميعا ، وسأل عن أركاديوس فدلوه على مكانه . فذهب اليه وقبل يده .
 فاذا بأثر الدمع يبدو في عينيه ، وامارات اليأس ظاهرة على وجهه .
 فتأثرت الدموع من عيني مرقس ، ووقف أمام أركاديوس وقال : « ما
 بال سيدي يبكي وهو البطل المجرب الذي لا تهزه الحوادث ؟ فهل

بيكيك الفشل مرة ، وأنت تعلم ان الحرب سجال ، وأمد الحرب لا يزال طويلا ؟ » .

فتنهذ أركاديوس وقال : « دعني يا مرقس . ان كلامك هذا لا يعزيني . فما أنا ممن يأسون من النصر : والانكسار في الحرب لا يوجب يأسا ، لأن القتال سجال كما قلت ، ولكنني حزين لأنني تعاميت عن حقائق كنت أراها رأي العين ، وأحسب أنني لم أرها » وأكذب نفسي ، لا لجهل أو سذاجة ، بل لفشاء غطى عيني وأعمى بصيرتي » وشاغل شغلني عن أبي ووطني : ألا وهو الحب . وأظنك خبرت شيئا منه وعرفت سلطانه . ولولا تلك الفشاة لاستطعت انقاذ الحصن ومن فيه . وارجاع هؤلاء العرب على أعقابهم الى مراعي ابلهم وماشيهم . انما لقد سبق السيف العذل ، فانا شريك في الخيانة . وعون على تسليم الحصن للعرب ، أفلا يحق أن أبكي وأندب سوء حظي ، ألا أرثي حياتي : وقد أضعت رشدي ، وأصبحت آلة لا ارادة لها ؟ أرى اللص ينقب بيتي فاتغافل عنه ، فاذا أتم النقب تركت البيت له يفعل به ما يشاء ! » .

فأدرك مرقس أن أركاديوس لم يكن غافلا عن تواطؤ المقوقس مع العرب : فتجاهل وقال : « اني لا أرى أن سيدي أركاديوس قد أتى أمرا يلام عليه . فانك عدة جنود الروم وخير أبطالهم . ولم تخرج من الحصن فارا . والعناية قدرت لك النجاة من عار الفرار » ولو أراد الله سلامة الحصن ما خرجت أنت منه ولا دخله العرب : ولكنها مشيئته ، فخفف عنك . وما أنذا ذاهب للبحث عن تفصيل الواقعة ، وسأعود اليكم بالخبر اليقين » . وودعه وخرج ، فناداه أركاديوس فماد فقال له : « تفهم جيدا ، وأخبرني ما عدد الجند ، وقل للمقوقس ان علينا أن نعيد الكرة على هؤلاء العرب من الجزيرة ، فان آنست منه

قبولا فأخبرني ، فاني لأبلسون فيهم بلاء حسنا ، ولا أقعد حتى أعيدهم
على أغقابهم أو أقتل ، ولا تنس أن تبحث عن أبي أين هو الآن » واحذر
أن يعلم أحد أني هنا » قال : « سعا وطاعة » .

- ١٣ -

عقد الصلح

ساء أرمانونسة كثيرا كدر أركاديوس ، ولكن سرها نجاح حيلتها ،
ولم تكن تخشى بأس العرب لعلها أن أباهها ضالع معهم ، فالصرف همها
الى تخفيف وقع المصيبة على أركاديوس وحمله على التسليم بما
حدث . فلما ذهب مرقس أمرت بطعام فأعد لهم ، والشمس قد مالت
الى المغرب ، فجلسوا الى المائدة وأركاديوس يحسب أنه في حلم ، ولا
يكاد يصدق خبر سقوط الحصن وفرار حاميته ، فقال لأرمانونسة : « أراني
في حلم ، ولا أستطيع تصديق الخبر ... أيدخل هؤلاء العرب الحفاة
المرأة حصولتنا ونحن جنود الروم لنا العدة والسلاح وهم شرذمة قليلة ،
انها لخيانة أو لعله سحر أو لعله غضب من الله » . فقالت أرمانونسة :
« لعله الأخير » ، وتبسمت تريد مداعبته ، فاستمر قائلا : « ولنفرض أنهم
أخذوا الحصن ، فلسوف يخرجون قهرا فانه سهل علينا أن نحصرهم
فيه ، ونقطع عنهم المؤونة برا وبحرا حتى يسلموا أو يهلكوا جوعا ، اذ لا
سبيل لهم الى المؤونة لأن بينهم وبين بلادهم شقة بعيدة وجنودنا تملأ
القطر » .

فقالت أرمانونسة : « سوف نرى » . وقد آلت الا تدعه يتعد
عنها مهما يحدث ، وبعد أن تناولا شيئا قليلا من الطعام نهض الجميع

وذهب كل واحد الى حجرة نومه ۞ فلما أصبحوا وجدوا أهل منف في قلق يتأهبون للفرار ۞ وأما أرمانونسة فلبثت يومها تنتظر عودة مرقس ۞ فقضوا نهارهم في الانتظار والقلق وكان أركاديوس قد خف بأسه وعادت اليه آماله في استرجاع الحصن ۞ وفي اليوم الثالث ۞ أطلوا من شرفة القصر فرأوا قارب مرقس فعرفوه ۞ فدنا وصعد اليهم وجلس يقص عليهم رحلته ۞ وكلهم آذان واعين ۞ وليس في الغرفة الا هو وأرمانونسة وأركاديوس وبربارة ۞ وهذا ما حكاه :

وصلت الى الجزيرة مساء أمس الاول فوجلت جندنا معسكرا فيها ۞ فذهبت الى سيدي المقوقس فقبلت يده ويد سيدي أرسطوليس وطمأنتها على سيدي أرمانونسة ۞ وقضينا الليل في حديث الحصن ۞ فعلمت أنه أخذ مفاجأة وان العرب مقيمون به الآن ۞ وأما جند الروم فساروا الى الاسكندرية ۞ وفيهم مولاي الاعيرج ۞ وقد فهمت من حديث سيدي المقوقس أن الناس في ريب من أمر سيدي أركاديوس ۞ فمن قائل انه قتل قبل فتح الحصن وقائل أنه فر بعد الفتح ۞ وظن بعضهم أنه قتل وضاعت جثته ۞ حرسه الله ۞ وعلمت أيضا أن سيدي المقوقس بعث الى أمير العرب يعرض عليه صلحا على أمر فيه خير للفريقين ۞ وأرسل اليهم قاربا يركبه وفدهم اليها ۞ فبتنا ليلتنا وأصبحنا ننتظر مجيء الوفد ۞ فلما كان الضحى جاءنا نبأ بأنهم وصلوا الى الجزيرة ۞ فبعث سيدي وفدا استقبلهم عند الشاطيء وجاءوا بهم اليه ۞ وكان في مجلسه ۞ وأنا بين يديه ۞ فما لبثنا أن رأينا الوفد قادمين ۞ وكانوا عشرة من البدو ۞ وقد رأيت أزياءهم في بلبس ۞ وتقدم واحد منهم لم أر أفضح منه منظرا ۞ أسود فارغ الطول ۞ ضخم الجثة ۞ قالوا أنه زعيمهم وخطبهم ۞ واسمه عبادة بن الصامت ۞ وقد رأيت منه جرأة لم أعدها في أحد من الناس حتى اليوم ۞ ولحظت أن سيدي وأهل مجلسه هابوا منظره ۞ وكأنني سمعت سيدي يطلب منهم

ان يتبدلوا به غيره فقالوا : « هو كبيرنا المقدم فينا » . فقال له سيدي والترجمان ينقل كلامه : « تقدم يا أسود وكلمني برفق ، فاني أهاب سوادك » . فتقدم وقال : « فهمت قولك ، وان فيمن خلقت من أصحابي ألف رجل أسود كلهم أشد سوادا وأظفح منظرا » وأشد هيبته مي ، وقد وليت وأدبر شبابي ، ولكنني بحمد الله لا أهاب مائة رجل ، وذلك لرغبتنا في الجهاد واتباع رضوانه . وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة في الدنيا ، ولا زيادة فيها ، الا أن الله عز وجل قد أحل لنا ذلك ، وجعل ما غنمنا منه حلالا ، وما يبالي أحدنا ان كان له قنطار ذهب أو درهم واحد لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها ليسد بها جوعه ليله ونهاره ، وشملة يلتحفها ، فان كان لا يملك الا ذلك كفاف ، وان كان له قنطار من ذهب أنفقه في سبيل الله ، واقتصر على هذا الذي في يده ، لأن نعيم الدنيا ليس نعيما ، ورخاءها ليس رخاء ، انما النعيم والرخاء في الآخرة ، وبذلك أمرنا الله وأمر به نبينا ، وعهد اليها الا تكون همة أحدنا من الدنيا الا ما يمسك به جوعه ويستر به عورته ، وأن تكون همته وشغله في رضوانه وجهاد عدوه ■ .

فلما سمع سيدي هذا الكلام قال لنا بالقبطية : « هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط ، لقد هبت منظره ، وان قوله لأهيب . ان الله أخرج هذا وأصحابه لخراب الارض ، وما أظنهم الا الغالين » . ثم التفت الى عبادة وقال له : « أيها الرجل الصالح قد سمعت قولك وما ذكرت عنك وعن أصحابك . ولعمري انكم لم تبلغوا ما بلغت الا بما ذكرت ، وما ظهرت على من ظهرت عليهم الا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها . وقد توجه منا لقتالكم جمع من الروم لا يحصى عددهم ، عرفوا بالنجدة والشدة ، ما يبالي أحدهم من لقي ولا من قاتل ، وأنا لنعلم أنكم لن تقدرُوا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم ، وقد أقمت بين أظهرنا أشهراً

وأتم في ضيق وشدة ومسعة ۝ وها نحن أولاء نعرض عليكم الصلح
على أن تفرض لكل رجل منكم دينارين ولأميركم مائة دينار .
ولخيفتكم ألف دينار ، تأخذونها وتنتقلون الى دياركم قبل أن يغشاكم
ما لا طاقة لكم به » . فأجابه عبادة : « لا تغرن نفسك ولا أصحابك
أما ما نخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم ، وأنا لا نقوى عليهم ،
فلمعري ما هذا مما يخيفنا ، ولا الذي يشيننا عما نحن فيه ، وإن كان
ما قلتم حقا فذلك والله أرغب ما يكون في قتالهم ، وأشد لحرصنا عليه ، لأن
ذلك أعذر لنا عند ربنا اذا قدمنا عليه وقد قتلنا عن آخرنا ، فهذا أمكن
لنا في رضوانه وجنته ، وما شيء أقر لأعيننا ولا أحب لنا من ذلك ،
واتنا منكم حينئذ لعلى احدى الحسينين ، فاما أن تعظم لنا بذلك غنمة
الدنيا ان ظفرنا بكم ، أو غنمة الآخرة ان ظفرتم بنا ، وانها لأحب
الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا ، وإن الله عز وجل قال في كتابه : (كم
من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين) . وما منا الا
من يدعو ربه صباحا ومساء أن يرزقه الشهادة ، والا يرده الى بلاده ولا الى
الى أرضه ولا الى أهله وولده ، وليس لأحد منا هم فيما خلقه ، وقد
استودع كل منا ربه أهله وولده ، وانما همنا ما أماننا . وأما قولك اننا
في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن في أوسع السعة ، ولو كانت
الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأفسنا أكثر مما نحن عليه ، فاطر الذي
تريده فينه ، فليس بيننا وبينك خصلة تقبلها منك ونجيبك اليها الا
خصلة من ثلاث خصال ، فاختر أيتها شئت ، ولا تطمع نفسك بالباطل .
بذلك أمرني الامير ، وبه أمر أمير المؤمنين ، وهو عهد رسول الله من قبل
اليان ، أما أن أجبتكم الى الاسلام دين الله القيم الذي لا يقبل الله غيره وهو
دين أنبيائه ورسله وملائكته والذي أمرنا الله أن نقاتل من خالفه ورغب
عنه حتى يدخل فيه ، فإن فعل كان له ما لنا وعليه ما علينا وكان أخانا

في دين الله ، أما أن أحببت الى هذا وقبلته أنت وأصحابك فقد سعدتم في الدنيا والآخرة » ورجعنا عن قتالكم ، ولم نستحل اذاكم ولا التعرض لكم . وان أيتيم فأدوا اليها الجزية عن يد وأتم صاغرون ، على أن نعاملكم على شيء نرضى به نحن وأتم في كل عام أبدا ما بقينا وبقيتكم ، ونقاتل عنكم من ناوأكم وعرض لكم في شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكم ، ونقوم بذلك عنكم ان كنتم في ذمتنا وكان لكم به عهد علينا . وان أيتيم فليس بيننا وبينكم الا السيف حتى نموت عن آخرنا أو نصيب ما نريد منكم . هذا ديننا الذي ندين الله تعالى به ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره » فاظفروا لأنفسكم » .

فمعجبنا لجراته وقوة جأشه ، فأجابه سيدي : « هذا ما لا يكون أبدا . ما تريدون الا أن نتخذونا عبيدا ما كانت الدنيا » . فقال عبادة : « هو ذاك ، فاختر لنفسك ما شئت » . فقال سيدي : « أفلا تجيبوننا الى غير هذه الخصال الثلاث ؟ » . فرفع عبادة يده الى السماء حتى كادت تدرك سقف الغرفة لطولها وقال : « ورب هذه السماء ، ورب هذه الارض ، ورب كل شيء ، مالكم عندنا خصلة غيرها ، فاختاروا لأنفسكم » . فالتفت سيدي اذ ذاك الى أرباب مجلسه وقال : « قد فرغ القوم ، فما ترون ؟ » . فقالوا : « أيرضى أحد بهذا الذل ؟ أما ما أرادوا من دخولنا في دينهم فهذا لا يكون أبدا أن تترك دين المسيح بن مريم وتدخل في دين لا نعرفه . وأما أن يسبوننا ويجعلونا عبيدا فالموت أيسر من ذلك . فلو رضوا أن نضاعف لهم ما أعطينا مرارا كان أهون علينا » . فقال سيدي لعبادة : « أبى القوم فما ترى ؟ فراجع أصحابك على أن نعطيهم في مدنتكم هذه ما تمنيتهم وتصرفون » .

فقال عبادة وأصحابه : « لا » . فقال سيدي لأرباب مجلسه : « أطيعوني وأجيبوا القوم الى خصلة من هذه الثلاث ، فوالله مالكم بهم »

طاقة ، ولئن لم نجيبهم اليها طائعين لنجيبهم الى ما هو أعظم كارهين » .
 فقالوا : « وأي خصلة نجيبهم اليها ؟ » . قال : « أما دخولكم في
 غير دينكم فلا يسلم أحدكم به ، وأما قتالهم فأنا أسلم انكم لن تقدرؤا
 عليهم ولن تصبرؤا صبرهم » ولا بد من الثالثة » . قالوا : « فنكون
 لهم عبيدا أبدا ؟ » قال : « نعم ، تكونون عبيدا مسلطين في بلادكم ، آمنين
 على أنفسكم وأموالكم وذرائعكم ، فأطيعوني قبل أن تندمؤا » . فرضؤا
 بالجزية على صلح يكون بينهم يعرفونه . فقال سيدي للأسود : « قل
 للأمير أن يجتمع بنا لنكتب عهد الصلح » .

ثم خرج الوفد وأهل الجزيرة يشيعونهم بأقطارهم ، وقد بهروا
 لما شاهدؤا من جرأتهم ، ولبنا تنتظر مجيء أميرهم عمرو . فلما كان
 أصيل أس علمنا بمجيئه ، فخرج سيدي لمقابلته على الضفة ، ولا أزيدكم
 علما على ما تعلمونه من هبة عمرو بن العاص ، فقد رأيتؤه في بليس .
 فلما التقيا تصافحا ودخل الجميع القاعة ، فصارت تمج عجيبا لاختلاط
 القبط بالعرب ، لأول مرة ، ولم يأت المساء حتى كتبوا الصلح بينهما في
 اللغتين ، وأمضاها الفريقان ، وقد تمكنت من استاخها وهذا هو
 ذا نصها :

(بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر
 من الامان على أنفسهم ودمهم وأموالهم وكافتهم وصاعهم ومددهم
 وعددهم ، لا يزيد شيء في ذلك ولا ينقص ، ولا يساكنهم النوبة . وعلى
 أهل مصر أن يسطؤا الجزية ، اذا اجتمعؤا على هذا الصلح ، واطمت زيادة
 نهرهم ، خمسين ألف ألف ، وعليه ممن جنى نصرتهم ، فان أبى أحد منهم
 أن يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم ، وذمتنا من أبى بريته ، وان نقص
 نهرهم عن غايته اذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك ، ومن دخل في صلحهم
 من الروم والنوبة فله ما لهم وعليه ما عليهم ، ومن أبى واختار الذهب

فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ويخرج من سلطانا * وعليهم ما عليهم أثلاثا في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم : على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الحليفة أمير المؤمنين ، وعلى التوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأسا ، وكذا وكذا فرسا ، على ألا يغزوا ، ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة * شهد الزبير ، وعبد الله ومحمد ابناه ، وكتب وردان وحضر) *

ولما كتب على هذه الصورة قريء على الحضور من القبط والعرب باللغتين ، فتصافح الفريقان وصاروا جميعا يدا واحدة * ثم كتب سيدي الى البطريق حاكم الاسكندرية يخبره بالامر ، ولا ندرى ما يكون جوابه *

وفيما كان مرقس يتكلم كانت أرمافوسة وبربارة ترقبان أركاديوس وما يبدو منه * أما هو فكان مصنيا الى مرقس وقلبه يتقطع ، ويكاد يتميز غيظا ، حتى سمع شروط الصلح ، وأن العرب والقبط تصافحوا بعد كلام المقوقس وتبسيط عزائم رجاله ، فوثب بغتة ونادى : « يا للعار ! قد قضى الامر يا أرمافوسة لم يبق لي مقام بهذه البلاد ، فما هو ذا والدك قد أتى ما كان ينبغي من صلح العرب ، ولم تبق لنا حيلة في دفعهم عنا ، وليس في طاقتي أن أنظر الى أيك : وقد تحققت الآن أنه هو الذي ساعد العرب على فتح الحصن واخراج جنودنا منه ، فالاقامة هنا لا أستطيعها ، وقد عاهدتك وأقسمت لك الايمان المعظمة أن لا أفارقك بعد واقعة الحصن ، فما قد انتهت الواقعة ، فنحن - أنا وأنت - روح واحد ، وبقاؤنا هنا تحت سلطة هؤلاء البدو مستحيل ، واذا ذهبنا الى الاسكندرية فلا آمن غضب أبي لأنه عالم بمساعي أيك ، فلا يرضى ببقائنا معا ، فما الحيلة إذن ؟ » قالت : « اني رهينة أمرك » . قال : « اعلمي يا أرمافوسة أن أباك قد ارتكب خيانة لن تمحو ذكرها

الأيام . لانها ستؤدي الى خروج وادي النيل من أيدينا الى أيدي العرب ،
فاذا عرف هؤلاء المحافظة عليه طالت اقامتهم به قرونا . لأنه من خير
بلاد الله تربة وأكثرها خصبا ، فجعله أبوك غنية باردة للعرب ، وأصبحت
الروم ومنازلهم وما ملكت إسانهم في قبضة هؤلاء العرب . انها
خيانة لا أستطيع عليها صبرا ، فاقامتي معه ضرب من المتحيل . ولولا جك
الراسخ في هذا القلب لسعيت الى قتله بهذا الحمام » .

وكانت أرماتوسة أثناء كلامه مطرقة خجلا لما أتاها والدها ، وكأنها
استيقظت من سبات فأدركت كنه الجريسة فلم تحر جوابا .
فأتم هو كلامه وقال : « ولكنني لا أمسه بسوء اكراما ليني أرماتوسة
وطالما دافعت عنه عند أبي ، وكثيرا ما غالطته . مع علي بالخيانة . فكأنني
شاركته فيها ، وأنا لا أصبر على جواره . فاذا أعطيتي هجرنا هذه البلاد .
وأتينا ببلاد لا يعرفنا فيها أحد الى أن يقضي الله بما يشاء » .

فقالت : « اني معك حيثما توجهت ؟ » .
فقال : « أما والحالة هذه فلنترو ولنتمقل . فنحن الآن متحدان
قلبا فلندع قيسا يسم عقد اتحادنا الجسدي » .
وكان مرقس وبربارة يصغيان لعلها عاقبة الحديث ، واستحسنا
الرأي . فأسرع مرقس فجاء بقسيس منف فصلى وبارك قرانها فلما
تست صلاة الاكليل قال مرقس : « وأنا لا اقامة لي هنا بعدكما ، فهل
تسمحن بأن أكون في خدمتكما أنا ومارية ؟ » .

فنصحا له بالا يلقي بنفسه فيما هو في غنى عنه ، فأصر : وبعث الى
مارية ووالدها فحضرا فأنبأهما بقصده . فقالا : « نحن نسير معكم أيضا ،
ثم صلى القسيس وعقد قران مرقس بمارية .

* * *

خلا أركاديوس بأرمانوسة يتشاوران ، فقر رأيهما على الذهاب الى بلد لا يعرفهما فيه أحد . أما أرمانوسة فانها لما تحققت أنها أصبحت زوجة أركاديوس ، وسكن قلقها عليه ، انتبهت وكأنها أفادت من سبات : كيف تعقد قرانا لا يعرفه أبوها ؟ وشعرت أنها أثمت في حق أبيها ، وبأنها خرجت من بيته في غيابه ، ثم تخيلته وقد جاء منف على أثر ما قاساه في أمر الحرب ولم يجدها في منزله ، ولم يعرف أين هي . وقد كانت منذ أحداثها تسليته الوحيدة بعد وفاة والدتها ، ولم يكن يمه شيء لا يهصها ، ولولا اشتغاله بالحرب ومعداتهما لما فارقها يوما واحدا ، فقد كان ينتظر عودته الى منف بفارغ الصبر ليقتضي بقية أيامه بجانبها ، فكيف يأتي ولا يجدها ، وهي تعلم منزلتها عنده ؟ فجعلت هذه الهواجس تجول في خاطرها ، وتتجاذبها وهي صامتة ، وأركاديوس يفكر في مثل ذلك ، لأن حاله تشبه حالها من هذا القليل . وبعد أن صتا برهة هب أركاديوس فجأة ورفع يده الى صدره ، وجعل يبحث بين أثوابه كأنه أضاع شيئا ، فنظرت أرمانوسة اليه فرأت البغته والقلق باديين عليه فقالت : « ما بالك يا حبيبي ؟ ما الذي جرى ؟ »

قال : « لقد أضعت شيئا لا تقل خسارته عن خسارة هذا الحصن » .
 قالت : « وماذا عسى أن يكون ذلك ؟ »

قال : « أضعت الصليب الذي أهديتني ، وقد كان معلقا في صدري تحت ثوبي حتى ليلة معيئي اليك ، وكنت أخرجه لأقبله وأنا أنزع ثيابي للرقاد ، ووضعت أمامي ، ثم جاءني رسولك على عجل ، فاضطرت الى المجيء عملا بأمرك ، فلبست ثيابي ونسيت هناك ، واني لأتشاءم أن نجتمع ويضع الصليب ؟ ■ ■ »

قالت : « وكيف تستطيع الوصول اليه ، وفي دخولك الحصن بعد احتلال العرب ما فيه من الخطر ؟ »

قال : « أرى أن أصطحب مرقس الى الدبر فهم يعرفونه : انه من أتباعك فلا يسيئون الظن به ، وألبس أنا لباسا مثل لباسه فندخل معا للبحث عن الصليب » .

قالت : « وماذا بعد ذلك ؟ » .

قال : « نضرب موعدا نلتقي فيه في موضع نسير منه الى حيث نريد » .

قالت : « كيف الفراق بعد الاجتماع ؟ » .

قال : « لا بد من خروج كل منا على حدة لتلا ينكشف أمرنا ، فأذهب أنا أولا ، وغدا أو بعد غد تلحقين بي : وأكون بانتظارك في عين شمس ومعني كل المعدات اللازمة ، فأرسل مرقس ليأتي بك وبأهله ، ففسر معا الى حيث نريد ، وليكن خروجك متكررة » .

فعظم عليها الفراق وما وراءه من الفرار فبهتت ولم تجب : فحمل ذلك منها على محمل الحياء ، ودعا مرقس ، ثم ودعا أرمانوسة وخرجا ، وظلت هي في حجرتها وحيدة ، وقد عظم عليها الامر ، كأنها في حلم ، وعادت اليها هواجسها ، وشعرت بحال والدها وما بينهما من الرابطة ، وحبها لها ، فكيف تتزوج بلا علمه ؟ وكيف تهجره الى الابد ؟ وتصورته حاله بعدها . ثم تحول ذهنها الى أركاديوس وحبها له ، وما قاسته لأجله ، فانشرح صدرها انشراحا أشبه بلهب أضاء بفتة في ليل دامس ثم انطفأ . فأخذت في البكاء . وكانت بربارة في شاغل من أمر البيت ، تعد معدات السفر وتجمع المتاع اللازم مما خف حملة وغلا ثمنه ، فعادت الى الغرفة لتسألها عن شيء أشكل عليها فرأتها تشرق بدموعها ، فهست بها وقالت : « ما بالك يا سيدتي تعودين الى البكاء وقد تم لك فوق ما كنت تتمنين ، فأركاديوس زوجك ، وقد قيل : (ما يجمعه الله لا يفرقه انسان) . ولم يبق له رقل ولا ابنه سلطان عليك ، لخروج البلاد من قبضته ؟ » .

فتهدت أرمانونسة وقالت : « آه يا بربرة ! لا أدري أين هي السعادة ؟ فقد كنت أحسبها في لقاء الحبيين فقط » فلما ظفرت به ، نقصتي فيه السعادة ، فما أنا بسعيدة يا بربرة ! » •

قالت : « ولماذا ؟ » • قالت : « أتسأليني وأنت أعلم الناس بحال أبي الذي لو فتشت قلبه وبحث بين جوارحه لم تجدي غير أرمانونسة ؟ فأنا تعزيتيه في أواخر أيامه • كيف يمود من تكاليف حياته غدا ولا يراني في البيت ؟ ما الذي يخطر في خاطره ؟ واذا عرف بعد ذلك سر غيابي الا يعيش بقية عمره حزينا كئيبا ؟ أأرضى له ذلك ؟ أليس هذا عقوقا مني ؟ قد كنت يا بربرة تائهة وعلى عيني غشاوة • كان لهفي على أركاديوس وشوقي الى لقاءه قد شغلاني عن بري بأبي ، ولم أكن أتوقع الخروج من بيته هربا على هذه الصورة » •

وكانت أرمانونسة تتكلم وهي تبكي ، وبربرة مصغية لا تبدي حراكا وكأنها أفاقت هي الاخرى من غفلة ، ولسان حالها يقول : « لقد صدقت » • فلما أتمت أرمانونسة كلامها ظلتا صامتتين برهة ، ثم قالت بربرة : « وما العمل يا مولاتي ؟ ان أركاديوس لا يرضى الاقامة مع أليك بعدما ظهر له من أمر الحصن وتسليمه » •

قالت : « لا أدري يا بربرة ، انجديني برأيك ، فاني لا أعني شيئا » • قالت : « دغيني أفكر في الامر ، وقومي الى الحديقة روعي عن نفسك ونزهي طرفك ، وان غدا لناظره قريب » •

فنزلت أرمانونسة الى الحديقة ، واشتغلت بربرة بتهيئة الممدات ، وهي لا ترى بدا من السفر ، لعلها أن تأخيره يحبط كل ماسعهم • وقد عولت على استرضاء المقوقس واستعطافه بعد انقضاء الحرب •

* * *

لم يفض لأرمانوسة جفن في تلك الليلة لما تقاذفها من الهواجس وما تولاهما من التردد ، وفي صباح اليوم التالي نهضت لصلاتها المعتادة فسمعت لغطا ووقع خطوات عرفت أنها خطوات بربرة . فتوقعت دخولها عليها ، وهي تدخل بلا استئذان . فلم تدخل حتى أتمت أرمانوسة الصلاة . فقالت لها : « ما وراءك يا بربرة ؟ » . قالت : « ما ورائي الا الخير ، لقد جاء المبشرون بقدم سيدي المقوقس الآن » .

فبغت أرمانوسة ، وكانت لا تزال جاتية نصلي . وصاحت : « جاء ؟ أواه ! ما الذي جاء به ؟ ما العمل يا بربرة ؟ اني ارتعش خوفا وازداد خفقان قلبي . وكنت قد ارتحت قليلا وأنا أصلي - لأنني توصلت الى الله وألقيت حملي عليه » . قالت ذلك واستلقت على السرير . وهي لا تدري كيف تقابل والدها . فقالت لها بربرة : « لعل الله قد هيا لنا الخير ، سكني روعك » .

فما لبثت أن سمعت وقع أقدامه وقرع عصاه وصوت سعاله في الدار . فازداد خفقان قلبها ، وتحفرت للقيام وركبتها ترتجفان . واذا به قد دخل ، وأسرع اليها وضها الى صدره وقبلها . أما هي فآلقت نفسها على صدره . وتذكرت حنانه فهاجت شجونها وتذكرت ما هي فيه ما لا يعلمه . فغلب عليها البكاء . فجعلت تبكي وتتنحب . فبكى والدها وهو يعجب لحالها . وكان يحسبها تبكي بكاء الفرح . فلما طال بكائها سألها عما يدعوها الى ذلك فلم تجب .

أما بربرة فهت بيدي المقوقس فقبلتها وفلها يحنق مخافة أن تبوح أرمانوسة بسرها . فيتع الجميع في مأزق حرج . فجعلت تلتبس الاعذار عن بكاء أرمانوسة . وتحذرهما خلسة أن تقول شيئا . وقالت للمقوقس : « ان طول غيابك يا سيدي سبب هذا البكاء . فقد تركتنا

والبلاد في حرب ، وسيدتي أرمأنوسة وحيدة هنا ، فهي لا تكاد تصدق أنها تراك ، فغلب عليها البكاء وهو بكاء الفرح » .

قال : « ولكنكم تعلمون الا خوف علينا من هذه الحرب ؟ » .
قالت : « لم نخف الخطر ، ولكننا استوحشنا . فالحمد لله على سلامتك » .

قال : « وهذا ما أشكو منه أنا أيضا ، ولذلك فاني اذا سرت الى مكان يطول غيابي فيه اصطحبتها معي » .

قالت : « عسى ألا يحدث بعد اليوم سفر طويل ، فتبسم وقال :
« لا بد من السفر . واني انسا أتيت لنذهب معا الى الاسكندرية » .
فحقق قلب أرمأنوسة ، وعلا وجهها الاحمرار ، ثم امتنع لونها
حيرة ووجلا ، وأدركت بربرة ذلك ، فقالت للمقوقس : « وما الذي
يدعو الى هذا السفر يا مولاي ؟ » .

قال : « ان العرب الذين دخلنا في ذمتهم : وأنقذونا من ظلم الروم ،
ذاهبون غدا الى الاسكندرية لفتحها ، وقد طلبوا الي أن أصحابهم اليها
لنعد لهم المؤونة بعد طول الغياب ونسهل وسائل النقل . ولما كان شوقي
قد اشتد الى أرمأنوسة فقد جئت لأصطحبها ، ولا خوف علينا لاننا سنكون
بعيدين عن مواقع الحرب » .

فلما سمعت أرمأنوسة ذلك ازدادت حيرتها ، ولبت صامته ، وذكرت
دعائها ربها في صلاتها في الصباح : « لعل الله قد فعل ذلك لأجلي » .
ولكنها لم تدرك الخير في بعدها عن أركاديس ، فسلمت أمرها لله وقالت
لأبيها : « اذهب معك الى حيث شئت » .

قال : « هلسي يا بربرة مري الخدم باعداد ما تحتاج اليه سيدتك من
معدات الاسفار ، فاذا أحبت الركوب على فرس أو هودج أو عربة فليهيئوا
لها كل ما تريد ، وليلحموه في القوارب الى الضفة الشرقية ، ونحن نلتقي بهم

أمام الحصن بالقرب من معسكر العرب ، ليركبوا ونحن في مقدمتهم »
وحولنا حرس منهم حتى تأتي الاسكندرية » . قال ذلك وخرج فنادي
الحراس وأمرهم بأعداد القوارب . فلما خرج قالت أرمانوسة : « ماذا
نعمل يا بربارة لأركاديوس ؟ » . قالت : « تترك له خبرا مع مارية ليوافينا
الى الاسكندرية . فان العرب لا يلبثون أن يفتحوها ، وبعد ذلك تتدبر
سبيلا ينجيك من هذه القلائل » . وسارت بربارة للتأهب فأخذت كل
ما خف حمله وغلا ثمنه . وأطلعت مارية على ما وقع وأوصتها بما تفعله ،
ثم عادت وقد تم كل شيء : فركبوا جميعا وجرت بهم السفن نحو
الحصن ، فالتفت أرمانوسة الى منف تودعها وهي تخاف الا تراها بعد
اليوم . وكانت تظن أن والدها يرجع على الحصن ، فلما دنت منه
أخذت تنظر الى مراميه وأبوابه وأسواره فلم تر أحدا . وتجاوزته السفن
الى معسكر العرب حتى رست عند الضفة ، وكان رجال القبط في انتظار
مولاهم ، فنقلوا الامتعة الى مكان أعدوه لها ، وكانت أرمانوسة قد
اختارت العربة لركوبها فأعدوها لها هناك ، ولكنها عدلت عنها الى
السفر في النيل . ونزلت أولا في خيمة ومعهما أبوها وربارة . وكان
عمرهم بالسفر ، وقد أمر بتقويض الخيام وتحليل الاحمال الى
الاسكندرية ، فلما علم بمجيء المقوقس مر بغيمته فحياء ، ورحب به
وبمن معه . وجلس اليه يستشير في الطريق الذي يختاره في الذهاب الى
الاسكندرية . ودار بينهما الحديث في شتى الشؤون ، والمقوقس يصف له
بواسطة الترجبان الطرق وقوات الروم والاماكن الحصينة عندهم ،
وبربارة مشغولة بالحديث مع أرمانوسة ، ورجال عمرو مشتغلون بالتقويض
والتحميل .

وفي الصباح التالي أرسل المقوقس أرمانوسة وربارة ، ومعهما بعض
الحاشية والخدم ، في سفن تسير في النيل ، على أن يوافيهن الى مروط .

وفي الضحى أقلع العرب والمقوقس وحاشيته قاصدين الاسكندرية . وكان المقوقس يتقدم العرب مسافة يوم أو نحره ليصلح الجسور ويسهل الطرق ويهيء ما يحتاجون اليه من المؤونة ووسائل الحمل . والروم يفترون أمامهم الى الاسكندرية ، وهي آخر ملجأ يلجأون اليه . فاذا أخرجوا منها لم يبق لهم مقر .



أما أركادايوس فتذكر بلباس جند القبط ، واصطحب مرقس الى حجرته التي كان ينام فيها بالقرب من كنيسة المعلقة ، فمرا بالكنيسة ، وكان أركادايوس يتوقع أن يراها خرابا محطمة الايقونات متهدمة المذابح ، ولكنه بغت لما رآها لا تزال سليمة ، والمسلسون والاقباط يدخلونها ويخرجون منها باحترام ووقار ، فعظم أمر المسلمين في نفسه . ولم يكن مرقس أقل استغرابا منه ، لأنه لم ينس ما فعله جند الروم في تلك الكنيسة . يوم جاءوا لاحتلال الحصن منذ بضعة أشهر . وأركادايوس معهم . فحدثته نفسه أن يذكر أركادايوس بذلك . ومشيا في الكنيسة لا يعترضهما أحد ، لأن أكثر الناس هناك يعرفون مرقس لعلاقته بالمقوقس ولدخوله معسكرهم مرارا . وفيما هما ماشيان لقيتهما الراهبة التي كانت قد حفظت كتاب البطريك بنيامين للمقوقس حتى أخذته بربارة لتوصيله اليه . فلما رأت مرقس هشت له واستقبلته محبة وهي تبسم مستبشرة ، فلم عليها وسألها عن حال الراهبات ، فقالت : « لشكر الله على نجاتنا من الروم (ولم تكن تعلم رفيقه رومي) وأبشرك يا بني بأن البطريك بنيامين حبيينا التقي الورع سيأتي عما قليل » . فتجاهل مرقس قولها اخفاء لقصة البطريك فقال لها : « كيف هؤلاء العرب ممكن ؟ » . قالت : « انهم من خيرة

الناس ، وقد كنت أخشى أن يفعلوا في هذه الكنيسة ما فعل الروم يوم دخلوها ، فسا شعرت الا والامير نفسه قادم الينا يطمئنا ويخفف عنا ، ويقول : (لا بأس عليك) . فلما آنتت فيه هذا اللطف دعوت له وطلبت اليه أن يستقدم الينا البطريك بنيامين ، فوعدني خيرا حفظه الله وأدام سلطة العادلين » .

وكان أركادايوس يسمع كلامها وهو يتقد غضبا ، ولكنه علم أن اطلاعا على أمره لا يخلو من الخطر الشديد فسكت . وقد شعر بما كان يقاسيه الاقباط من العنف والاستبداد في أيام دولتهم . ونظرا سائرين حتى دخلا الغرفة . وبحثا فيما بقي من الاثاث ، فوجدا السلسلة والصليب في بعض أركان الحجرة ، لم يمسهما الفاتحون ، فتناولهما أركادايوس وقتل راجعا ، وكان الليل قد أسدل نقابه . وفي اليوم التالي أهدم مرقس الى أرمأنوسة ، وكانت قد خرجت من منف . فلا تسل عن حاله لما عاد مرقس وأنبأه بالخبر ، فانه استعاذ بالله ، واسودت الدنيا في عينيه ، فقال له مرقس : « لا تجزع ان سيدتي أرمأنوسة في حفظ وأمان ، لا خوف عليها في صحبتها والدها ، فاذا رأيت أن تسير الى الاسكندرية فتلقي أباك وتخبره بما أنت عازم عليه فافعل ، فلعل القلوب تصفو . وأنا أذهب الى سيدتي أرمأنوسة لأكون بمعيتها حيثما توجهت ، وأتيك بأخبارها وأتيها بأخبارك ، حتى ينقضي أمر الاسكندرية ، فتكون مصر أما للروم وأما للعرب ، وفي الحالين أنت لأرمأنوسة وهي لك . فهي لا تلام على ذهابها مع أيها . وهو لا يعلم شيئا من أمركما ، فأرجو أن تتدبر الامر حتى يرتاح ضميرها » .

فقال أركادايوس : « لا لوم عليها ولا تثرِب » ثم فكر قليلا وقال : « اني أعهد في أمر أرمأنوسة اليك ، وما دمت الواسطة بيني وبينها ، فانك لا شك تقوم بما فيه نفعنا » .

قال : « اني عبدكما ، وكل ما أتيت به فهو منكما واليكما ، ولما يكن لي في الدنيا مأرب غير اجتماعكما على سكينه وطمانينة » .
 فقال أركادايوس : « بورك فيك ، وها أنذا ذاهب الى الاسكندرية لعلني ألقى أبي هناك ، أو ألقاه قد ينس من حياتي وسافر الى القسطنطينية .
 وعلى كل حال فاني سأقيم في معسكر الروم لعلني أشفي غليلي من العرب .
 وأما أنت فجنني بخبرها ومكانها بعد أن يصل العرب الى الاسكندرية » .
 فقال مرقس : « ولكن كيف أستطيع الوصول اليك ، والاقباط الآن أعداء للروم ؟ » . على أن في استطاعتك أن تحل هذه المشكلة ، ومشكلة غيابك عن الحصن معا . فتذكر لهم أنني جاسوس على المقوقس ، واني أنباتك بخيائته فلم تصدق وخرجت معي متنكرا للتحقق الامر . فسقط الحصن خلال ذلك » . فوافقه أركادايوس على هذا الرأي .

- ١٤ -

فسطاط عمرو

امتطى أركادايوس جواده وسار قاصدا الاسكندرية في غير طريق الجند ، وقد امتلا بالفوز على العرب والأخذ بالثأر ، وكلما تخيل ذلك انتعشت آماله ، وآثر أن يرى أرمانيوس وقد كلله الظفر ، على أن يفر بها خلصة الى حيث لا يعلم .
 أما مرفس فيمم معسكر العرب بالقرب من بابل ، في المكان الذي فيه جامع عمرو الآن ، فرأى الارض مقفرة ليس فيها الا بقايا الاطناب وما تركه الجند من الالبسة والاسلاب ، ورأى فسطاط عمرو لا يزال

منصوبا في مكانه لا يخفّره أحد ، فعجب لذلك ومشى حتى دنا منه فاذا هو خال ليس فيه الا بعض اليسام المعشش في سقته أو في بعض ثنايا الجدران « فوقف ينظر سنة ويسرة . فراى عبدا يقترب منه عرف أنه من عبيد العرب الذين يقومون بخدمة الجند من احتطاب وسقاية ونحو ذلك ، وقبل أن يصل العبد صاح في مرقس أن يخرج من القسطاط على عجل ، فعجب لذلك وخرج ينتظر وصوله ، فلما وصل سأله بالعربية : وكان قد حفظ بعضها : « ما أمر هذه الطيور وهذا القسطاط ؟ » .

قال : « ان مولانا الامير أمر ببقاء القسطاط منصوبا محافظة على حياة هذه الطيور لانها كانت معششة فيه يوم عزمنا على الرحيل ، فلم يشأ الامير عمرو تقويض هذه الخيمة رفقا بصغارها . وبعد أن أقلع الجند وساروا ، خاف أن يعتدي أحد المارة على هذا القسطاط لجهله سبب بقاءه ، فأمرني بالرجوع والاقامة هنا ريثما يعود هو من الاسكندرية ظافرا حامدا ان شاء الله » .

فأعجب مرقس بالمسلمين وازداد ميلا الى الرضوخ لسلطانهم : ثم سأل العبد عن مسير الجند فقال : « انهم سائرون على رأي المقوقس » . قال : « وهل سار المقوقس معهم ؟ » قال : « انه في مقدمتهم ، بل هو يتقدمهم عدة أميال يهيم لهم وسائل النقل والطعام ، ويهد لهم الطريق . وينشيء الجسور وغير ذلك مما يحتاج اليه الجند في مسيرهم » . قال : « ومتى أقلع المقوقس ؟ » . قال : « بعث أهله في الصباح باكرا ، ثم أقلع الجند في الضحى وهو معهم ولكنه تقدمهم كما أخبرتك » .

قال : « الاتعلم أين سار أهله ؟ » . قال : « لا أدري ، وما يهكم من أهله ؟ » . قال : « أنا من أهل قصره » . قال : « اذا أسرعت أدركت المقوقس والجند لأنهم سائرون ببطء » .

فودعه وسار مسرعا على جواده ، فأدرك العرب قبل أن تغرب الشمس

وقد خطوا رجالهم للسبيت ، فوجه اتباعه نحو خيمة سيده فلم يرها ، فسأل عنه فقيل له أنه على بضعة أميال في المقدمة ، فأسرع حتى بلغ مضربه ، وقد خيم الغسق ، فلم ير أحدا غير الحاشية ، فسأل عن المقوقس وأهله فأجابوه بأنه تحول الى بعض القرى يخبر شيوخها ليعدوا الرجال لخدمة العرب فيما يحتاجون اليه في أثناء مسيرهم لأن رجاله وحدهم لا يكفون ، وقد أرسل بعضهم الى شيوخ القرى في بعض المهام . فقال : « وأين السيدة أرمأنوسة ؟ » قالوا : « أرسلها وخادمتها في سفينة الى بلدة في ضواحي الاسكندرية تقيم مع بعض أهلها رئيسا تنتهي الحرب » .

قال : « ما اسم تلك البلدة ؟ » قالوا : « مريوط » . ففرها وأراد الخروج توا قبل أن يأتي المقوقس ويستبقه معه ، ولكن الظلام منعه ، فتنحى للمبيت في قرية قريبة يعرف فيها صديقا ، فبات عنده وبكر قاصدا مريوط .

أما أرمأنوسة فكان أبوها قد أرسلها الى مريوط وقاية لها من غوائل الحرب فسارت في مياه النيل المبارك ، وقد أعد لها الملاحون سفينتها وجزوها بكل ما تحتاج اليه من أسباب الراحة : فجلست في صدر السفينة وبربارة بين يديها ، ثم تذكرت حالها وأخذت تفكر في أركادبوس وما قد يبدو منه بعد علمه بسفرها ، وتوقعت أن يأتيها مرقس بالخبر ، وكانت تخاف أن يكون مكذرا ، وكلسا فكرت فيه تقلب شعورها بين الخوف والاضطراب والارتياح والبغته . وما زالوا سائرين يرسون ليلا ويقفلون نهارا حتى أدركوا مريوط بعد بضعة أيام ، وكان مرقس قد سبقهم ، ووقف في انتظارهم عند مرسى السفن ، فرأى أهل المدينة يتأهبون لاستقبال ابنة حاكمهم ، وقد وقفوا عند الضفة فوقف معهم .

* * *

فلما رسا القارب تقدم بعض النسوة من أعيان البلدة ، فاستقبلن أرمانونسة ، وبربارة تصحبها ، واشتغل الرجال بنقل الامتعة ، وأرمانونسة تسلم سلاما رقيقا ، والكل ينظرون اليها ويعجبون بهيئتها وجمالها . أما مرقس فلم ير الظهور أمامها حيثئذ لئلا يضرها الاضطراب أو البغته ، وكانوا قد أعدوا لها مركبة ذهبت فيها الى منزل شيخ البلد . فسار مرقس في أثرها حتى اذا دخلت استأذن عليها فأذنت له ، واستقبلته ببربارة أولا وسألته . فقص الخبر عليها فدخلت به الى أرمانونسة ، فعلمنا رآته خفق قلبها واستطلعت الخبر فطمأنها ، وروى لها ما تم عليه الاتحاق مع أركاديوس ، ففكرت قليلا ثم قالت : « أذهب أركاديوس الى الاسكندرية للحرب ثانية ؟ »

قال مرقس : « نعم يا مولاتي ، ولكنه حريص على حياته ، والله حارس له » .
فنظرت الى بربارة وقالت لها : « ألم يقسم لي أنه لن يشهد حربا ؟ »

فقال مرقس : « العفو يا سيدتي » وما الذي يفعله وقد رأى نفسه وحيدا وأنت مع سيدي المقوقس ؟ »

فقالت والدمع يكاد يتناثر من عينيها : « نعم ان الذنب ذنبي . نعم أنا تركته وهو لم يتركني » . وحولت وجهها فأدرك مرقس انها تريد الاختلاء ببربارة فخرج من الغرفة . فما كاد يخرج حتى أطلقت سراح دموعها وقالت : « لقد ارتكبت ذنبا كبيرا ، ولكن ما العمل ؟ .. آه ماذا أفعل ؟ أكنت أترك أبي وأهجر بيته » وقد رباني وكفلني وأجني وترك كل شيء من أجلي ؟ آه .. آه .. » . وأجهشت في البكاء ثم قالت : « ولكن أركاديوس .. أركاديوس حبيبي ... » . وكانت ببربارة مطرقة تفكر صامته ، فلما قالت أرمانونسة : « حبيبي » رفعت رأسها

وقالت : بل هو الآن أقرب حبيب » • فأدركت أنها تذكرها باقتراحها ،
وأنة أصبح زوجها فقالت : « نعم انه أقرب من الحبيب وألصق من الأخ
وأعز من الروح » •

فقالت بربارة بصوت منخفض : « بل هو أقرب من الاب » تذكري
قول الكتاب المقدس » • فعلمت أنها تذكرها بأمر الكتاب القائل : « يترك
الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته » • فقالت لها : « ولكنك لا تجهلين يا
بربارة أن اكرام الوالدين من وصايا الله العشر » • فأفحمت بربارة
وصمت ، ثم قالت : « هلم يا سيدتي الى الاعتال وتبديل الثياب
والاستراحة من وعناء السفر ، وأنا أضمن لك الراحة ، وهي لا تكون
الا بالوفاق بين والدك وعريسك ، وعلى الله التوفيق » • فلما سمعت
أرمانوسة قولها أشرق وجهها ولكنها استبعدت ذلك الوفاق وظلت صامته ،
ثم تحولت الى حجرتها وخدم المنزل ينتظرون أوامرها •

أما مرقس فظل في حديقة المنزل ينتظر اشارة أرمانوسة حتى خرجت
بربارة وأوصته بأن يذهب الى الاسكندرية ويحتال في الدخول على
أركاديوس ويطمئنه على أرمانوسة ثم يعود فيطمئنها عليه •

فاستراح بقية ذلك اليوم ، وأصبح في اليوم التالي فلبس لباس
الروم وحمل بيده علما أحمر كان أركاديوس قد أوصاه بحمله ليعرفه
به عن بعد فيدعوه اليه • فلما أطل على أسوار الاسكندرية وقف
على مرتفع فأشرف على المدينة وقصورها ، ووراءها بحر الروم يرغبى
ويزبد ، وقد علا هديره ، ووقف الجند على الأسوار في مرابهم
وأبراجهم ، وخفقت الاعلام فوق رؤوسهم ، فهاله منظرهم ، وخاف أن
يرميه أحدهم بنبل أو سهم ، فسار مبتعدا على حذر حتى أتى الموضع
الذي عينه له أركاديوس ، ولم يكذب هناك هنية حتى رأى رجلا
خارجا من المدينة يناديه ، فأسرع اليه فاذا هو رسول أركاديوس في

انتظاره ليأتي به اليه فدخل المدينة ، ولم تكن هذه أول مرة دخل فيها الاسكندرية . ولكنه رأى فيها هذه المرة غير ما عهده فقد تراجعت الاقدام ، لما تقاطر اليها من جالية الروم من سكان وادي النيل بعد فتح الحصن ، فازدحمت أسواقها بهم ولا سيما سوق المأكولات والمشروبات ، ومشى يتأمل المساكن وحال الناس من الاضطراب ، فوصل الى منزل عرف أنه منزل يحيى النحوي وكان قد سنع حديثه من زياد العربي ، فأحب أن يراه لأنه على رأي المقوقس فسأل رفيقه قائلاً : « أليس هذا بيت يحيى النحوي ؟ »

قال : « بلى ! هذا هو بعينه ، ولكنه ليس هنا الآن » فقد هجر الاسكندرية منذ اضطهده القوم أكثر من ذي قبل . فقال : « والى أين ذهب ؟ » . قال : « لا أدري ، لعله يقيم في بعض الاديار أو بعض المكتبات » .

ثم مل مرقس السير فقال : « الى أين نحن ذاهبان ؟ » . قال : « نذهب الى القائد أركادايوس » .

قال : « وأين هو ؟ » . قال : « هو في الملعب مع سائر القواد يلعبون بالأكر ترويضاً لأجسامهم ، وكذلك يفعلون في كل صباح » . قال : « وما أدراك اني آت اليه ؟ » . قال : « علمك الأحمر ، لأن مولاي القائد أركادايوس أوقفني عند باب الحصن ، وقال اذا رأيت رجلاً حاملاً علماً أحمر ماراً بجانب السور فجنني به ، وقد أوصاني الا أكلمك أثناء الطريق ، وهذا شأنا في مثل هذه الحال ، فالاولى السكوت لئلا يرانا أحد فيشي بنا فأعاقب » .

فسكتا وسارا حتى أتيا الملعب في أطراف المدينة من جهة البحر ، فدخل الرسول أولاً ، ثم دخل مرقس الى ساحة كبيرة فرأى أركادايوس قادماً نحوه . وقد ترك رفاقه القواد جلوساً على كراسيهم وعلى دكة من

الرخام قائمة على أعمدة منقوشة « وفيهم بطريق كبير على كرسي ضخم مموه بالذهب الخالص . فلما التقى بأركاديوس هم بتقيل يده ، فدعاه أركاديوس الى السير معه ، حتى دخلا غرفة من غرف الملعب ، وسأله عن أرهانوسة ، فقص عليه خبرها وخبر الجند ، فقال أركاديوس : « الذي أعلمه أن العرب حاربوا جندنا في مريوط » .

قال مرقس : « تلك مدينة ، وهذه قرية والاسمان متشابهان » .
فسر لوجودها في مكان أمين بعيدا عن المعسكر وأوصاه أن يعود اليها بالتحية ويطمئنها .

وكان البطريق وقواده قد علموا بقدم مرقس جاسوس أركاديوس ، وأنه أتاه بأخبار العرب ، وحركاتهم فلما خرج أنصتوا لسامع ما سيقصه عليهم أركاديوس فأطلعهم على ما علمه وزاد فيه وهذب .

فقال البطريق : « يلوح لي أن جاسوسك عالم بدخائلهم » .
قال : « انه يا مولاي واحد منهم ، وهو أقرب القبط الى للمقوقس ، ولكنه لا يرى رأيه في خيانة الدولة ، وسيأتينا بالاخبار ويبين عدد جند العرب وكل حركاتهم ومقاصدهم » .

فضحك البطريق ضحكة ارتج لها بطنه وأجفل سامعوه وقال :
« ما عسى أن يكون أمر هؤلاء البدو الحفاة ؟ أثلث هؤلاء أقمنا المتاريس ونصبنا المجانيق وأعدنا الرجال ؟ » . قال ذلك وأغرق في الضحك . . وفي ضحكه معنى لم يدركه من الحضور غير أركاديوس ، فاستشاط غيظا لعله أنه يوبخه لخروج الحصن من أيديهم الى تلك الشرذمة من العرب الحفاة . وكان البطريق قد وبخ أباه الاعرج عند عودته من الحصن وهدده ولامه على انكساره وفراره بمن معه من الرجال ، وأرسله الى القسطنطينية ليرى الامبراطور هرقل رأيه فيه ، وكان أركاديوس عنه

وصوله الى الاسكندرية : واطهاره العذر الذي تم الاتفاق عليه مع مرقس لم يؤانس ارتياحا من البطريق ، لأن هذا لا يريد أن يكون لغيره يد في قهر ذلك العدو ، ولم يصرح بذلك ، لكن عبارته نمت على ما في ضميره .

أما أركاديوس فلم يكن يجهل شيئا من سر البطريق ، ولكنه تجاهل التماسا لنيل بغيته .

وبعد بضعة أيام جاء العرب وعسكروا عند أسوار الاسكندرية وحاصروها ، ومرقس يتردد سرا بين أركاديوس وأرمانوسة .

واستمر الحصار وأركاديوس لا يدري ما الذي يصيبه من عواقب تلك الحرب ، فان كانت الغلبة للروم « وهذا ما يتمناه قلبه ، خاف أن ينتقم الروم من المقوقس ، فيفتكوا به وبأهله ، فيصيب أرمانوسة سوء يستطيع دفعه ، واذا كانت الغلبة للعرب وتصور دخولهم الاسكندرية واستيلائهم على قصورها وخزائنها وأسواقها وخيراتها اسودت الدنيا في عينيه ، ولكنه كان يرى من خلال تلك الظلمات سلامة أرمانوسة تشرق كالقوس في الديجور ، فلبث ينتظر ما يجيء به القضاء .

وطال الحصار أشهرا ، ومل العرب الانتظار فأجمعوا على الهجوم وتسلق الاسوار ، وجاء من أبلغ أرمانوسة الخبر فخافت على أركاديوس ، فأرسلت من جاءها بمرقس فقالت له : « هل أتاك خبر العرب ؟ » .

قال : « قد علمت .. ثم ماذا ؟ » .

قالت : « ماذا علينا أن نعمل وأركاديوس في المدينة في خطر القتل ؟ » .

قال : « أحتاج مرقس الى تنبيه وقد وقف حياته وسخر عواطفه وقواه وجوارحه لخدمتك ؟ اني محتاط محاذر ؟ فآلتي عنك القلق واتكلي على الله » . ثم ودعها وقصد الى معسكر العرب وتتهم خططهم ، فلملم أنهم مهاجمون المدينة في الصباح الباكر من جانبها الغربي ، ففتقت له

وسيلة ينقذ بها أركاديوس من الخطر ، فذهب الى الاسكندرية على عادته ، ووقع ذلك في عيد مريم العذراء . فلقية أركاديوس وسأله : « ما خبرك ؟ » .

قال : « كانت سيدتي قد نذرت يوم حصار الحصن أن تجعلك توقد شموعا للعذراء مريم بيدك لكي ينقذك الله من الخطر فنجوت : وشعلتم بالاسفار والنذر باق لم يوف . وقد رأت سيدتي بالامس مريم العذراء كما يرى النائم ، فعتبت عليها هذا الاهمال : فافاقت مذعورة للاخلاف في وفاء النذر وأنت في خطر . ولما كانت ذكرى سيدتنا مريم تقع غدا فاستحلفك بمحبتها أن تأتي معي الى كنيسة العذراء في الصباح لتفي بالنذر » .

قال : « وأين هي الكنيسة وكيف آفارق حصني ؟ » .
قال : « أما الكنيسة ففي طرف المدينة بالقرب من الراجية التي كانت المكتبة عليها قبل احتراقها ، فلنذهب معا ، ونمود قبل الضحى . أما حصنك فقد مضى أشهر والعرب ساكنون لا يبدون حراكا ، فهل يتفق أن يهجموا اليوم وأنت غائب ؟ . فهب انك لا تزال نائما » . فأذعن أركاديوس .
وفي فجر العد أيقظه مرقس واخترقا المدينة حتى انتهيا الى كنيسة العذراء . فقرع مرقس الباب وطلب القسيس ، فاستغرب هذا لان الكنيسة للأقباط اليعاقبة ، والذين أرسلوا يدعونه من الروم الملكيين ، ففتح الباب بفتح ضخم ويداه يرتجفان ضعفا وخوفا ، ودخلا من باب ضيق . فكلمه مرقس بالقبطية وطمأنه ، فرحب بهما ، فأفهمه مرقس أنها آتيان لوفاء نذر للعذراء والصلاة وضاءة الشبوع ، وأوعز اليه أن يطيل الصلاة اجابة لرغبة الطالب ، فوقما وأركاديوس قلق على معقله ، وخاف أن يراه أحد من الروم هناك فيشي به الى البطريق . وكان مرقس يحتال في أثناء الصلاة فيخرج من الكنيسة ويتسلق الاكمة فوق أنقاض المكتبة فيشرف على

الاسوار ، فعلم من حركات الجند هناك أن العرب قد هاجموا المدينة باكرا جدا ، ولم يأذن باتهاء القداس حتى انقضى الهجوم ورجع العرب عن الاسوار . فما كاد القسيس يفرغ من صلاته حتى خرج أركاديوس مسرعا يلتمس السور ، وكان الوقت ضحي ، ومرقس معه فما وصلا الى الطرق العامة حتى رأيا الناس في هرج يهرعون الى قصر الحكومة فبغت أركاديوس واستفهم ، فأخبروه الخبر ، فأسرع يلتمس معقله . ومرقس في أثره فمرا بدار البطريق فرأيا الناس يتزاحمون بالمناكب رجلا ونساء كأنهم يتطلعون الى شيء غريب هناك ، فأل مرقس عن السبب فعلم أن ثلاثة من العرب دخلوا المدينة فقبضوا عليهم وسيقوا الى الحاكم فقال أركاديوس : « وهل دخل العرب الاسكندرية ؟ » . قالوا : « كلا ، ولكن هؤلاء الثلاثة دخلوها من ثغرة في السور ، ثم آقتلت الثغرة فظلوا أسرى ، وتقهقر رفاقهم وانتهى الهجوم » .

* * *

نظر أركاديوس الى مرقس نظرة استفهام ، ولسان حاله يقول : « ما قولك في هذا الاتفاق الغريب ؟ » . فقال مرقس : « هلم بنا يا سيدي ندخل الدار لعلنا نعرف أحدا منهم » . فقال أركاديوس : « كيف أدخل ؟ » . قد يراني البطريق ، وعهده بي اني مقيم في حصني ؟ لا أقول هذا خوفا منه ، ولكني لا أريد أن يظن بي الجبن أو الخيانة » .

فقال مرقس : « ان الهجوم لم يكن من جانب حصنك ، وما أنت بمقصر فضلا عن أن الواقعة انقضت ، ورجع العرب الى معسكرهم ، وانظر الى قوادكهم كيف تجمعوا في الدار لمشاهدة الاسرى . ألت واحد

منهم ؟ فاجعل انك جئت فيمن جاء منهم • وثق يا مولاي ان صلاتنا في هذا الصباح هي التي ساعدت على رد العرب وحفظ أسوار المدينة ، فان للسيدة العذراء كرامة » •

فسكت أركاديوس وتحول الى الباب المعد لكبار الضباط فوسعوا له ، فدخل ودخل مرقس معه ، فرأيا صحن الدار غاصا بالناس من الاعيان والوجهاء والقواد • فانخرطوا في سلكهم وتطلعا فرأيا ثلاثة من العرب في لباس متشابه جيء بهم الى القاعة التي فيها البطريق • وتقرس مرقس فيهم عن بعد فلم ير غير أقيمتهم ، فلما وصل الناس الى باب القاعة لم يأذن الحجاب لغير كبار القواد • فدخل أركاديوس • ودخل مرقس معه • وجلس الجميع على كراسيهم بين يدي البطريق ، وأوقفوا الاسرى في الوسط • وكان مقعد البطريق على دكة في الصدر • ومجالس القواد على كراسيهم الى يمينه ويساره ، وأرض القاعة مرصوفة بالرخام الملون : والجدران مزينة بالرسوم الجميلة على أبداع ما رسم الرسامون •

وما كاد ظر مرقس يقع على الاسرى حتى عرف أنهم عمرو بن العاص ، ووردان • ومسلمة بن مخلد • فنظر الى أركاديوس فرآه يرنو اليه كأنه يبتقدمه فتقدم ، فهمس أركاديوس في أذنه : « أليس هذا هو الامير عمرو ابن العاص ؟ » • قال : « بلى » •

فسر أركاديوس بأسره ، ثم ذكر يوم رآه للمرة الاولى في بلييس ، وما كان من حمايته أرمانونسة وتأمينها ، وكيف أرسلها الى أبيها سليمة آمنة ، فلبث صامتا يترقب •

أما عمرو فكان ينظر الى البطريق ، ويلتفت يمنة ويسرة لا يعبأ بما يبرق أمامه من السيوف ، وما يتلألأ على رؤوس الجعاة من القلنسوات المزخرفة ، أو الخوذ الالامعة ، أو الثياب الموشاة بالالوان الزاهية ، ووقف رابط الجأش ورفيقاه الى جانبيه ، وتطلع بهدوء وسكينة في وجوه

الجالسين ، فعرف مرقس ، وتأمل وجه أركاديوس فخيل اليه أنه يعرفه »
ولكنه لم يذكر أين رآه . ولم يعجب من لقاء مرقس هناك لانه كثيرا ما
سمع بخروجه الى الاسكندرية ليتجسس للمقوقس .
فصاح البطريق يطلب الترجمان قائلا : « أين الترجمان ؟ أين زياد
العربي ؟ » .

فدخل زياد ، فعرفه عمرو ، وكان قد عاد الى مولاه يحيى النحوي
بايعاز من عمرو بعد فتح الحصن ، ليكون عيناً له عند الحاجة » فوجد الروم
قد زادوا في اضطهاد يحيى حتى لم يعد يستطيع الظهور ، فاختبأ ، والروم
يعتقدون أنه فر من الاسكندرية . فتظاهر زياد بنصرة الروم ، وكانوا
في حاجة لمعرفة اللسان العربي ، فصار في جملة المترجمين . وقرر زياد في
الجالسين فرأى أركاديوس ومرقس ، فتذكر ما مر بهم جميعا أمام
حصون بليس ، وان عمروا أحسن اليهم جميعا .
وخطب البطريق الاسرى بلسان زياد قائلا : « ها أنتم أولاء أسرى
في أيدينا ، فقولوا : ما الذي جاء بكم الى بلادنا وحملكم على قتالنا ؟ » .
فأجابه عمرو بقلب لا يهاب الموت : « أتينا ندعوكم الى الاسلام
فيكون لكم ما لنا ، أو أن تدفعوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، والا فلا
مفر عن قتالكم ، فان الله يأمرنا بجهاد عدونا الا اذا أجبتمونا الى أحد
الامرين » .

فلما فهم البطريق قوله عجب لألفته وشهامته ، وقد كان يتوقع
أن يراه يتذلل ويستعطف ، فارتاب في أمره ، والتفت الى أعضاء مجلسه
فاذا هم في مثل حاله ، فقال لهم باليونانية : « يظهر من أشة هذا الرجل وكبر
نفسه أنه من وجوه العرب ، وقد يكون من كبار قوادهم ، فلا بد لنا
من قتله » . ودار الحديث بين القواد في مثل هذا المعنى ، فخاف مرقس
أن يقتل عمرو فيفشل جند العرب ويتغلب الروم ، فتعود العائدة على

المقوقس وأرمانوسة ، فمال الى انقاذ عمرو . أما أركاديوس فقد هم بأن يصرح بما يعلسه عن عمرو . غير أن مرقس تقدم اليه وقال : « أذكر يا مولاي انه لولا هذا الرجل لكنت سيدتي أرمانوسة ترابا أو في قبضة يوفنا الخائن ، فلولا ه قبض عليها وسافر بها الى القسطنطينية غنية باردة ، فأنقذها منه وحفظ حياتها ، وأنا كنت الوسيط في ذلك كما تعلم ، فهي مدينة له . أفيليق بنا أن نساعد على قتله ؟ وهب أنهم قتلوه ، فعند العرب كثيرون غيره » . فسكت أركاديوس ، ولكنه لم يستطع البقاء في القاعة . فخرج . وظل مرقس وفي قلبه وجل على حياة عمرو . زاما زياد فكان ينظر الى عمرو بطرف خفي كأنه يلومه على مجازفته . وكان وردان يعلم اليونانية فلما فهم ما قاله البطريق أحب أن يفهم عمرو فلم ير خيا من أن يلكمه متنها . فلكنه وصاح فيه : « ما بالك تهذي يا رجل ؟ ومن أنت حتى تنسب الى سادتك ما قد نسبت ؟ ومن أقامك متكلما عنهم ؟ وما أدراك بأغراضهم ؟ ولست الا من صعاليكهم » . فسأل البطريق زيادا عما يقول وردان . فترجبه للبطريق وفخسه وزاد فيه ما يرفع الشبهة عن عمرو . فازداد البطريق تعجبا لحدود تلك الجرأة من صعلوك . فقال لوردان : « وما غرضكم الآن ؟ » . قال . « اعلم يا سيدي ان أميرنا أعزه الله أقرب الناس الى المسألة . ولكنه يود قبل النكوص أن يعقد مجلسا من كبار الجيشين يتفقون على شروط الهدنة فاذا أذنت يرجوعنا اليه أخبرناه بما لقينا من حسن الوفاة وكرم الاخلاق » .

فضحك البطريق وقال : « شروط الهدنة ؟ أي شروط تريدون ؟ سوف نعيدكم عن أعقابكم القهقري . قولوا لأميركم ان حامية الاسكندرية ليس فيها أحد من القبط ، وانما هي كلها من أبطال الروم . وليعلم انه لولا خيانة المقوقس ما استطاع البقاء في وادي النيل يوما واحدا ،

وسيلقي ذلك الخائن منا ما يشيب لهوله الاطفال . وواقه ومريم العذراء
لأجعلن لحسه ولحم أهله طعاما للأسماك . عودوا الى أميركم بذلك » .
فهاج غضب عمرو لتلك اللهجة . ولكن زيادا ووردان ومرقس
كانوا ينظرون اليه خلسة يخفون عليه مخافة أن يصيبه الاذى . فصمت
ولم يجب . وأشار البطريق أن يخرجوهم . فعادوا بهم الى باب المدينة
وأطلقوا سراحهم . فنجوا .

أما أركاديوس فقال لمرقس بعد خروج عمرو : « لقد ارتكبت عارا
كثيرا يا مرقس لأنني كنت أستطيع قتل أمير العرب ولم أفعل » .
فقال مرقس : « كيف تقتله وكنت أسيرا عنده ولم يقتلك ؟ » .
قال : « ولكنه لم يطلق سراحي » .

قال : « ألم يطلق سراح سيدتي أرمأنوسة ؟ ألم ينقذها من خيانة
يوقنا اللعين ؟ ألم يكن معي العرب الى هذه البلاد سبيا لنجاتها من
قسطنطين بن هرقل ؟ لا تندم يا سيدي على خير فعلته جزاء لخير
نلت . وزد على ذلك أن مثلك يفتخر بقتل الامراء في ساحة الوغى وليس
في أغلال الحديد » .

فأفحم أركاديوس وسكت . ثم تحول مرقس الى زياد فسلم
عليه وأطلب في حسن ترجمته . ثم ودع وانصرف . ولم يكن أركاديوس
قد رأى زيادا في الاسكندرية منذ رجوعه اليها . فلما لقيه دعاه اليه
وفال له : « عهدتك في جند العرب . فما الذي جاء بك ؟ » . قال :
« عدت الى بلدي . فقد كنت في جند العرب لمهمة ورجعت » . فلم يشأ
أركاديوس أن يطيل الحديث لعلسه باطلاع زياد على كثير من سرائره
في حب أرمأنوسة .

وخرج عمرو من السور ومعه رفيقه وكأته في حليم لا يكاد يصدق
انهم نجوا ثم التفت الى وردان وقال له : « ألم تر يا وردان رجلا

قبطيا كنت أعهد في خدمة المقوقس ، وأخالي رأيت مرارا ؟ » .
 فقال وردان : « نعم رأيت وعرفته فهو مرقس الذي جاءنا مع زياد
 العربي يوم وصلنا الى القرما . ورأيت زيادا وهو يترجم كلامك للبطريق ،
 لقد سررت والله بترجمته ، لأنني رأيت يترجم ويفسر على هوانا ، ولكنني
 رأيت رجلا بالقرب من مرقس لا أظنك عرفته ، أما أنا فأراني عرفته من
 قبل ، ولعله الرجل الذي قبضنا عليه خارج بليس ولم نعرف حقيقته »
 ثم فر منا أثناء الهجوم ، ويلوح لي انه من كبار القواد ، ويستدل على
 كبر نفسه من كتمان امره ، ولا ريب في انه عرف انك الامير ، وتلك
 مروءة أهل الوفاء » . ووصلوا الى المعسكر والجند يبحث عنهم ، فسروا
 بقدمهم ، فجلسوا يقصون الخبر عليهم وهم فرحون .

* * *

وكان بعض أهالي الاسكندرية قد ملوا الحصار ، فأخذوا في الفرار
 بالسفن والزوارق . ولم يكن أركادايوس غافلا عن حال الاسكندرانيين
 وضعفهم وخوفهم وهجرتهم ، ولكنه بقي ثابت الجأش صابرا على اداء
 واجبه ، مع علمه بأنه لا يستطيع فرارا ، ولا هو يبغيه ، لأن قلبه عالق
 بمصر ، فقضى الشهر الاخير من الحصار في قلق شديد ، يظل ليلته ساهرا
 يفكر في حاله وحال الاسكندرية ، فاذا خيل اليه أن العرب فتحوها تحير
 في أمره وعز عليه أن يقابل أرمانيوس مغلوبا على أمره ، كما يعز عليه
 أن يرى أباه وهو الذي خانهم ونصر عدوهم . وفي ليلة من الليالي
 المقمرة طال الليل على أركادايوس ، وعز نومه ، فخرج الى السور . واتجه
 الى الشاطيء يصرف هواجسه وباستنشاق نسائمه لعل النعاس يأتيه ،
 فمر في الاسواق ، وأهلها نيام ، فلم يسع غير نداء الحراس ينبه بعضهم
 بعضا بشعار الليل ، حتى انتهى الى الشاطيء فأحس برودة الهواء ، وتنسم

رائحة البحر ، والتف بعبأته وجلس على صخرة نائمة ، ونظر الى البر
ونور القمر ينعكس على سطحه فينكسر بتحريك الأمواج وينتقل بريقه
من موجة الى أخرى ، وحركة الموج تبدأ ضعيفة خافتة فاذا دنت من
الشاطئ تعظم صوته وأزبدت وتصاعدت منها فقاعات صغيرة تزداد بها
رائحة البحر حرافة ، فاذا لظمت الصخور وعادت متقهقرة وقد تحول
ارعادها الى دمدمة ، كجيش ضعيف هاجم جيشا قويا ، فلما دنا منه
أطلق قتاله وكر راجعا وعدوه ثابت لا يكثر به . وقد سرى هذا عنه
برهة ثم عادت اليه همومه ، وظل يفكر في أمره وفي الحرب وأرمانوسة
حتى شعر بالبرد القارس وبالنعاس فنفض وعاد يلتبس حجرتة
فوق السور .

فلما وصل الى الحجرة وقف له الحراس فسلم وهم بالدخول ،
فاقترب منه أحدهم فعلم أنه يبني أمرا فوقب مصنيا ، فقال الحارس :
« أن رجلا أظنه من أعيان الاسكندرية افتقدك ، وهو في انتظارك » .
قال : « وأين هو ؟ » . قال : « هو في غرفة الحراس » . قال :
« ادعه » .

ودخل حجرتة وقد أضاءها بالشمع ، ولم يكد ينزع القباء والخوذة
حتى عاد الحارس ومعه رجل قصير القامة نحيل الجسم متجمد الوجه
طويل شعر اللحية عريضها وقد وخطها الشيب ، غائر العينين ، وعلى
رأسه قلنسوة العلماء وفي وجهه ملامح الرومانيين ، وتدل قيافته على
الزهد والتقص . فلما دخل تهيئه أركاديوس فوقف وتلقاه بالتحية
ورحب به ، وأجلسه ، وتأمل في وجهه فلم يعرفه ، فغجب لقدمه اليه في
الليل ، واشتدت رغبته في استطلاع حقيقة أمره ، ولث برهة والرجل يردد
أنفاسه يلتبس الراحة من تعب الطريق ، ويتهيأ للكلام ، ثم نظر الى وجه
أركاديوس وقال : « أنت أركاديوس ابن الاعرج ؟ » . قال : « نعم »

ومن أنت ؟ » . قال : « سوف تعلم . ولكنني أسئلك بشرفك وبسن تحب أن تسمع حديثي الى آخره ، فإذا لم تر العسل به أطلقت سراحي فأعود من حيث أتيت . فهل تعدني بذلك ؟ » . قال أركاديوس : « فسن أنت ؟ » . قال : « لا شك انك اذا عرفتني استغربت جرأتي في القدوم اليك . ولكنني جئت خاصحا ، فإذا لم تنتصح عدت وما علي بأس » .

فقال أركاديوس : « قل ما تريد .. ولكن ما اسمك ؟ » . قال : « قلت لك يا ولدي اني سأطلعك على اسمي ، وغاية ما أرجوه منك أن تجيبني عن بعض الاسئلة قبل أن أبوح لك باسمي ، وأنا على الحالين بين يديك » . قال : « أسأل » .

فتنحش الشيخ ومسح وجهه بيده الى أسفل لحيته ، وهو يتقرس في أركاديوس ويتسم ابتساما مقرونا بالحزن ، وقال : « ألت القائد أركاديوس بن الاعيرج قائد حامية الروم في مصر ؟ » . قال : « قلت لك اني هو » . قال : « ولماذا ؟ » .

قال : « لا أدري ، ولعله ذهب اليها ليسأل عن سبب سقوط الحصن في أيدي العرب وهو قائد حاميته » . قال : « وما ظنك بالاسكندرية ؟ » .

فأطرق أركاديوس برهة يفكر ، وهو يحاذر أن يبوح بضعف أمله لنلا يكون الرجل جاسوسا ، ثم قال : « لو اجتمعت قلوب القواد واتحدت كلمتهم وثبتت أقدامهم فانها تمتنع عن جند العرب . ولو كانوا ألوف الألوف » .

قال : « ذلك ما نشكو منه ، ولكنني أسألك عن رأيك ؟ هل تقوى على دفع العرب ؟ » . فقال : « أظنها تقوى » . فقال الشيخ : « وما دليلك على ذلك وأنت ترى الناس يهجرونها ؟ وقد تفرقت كلمتهم وضعف أمرهم ، وما ضعفهم الا من اختلال حكومتهم

• واقسام حكاهم »

قال وقد تجاهل حقيقة الواقع : « وأي اقسام تعني ؟ »
 قال : « أعني الانقسام الذي وقع بعد وفاة الامبراطور هرقل في
 هذه الاثناء وكثرة من ادعوا الحق في الملك وقاموا يطالبون به . فافضى
 الامر الى قسطنطين ابن هرقل ، فقتلوه بالسهم بعد مائة يوم . سقته اياه
 مارتين امرأة أبيه » •

فلما سمع أركاديوس اسم قسطنطين ، وأنه مات ، تذكر انه منافره
 القديم على أرمانيوس . وأتم الشيخ كلامه قائلاً : « وعقد الملك بعده
 لهرقلينة ابنة مارتين هذه ، ولم تمض مدة حتى نصب قسطنطان بن
 قسطنطين » وهم مع ذلك في نزاع دائم فقد تولى كرسي القسطنطينية
 ثلاثة أباطرة في وقت واحد . أليس ذلك مضعفا للزيمه موهنا للقوى ؟
 ما الذي ترجوه من جند هذه حال دولته ؟ كيف يثبت في ساحة القتال ؟
 وكيف يقاوم العدة والرجال ؟ ان الخلل تمكن من هذه الدولة حتى كاد
 يذهب بها . أقول ذلك والاسى ملء فؤادي لأنني ولدت رومانيا ، والدم
 الروماني في عروقي ، والحمية الرومانية في كل جوارحي ، ولكنني
 أرى المستقبل أمامي رأي العين ، وهذا شأن الدول منذ أول العمران
 وهب ان الاسكندرية دافعت العرب ولم يفتحوها ، فهل يستطيعون
 اخراجهم من مصر والاقباط عون لهم ؟ » •

وكان أركاديوس مطرقا يسمع حديث الشيخ ولا يرى ما يدفع به
 حجته ، فلما وصل الى ذكر القبط خفق قلبه . لتذكره أرمانيوس فقال :
 « لا تذكر القبط ، فاني لا أحب ذكرهم ، لأنهم هم الذين أخرجوا البلاد
 من أيدينا الى أيدي العرب ، وهم الذين باعوا دولتهم ووطنهم للغرباء ،
 ولولا ذلك ما استطاع العرب سيلا الى وادي النيل . تبأ لك يا
 مرقس » • قال ذلك وحرق أسنانه •

فتبسم الشيخ والتفت الى أركاديوس كأنه يستمعه اتمام حديثه
ثم قال : « نعم يا ولدي ، ان المقوقس خان دولته وسلم البلاد لعدوها ،
ولكنك لو أنصفته لالتصت له عذرا » .

فقال : « وأي عذر التمسه وقد خان البلاد خيانة صريحة ؟ » .

قال : « انه خان البلاد ولكنه لم يبعها بشئ ، ان المقوقس خان
دولة الروم مضطرا وهو رومي الاصل مثلنا . فما الذي حمله على الخيانة ؟
أطمع في مال أو سلطان ؟ أم رغبة في التقرب من عظيم أو زعيم ؟ كلا ان
المقوقس خان الروم فرارا من الظلم وتخلصا من جور دولتنا واستبداد
حكامنا ، ما الذي ترجوه من حاكم يسمع كلامهم في تحقيره باذنه ،
ويرى قومه يهانون وتهضم حقوقهم أمام عينيه ؟ ويرى كنائسه تقفل
وأيقوناتها تكسر وبطاريكتها ينفون ويقتلون ؟ وكهنتها يزجون في
السجون ؟ وما الذي ترجوه من طائفة ذاقَت عذاب الموت وقاست
الذل والخسف قرونا متوالية ؟ أترجو منها الاخلاص والطاعة ؟ أم تخاف
عصيانها وتمردا ؟ . فالقبض اذا ابتاعوا حريتهم وراحتهم بتسهيل الفتح
على الفاتحين . ونحن لا ننكر خيانتهم وانما أعقل الناس من عذر الناس .
هب ان القبط حاربوا مع الروم فهل كنت تتوقع الفوز ؟ » .

فرفع أركاديوس رأسه وقال : « نعم كنت أرجوه ولا أشك فيه » .
قال : « أراك مضطرا ، وقد رأيت ما حل بالشام وفلسطين والعراق
من قبل . ان هؤلاء العرب تألفوا يدا واحدة على عمل ففازوا وفتخوا
البلاد ، وأخرجوا الروم من الشام ، والفرس من العراق ، ولا ريب انها
دولة أرسلها الله لاكتساح بقايا الدول الفاسدة من الروم والفرس ، فلا
بد من فوزها ان عاجلا أو آجلا . فلا يلام القبط على استبدالهم بنير
الرومانيين نير العرب وقد وقع الى أن جندكم لما دخلوا الحصن لحمايته
ووصلوا الى كنيسة المعلقة أخرجوا راهباتها مهافات وهن مسيحيات

وكسروا الايقونات والكنيسة مسيحية مثل كنيستهم » •
 فنجعل أركاديوس لأن رجاله هم الذين فعلوا ذلك ، ولكنه تجاهل
 وظل صامتا ، فاتم الشيخ كلامه فقال : « أتدري ما فعل العرب عند دخولهم
 الحصن وقد فتحوه وحل لهم نهبه ؟ » •
 قال : « ماذا فعلوا ؟ » •

قال : « دخلوا الكنيسة دخولهم معبدا من معابدهم ، فطمأنوا
 الراهبات وخففوا عنهن ، وأقروهن في ديرهن ، وكن قد أخرجن منه يوم
 دخولكم • وزد على ذلك انكم قفتم بيامين بطريك القبط ، أما العرب
 فبعثوا يستقدمونه مكرما معزا • وان عجبت لشيء فأعجب لأنهم يرفقون
 بالحيوان فلا يسمونه بسوء ، فقد ترك أميرهم عمرو فسطاطه منصوبا بقرب
 الحصن لأن تقويضه يقضي على يمام عشت فيه • فهل يلام المقوقس
 لنفوره من الروم وميله الى العرب ؟ ما الذي يرجوه من هؤلاء الفاتحين
 لنفسه ؟ انه لا يرجو مالا ولا متاعا ولا جاها ولا شيئا آخر ، ولكنه سبق
 الى ذلك مكرها • قد يعد عمله خيانة ، ولكن فاعله لا يعد خائنا بل
 متقما » •

وكان الشيخ يتكلم وشفته ترتجفان ، ولحيته تنتفض ، وأنامله
 ترتعش ، وقد أخذ منه الغضب كل مأخذ ، وأركاديوس مطرق يصني يفكر
 في أمر هذا الرجل • على أنه أنزله من نفسه منزلة رفيعة لما سمعه من
 حديثه ، وعظم عليه حال الروم لعلمه ان كلام الشيخ حق لا ريب فيه ،
 فنهض وأخذ يمشي في أرض الحجرة ذهابا وإيابا صامتا يفكر ، والشيخ
 جالس كأنه ينتظر ما يبدو من أركاديوس • فوقف أركاديوس وقال :
 « وما العمل يا مولاي ؟ » •

قال الشيخ : « العمل الا تلقى بنفسك الى التهلكة بعد أن علمت
 ما علمت من ضعف الروم وفرارهم ، أما أنت فكلنا يعرف فيك من

عزة النفس والبسالة ما يجعلك بمنأى عن اساءة الظن بك ، فأنت لا تفر من ساحة الحرب ولا تسلم للعدو سلاحك ، ولكن الرأي قبل شجاعة الشجعان » .

قال : « وماذا أفعل اذن ؟ » . قال : « أرى أن تتنحى عن الحرب الى مكان تأمن فيه على نفسك ، فاذا وضعت أوزارها بعث أمير العرب يستقدمك اليه معززا مكرما . فالاسكندرية مفتوحة لا محالة ، ولا يشفي يومان حتى تكون في قبضة العرب عنوة » . قال ذلك وتأوه ، ثم عاد الى الحديث فقال : « تصور يا بني ان الاسكندرية أم العلوم ومحور التجارة ومثال العمران بما فيها من المدارس العالية والمكتبات الشهيرة والكنائس العظيمة والطرق العامرة والاحياء الآهلة والقصور الفخمة والحمامات الكثيرة والمصارف والحوانيت وغير ذلك . تصور انها ستصير كلها الى أيدي هؤلاء البدو الخارجين من بلاد قاحلة ليست بذى زرع » .

فقال أركاديوس : « معاذ الله أن تصير اليهم » . فقال الشيخ : « هب انها لم تصر اليهم الآن فستصير اليهم غدا وعندها لا تيسر لك القرار والاختباء » .

فابتدعه أركاديوس قائلاً : « ولماذا التستر ؟ وما الفائدة من الحياة بعد الذل ؟ ان ذلك عار على الرجال » . فتبسم الشيخ وقال : « انك لا تزال في أبان الشباب ، ويلوح لي أنك لا أهل لك ولا زوج يملك أمرها . وهب أنك وحيد في العالم لا تحب أحدا ولا يعبك أحد ، فاني لا أرى في اجتنابك هذه الحرب عارا ، انما العار أن تلقي بنفسك الى الموت . وفي الدنيا من يموت لموتك ويمش لا جلك . عن تدافع ؟ وماذا ترجو ؟ وقد قلت لك وأنا شيخ عركني الدهر وعركته ان دولة الروم لم يبق لها ظل على مصر والشام ، فقد خرجت البلدان من حوزتها

لفسادها وانقسام رؤسائها فيما بينهم على خزعبلات دينية ما أنزل الله بها من سلطان . ولم يكن هذا رأيي اليوم فقط بل هو قول قلته منذ أعوام ، فغضب على حكمان واضطهدوني وثقوني .

فاشتاق أركاديوس الى معرفة الشيخ فقال : « ألم يأن لك أن تصرح لي باسمك ؟ » . فوقف الشيخ وقال : « لقد عاهدتني عهدا صادقا الا تلحق بي سوءا » والوعد على الحردين ، فهل أنت على وعدك ؟ .

قال : « قل ولا تخف ، فانك شيخ جليل ، لا بأس عليك » .

قال : « اني يحيى النحوي » .

فعرفه لأنه كان معروفا في الاسكندرية ومعدودا من علمائها وقد اضطهده الروم لأنه يعقوبي المذهب كالاقباط . فازداد احترام أركاديوس له وتقديره .

ونفض الشيخ وودع أركاديوس فاذن له ، وأوصى بعض الحراس بأن يوصله الى مأمنه ، وعاد الى حجرته وكلام الشيخ يقرع رأسه ويرن في أذنيه ، ولا سيما ما ذكره له عن حياته وأحبائه ، فهاج به الغرام فأقلع يابه وجلس الى نافذة تطل على ساحة وراء السور تنتهي الى معسكر العرب . فأخذ يفكر في أمر دولة الروم وخروج مصر والاسكندرية من يدها وتقلص ظلها عن مصر والشام ، وما هي فيه من الفوضى حتى حكم العقلاء بقرب انتقضائها ، فأسف أسفا شديدا واشتد به الاسى . ثم تذكر أرمانيوسه وأنها زوجة ، وأنه اذا أصابه سوء مسها هي الضر ، فوقع في حيرة ، وآثر أن يحافظ على حياته ، لشعوره بعظم التبعة التي ألغاهها عليه زواجه بها . ولكنه استصعب ترك الاسكندرية والتقاعد عن الدفاع فقتضى بقية ليله مترددا لا يقر له قرار . وفي مساء اليوم التالي جاء مرقس ، فعالما رآه خفق قلبه وتذكر مجيئه اليه في حصار الحصن . فتوقع أن يسمع منه خيرا فلما دخل وحياه . قال أركاديوس : « ما

وراءك ؟ » • قال : « ما ورائي الا الخير » • وسكت •

قال : « ما بالك لا تتكلم ؟ قل ما وراءك ؟ اني أراك قلقا » • قال :

« ليس ما يوجب القلق يا سيدي » •

قال : « وهل من بأس على أرمانوسة ؟ » • قال : « لا بأس عليها ، ولكنني آمنت منها اليوم شوقا عظيما اليك ، وقد مضى الصوم الكبير ، ونحن في أسبوع الآلام » وهي تصلي وتتضرع الى الله أن يحرسك ، فلما أصبحت اليوم وهو يوم خميس العهد أفاقنا مذعورة وفي نفسها شوق شديد لرؤيتك وتود أن تؤديا فريضة الصلاة غدا معا في الكنيسة لانه يوم الجمعة الكبيرة » •

فابتدته أرКАДيوس قائلا : « وأي كنيسة ؟ » • قال : « كنيسة القديس بولس » • قال : « وأين هي ؟ » قال : « في مريوط » •

قال مغضبا : « أتريد مني يا مرقس أن أخرج من السور كما فعلت بي يوم حصار الحصن ؟ ذلك لا يكون أبدا » •

فأجفل مرقس لما رأى من غضب أرКАДيوس ولم يبد جوابا •

فأخذ أرКАДيوس يذرع الحجرة ذهابا وإيابا والاستياء باد عليه ، ومرقس واقف ، وبعد برهة قال مرقس : « أياذن لي مولاي في كلنة أقولها ؟ » •

فوقف أرКАДيوس وقال : « قل يا مرقس ، واذكر اني ارتكبت في خروجي من حصن بابل عارا لا أريد أن أرتكبه هنا » •

قال : « حاش لك يا مولاي أن ترتكب عارا ، ولكنني أذكرك بشخصي عاهدت الله أن تحبه وتحافظ على حياته » فإذا تذكرته فافعل ما يبدو لك » •

فلما سمع أرКАДيوس ذلك التعنيف اللطيف أطرق برهة ثم قال :

« تظنني ناسيا أرمانوسة أو أنني أتخلي عنها ، ولكن الشرف والمروءة

يا مرقس .. ولا أظن أرمأنوسة نفسها ترضى أن يكون زوجها جباناً يفر من ساحة الوغى » .

قال : « كيف يكون حالها إذا أصاب الاسكندرية سوء ؟ ولا أخفي عليك أننا نتوقع سقوطها قريباً ، لأن العرب يتهاون للهجوم عليها ، والروم يفرون منها ، ولا أنكر على سيدي البطل أن الشهامة تقتضيه الثبات الى آخر نسمة من حياته ، ولكن أرمأنوسة .. أذكر أرمأنوسة وما يحل بها » .
فضاق أركاديوس ذرعاً بالتردد ورفس الأرض وعاد يذهب ويحيى ومرقس يتضرع الى الله أن يغير ما بقلبه ويلهمه أن يأتي معه .

فعاد أركاديوس وأشار الى سيفه وقال : « أتريد يا مرقس أن أفر من الحصن ولا أستحيي من حامي هذا ؟ كيف لا أخجل ؟ بل كيف لا أذوب خجلاً اذا قيل اني فعلت ذلك وأنا أركاديوس بن الاعيرج زوج أرمأنوسة ؟ فاعلم اني اذا خرجت من هذا الحصن وسقطت الاسكندرية في أثناء غيابي فأنا مائت لا محالة . فدعني أدافع عن دولتي ووطنسي وشرقي ، فإذا عشت عشت شريفاً ، واذا قتلت مت شريفاً وفاخرت أرمأنوسة بأن زوجها كان شهماً مات في سبيل الدفاع عن وطنه وشرفه . ذلك خير لها من الخجل كلما ذكرت الاسكندرية أو دولة الروم » .

فترقت الدموع في عيني مرقس لعلمه بقرب الخطر ، وبأن العرب يهاجمون المدينة في صباح الغد ، فلما رآه أركاديوس يبكي رق لغيرته وحنانه ، وتقدم منه فأمسكه بيده وقال : « لماذا تبكي يا مرقس ؟ هل خفت على أركاديوس من الموت ؟ ليس الموت يا صاحبي بالامر الذي يخافه العاقل ، وانما خوف العاقل من العار . واني وأيم الله شاكر شعورك ومحبتك وغيرتك علي وعلى أرمأنوسة » وان ذلك لما يطمئن له قلبي فتكون لأرمأنوسة نعم العون اذا مسني سوء » . قال ذلك وشرق بدموعه ، ثم تجلد ونأى بوجهه عن مرقس الى النافذة فأطل

منها على معسكر العرب » وكان البدر قد طلع فأرسل أشعته على تلك
الغياض ، وأكثرها من النخيل الا سهلا رجبا عسكر العرب فيه ، فوقف
أركاديوس برهة ينظر الى تلك الضاحية وهو لا يرى شيئا لعظم قلقه
واضطرابه ومرقس واقف يجهش في البكاء ، فاتبه أركاديوس لصوت
بكائه والتفت اليه وقال : « انك يا مرقس شديد الغيرة صادق الود ،
وما أنا بناس مودتك ما عشت ، واذا مت فاذهب الى أرمانونسة وخفف
عنها » واذكر لها أن أركاديوس أبى أن يكون جباناً لئلا يقال أنه ليس
أهلاً لها . قم يا مرقس واذهب اليها الآن ، واحتفظ بها ، وما أنت في
حاجة الى من يوصيك بأرمانونسة . وأرجو أن أراكم ظافرا والا .. » .
وسكت وأمال وجهه ، ومرقس لا يزال يبكي . ثم مسح مرقس دموعه
وتجلد وقال : « كيف أخرج من عندك وأنا أرى الخطر قريبا ؟ أسأل
الله أن يبعده عنك » .

قال : « ان الأعمار بيد الله ، قرب رجل يموت في أبان نعيمه وراحته ،
وآخر يخوض المعامع ويستقبل النبال والرماح بصدرة ويعمر طويلا .
والعمر يا مرقس طال أم قصر لا بد من انقضاءه ، وأما العار فانه باق
لا يمحي . وأرى الآن أن تذهب الى أرمانونسة ، وكن أنت معها في ساعة
الرهبة ، وساعداني بالصلاة ، وقل لها أن صليها في عنقي ، وهو يدفع
عني كل شر » .

فعلم مرقس أنه لا مناص من رجوعه ، فتقدم من أركاديوس وهو
يمسح دموعه وقال : « أما وقد أصررت على البقاء فاني أبوح لك بأن
العرب سيهاجمون الاسكندرية غدا في الصباح الباكر فكن على حذر » .
قال ذلك وودعه وخرج كاسف البال حزينا لا يدري كيف يقابل
أرمانونسة .

وكانت أرمانونسة قد مكثت يوما كاملا بعد ذهاب مرقس وهي

تنتظر عودته » فلما انقضى بعض الليل ولم يأت ، قلقّت : وكانت بربرة أشد قلقا منها لعلها بعزم العرب على الهجوم في صباح اليوم التالي كما أنبأها مرقس . فانتهزت فرصة وخرجت من النرفة الى الحديقة لعلها ترى مرقس قادما . وما لبثت أن رأت شيحا عن بعد ، أخذ يقترب منها حتى تبينت انه هو مرقس فسارعت اليه ، وخفق قلبها حين استقبلها بإكيا ، وسألته : « ما الخبر ؟ » .

فأنبأها بما كان من أمره مع أركادايوس ، وإصرار هذا على البقاء في الاسكندرية ، فدقت يدا ييد ، وقالت : « الأفضل ألا تدخل على أرمافوسة الآن ، وألا نطمعها على شيء من هذا حتى لا يقتلها الحزن » . ولم تشرق الشمس حتى كان العرب قد اقتحموا أسوار الاسكندرية . وجاءت رسل المقوقس الى أرمافوسة يشيرونها بذلك ، وليكثوا عندها لهرستها حتى يلحق بهم إليها ، فاشتد بها الجزع على أركادايوس : وأخذت في البكاء والنحيب .

- ١٥ -

فتح الاسكندرية

بقي أركادايوس بعد ذهاب مرقس وحيدا في غرفته ، وقد أخذت العمية منه مأخذا عظيما ، وصمم على الدفاع عن وطنه ودولته الى آخر نسيمة من حياته ، فخرج لينبئ البطريق بما نواه العرب في الصباح التالي ، فوصل الى قصره فلم يجده هناك ولم يده أحد الى مقره ، فالتجّ في طلبه ، وأرسل الرسل في البحث عنه ، فلم يبقوا له على خبر ، فعرف من ذلك ، ومن قرائن أخرى ، أنه فر من الاسكندرية لما رأى

أهلها يفرون • فشق الامر عليه وقال : « لقد صدق يحيى النحوي ، والله ان الدفاع عن هذه الدولة حرام • ان الله قضى عليها فماذا يجدي الدفاع ؟ » • وحدثته نفسه أن يخرج هو أيضا ، ولكنه خشي أن يقولوا عنه كما قال هو عن البطريق ، فعاد الى حصنه وتهيأ للدفاع جهده ، وبات بقية ليلته على حذر •

فلما طلع الفجر أفاق وأطل من مرامي السور ، فرأى المسلمين بفرقهم ورماحهم ونبالهم وتروسهم قد تفرقوا ، وأمامهم الفرسان يحملون الاعلام ويتأهبون للهجوم ، فأمر رجاله بالاستعداد والوقوف عند مراميهم • ولبس درعه ولأتمته وتقلد حسامه وخنجره ، ووقف يرقب تقدمهم ، فرأى كل فرقة منهم قد سارت وعلمها أمامها الى ناحية من السور ، وظلت فرقة صغيرة متجهة نحو حصنه ، فأمر رجاله فرموها بالنبال فلم تجبهم ، وبقيت تتقدم حتى صارت على مقربة من السور ، وأمامها بضعة فرسان بالدرق والسيوف • فلما دنوا من السور أمرهم أميرهم فتحولوا الى جانب من السور يبعد عن معقل أركاديوس ، وأخذوا يتسلقونه متزاحمين كأنهم يتسابقون على ولية • فلما سمع أركاديوس صوت القائد تسلم منه صوت عمرو بن العاص فقال: « هذا قائدهم •• ها قد التقينا في حومة الوغى ، وجاز لي قتاله كما قال مرقس ، وليس في أغلال الحديد » • ولكنه لم يشبهه لأنه لم ير وجهه المغطى بالخوذة والدرع ، فأطل من المرمى فلم يره • ولكنه رأى العرب قد دخلوا المدينة وعلا الصياح في أنحاءها • ثم سمع ضجة في معقله من الداخل فاستل حسامه ، وتحول نحو الصوت فلقى بعض رجاله فأبأوه بدخول العرب المدينة وسقوطها فلم يبال • وظل سائرا حتى رأى أصحاب الصيحة فإذا هم بعض العرب قد دخلوا معقله فصاح فيهم والسيف مشهر في يمينه : « أين هو أميركم ؟ فليارزني • أنا أركاديوس ابن الاعرج • » • فما أتم كلامه حتى رأى بدويا مدرعا تقدم

نحوه وسيفه مغمدة ويدها فارغتان ، فنكس أركاديوس سيفه ، وقد عجب لذلك الرجل : وما لبث أن جاء العربي وحسر الدرع عن وجهه « فإذا هو عمرو بن العاص يتسمم » فاستغرب أركاديوس مجيئه في تلك الحال ، وقال له : « جرد حسامك وعليك بالبراز » • فلم يفهم عمرو ، ولكنه بالعربية فلم يفهم أركاديوس وإن تبين من ملامح وجهه انه جاء مسلما لا محاربا • والتفت عمرو خلفه فإذا بزياد قد دخل ومعه مرقس ، فخطب عمرو أركاديوس بواسطة زياد قائلا : « اني لم آت لأقاتل أركاديوس البطل الشهير • ان مثلك لا يقاتل • وقد جئتك وسيفي مغمدة لعلمي أن الخيانة ليست من شيمتك » •

فعجب أركاديوس من مروءته وقال : « لماذا لم تأتني محاربا هيا تبارز ؟ » •

قال : « لأنني أشعر بجميل لك على يوم ضمنا وإياك مجلس البطريق ، واختلفوا في أمري ، وكنت عالما بي فأغضيت • وهو جميل ذكرته لك ، وما زلت أتوقع أن أكافئك عليه ، فأنت صاحب الفضل السابق » •

وكان أركاديوس كثيرا ما سمع بوفاء العرب وكرم أخلاقهم ، فلما اختبر ذلك بنفسه ، نظر الى مرقس فإذا هو واقف مع زياد ، وكل منهما ينظر اليه ويتسمم سرورا بنجاة من الموت • فأدرك أركاديوس أن ذلك كله انما كان بمساعي مرقس ، فوقف يتردد بين الفرح بالنجاة شريفا عزيزا وبين الحزن لسقوط الاسكندرية ودخولها في حوزة المسلمين • أما عمرو فهم بأركاديوس وصافحه قائلا : « ها أنذا أصادحك وأؤخيك منذ الآن ، واعلم أنك صديقنا ولا تحسبنا أخذناك في الحرب ، فاننا جئناك زائرين لشكرك على جميل سبق لك علينا ، وها أنذا تارك عند معة لك جنودا يمنعون رجالنا من دخوله » •

فازداد أركادايوس إعجاباً بتلك المروءة وقال : « بورك فيك من
شهم ، فأوصيك بالاسكندريين خيرا • لا تدع رجالك يشتكون بهم •
فقد كفاهم الأسر » •

فلما خلا أركادايوس بمرقس قال : « ماذا فعلت يا مرقس ؟ وكيف
حال أرمأنوسة ؟ » •

فهم مرقس بيده يقبلها ويقبل الأرض كأنه لا يصدق نجاته من
الموت ، وقال : « الحمد لله على سلامتك يا سيدي ، ها قد رأيت ما تشتهي
نفسي ، ولا فضل لي في ذلك ، لأن عسروا شعر بفضلك عليه فغزم على
أن يوافيك ، وها قد نجوت من الخطر شريفاً بعد أن طلبته للمبارزة فلم
يبارزك • أما أرمأنوسة فانها في قلق عظيم • ولا أدري ما حل بها ،
فأذن لي بالذهاب اليها لأبشرها بسلامتك ، وأعود اليك فسير معاً
اليها » •

قال ذلك وخرج ، وبقي أركادايوس وزباد ، فدخلا الحجرة فقال
أركادايوس : « ما علاقتك يا زباد بالعرب والروم ؟ » •

قال : « اني خادم يحيى النحوي ، ولكنني في الاصل صديق عسرو ،
وكنا نرعى الابل معا في الجاهلية ، ثم افترقنا ، فأقمت أنا في الاسكندرية ،
ودخل هو في الاسلام وصار من أمراء المسلمين ، ولكنني أعرفه شهماً
غيوراً ، فلما وقع في الأسر ، أحضروه الي في مجلس البطريق ، وكنت
حاضراً ، فعرفك وخاف أن تذيع أمره ، فلما رأى منك الكتمان عد
ذلك فضلاً لك عليه ، وود انقاذك • وقد كنا أمس عنده في المعسكر ،
فجاءه مرقس بعد نصف الليل ، فسأله هو عنك وعن معقلك حتى يحسبه ،
فأخبره • وجئنا في هذا الصباح معه كما رأيت » •

فقال أركادايوس : « وأين سيدك يحيى ؟ » • قال : « مختبئ في
مأمن » •

فقال أركاديوس في نفسه : « هذا هو التساد وهذه هي الفوضى ، وكيف يفوز قوم في حرب وقرادهم متفلسون . وعلاؤهم ناقصون ؟ أنا لله وأنا اليه راجعون » . وعاد اليه رأي في معاشره المقوقس . ولكنه أصبح أكثر اتساعا .

وبعد بضع ساعات عاد عمرو ومقرس . فقال عمرو لأركاديوس : « اذا شئت الخروج الى أهلك فأتنا مشيعوك الى حيث تشاء » . فعجب أركاديوس لعلم عمرو بعلاقته بأرمانوسة . ولحظ عمرو ذلك فقال : « لا تعجب . فقد علمت خبرك مع أرمانوسة . ويسرني أن أراكا الآن في وئام ، ولا تظلم حناك المقوقس . فانه معذور . واذا أردت الخروج الى عروسك فذلك اليك » .

فسأل أركاديوس زيادا : « هل تعرف مقر يحيى النحوي ؟ » قال : « نعم » فركبا وسارا . فلما أطلا على مريوط . وأشرفا على بيت الشيخ حيث تقيم أرمانوسة خفق قلب أركاديوس . فلقبهم مقرس فجري ليشر أرمانوسة . ولما دخل أركاديوس الفاعة لقي فيها جبهورا من الرجال . وفي صدرها يحيى النحوي ، وبجانبه المقوقس . فلما رآهما اضطرب وتردد ، فنهض يحيى اليه وقبله وأمسكه بيده وقدمه الى المقوقس . فوقف المقوقس وضم أركاديوس الى صدره وقبله قبلة الأب لابنه . فحجل أركاديوس وشعر بزوال حقدته على حبيه : وهم به فقبل يده وجلس الى يمينه ويحيى بين أيديهما .

فقال يحيى : « لا تعجب يا بني من اجتماعنا في منزل أرمانوسة . فأتنا عالمون بنا في نفسك على حيك . وما كان في نفسه هو على جماعة الروم » وكلاهما معذور . وقد علمنا بما عقده الله بينك وبين

أرمانوسة من الروابط المقدسة فأردنا التوسط بينك وبين حميك ليفهم كل منكما الآخر ، فأنت الآن بمنزلة ابنه وهو بمنزلة أبيك » •

فقال المقوقس : « يعلم الله يا ولدي انني أطلت البال ، وصبرت صبر الرجال » وأنا رومي الاصل مثلك ، ولكنني رأيت ذل القبط فأغثتهم فلم تصنع الدولة لصراخنا ولا سمعت بكاءنا ، وهذا أخي يحيي العالم شاهد على ما أقول • أما أنت فما برحت منذ عرفتك أشهد بشهادتك ومروءتك لأفك لم تأت عملا تلام عليه » •

فقال أركادايوس ، وقد صفا قلبه : « نعم يا عماء اني مثل ولدك ، ويكفيك شفيعا عندي أنك والد أرمانوسة » وأنا وهي الآن واحد » •

فقال مرقس : « ما بالكم حجبتهم أرمانوسة عنه وحجبتموه عنها ؟ » • ولم يتم كلامه حتى دخلت بربارة وهمت بيدي أركادايوس تقبلهما ، ودخلت أرمانوسة على استحياء وعيناها ذابلتان لما قاسته في صباح ذلك اليوم ، ولم تستطع اظهار عواطفها ، فسلمت فنهض يحيي وأمسك بيد أركادايوس وأمسك المقوقس بيد أرمانوسة وجعلا يد كل من العروسين بيد الآخر وقال يحيي : « ما جمعه الله لا يفرقه انسان » •

وفي صباح الفد هناهم عمرو بن العاص ، وخير أركادايوس بين الاقامة في الاسكندرية أو بأي مدينة أخرى ، فاستمهلته حتى يكتب الى أبيه • فكتب اليه مع رسول أفضه الى القسطنطينية ، فعاد الرسول نبأ موت أبيه في السجن ظلما بلا محاكمة • فبكاه وكره القسطنطينية وأهلها وفضل البقاء بالاسكندرية •

وكان عمرو قد كتب الى الخليفة عمر بن الخطاب بفتح الاسكندرية ، وسأل عن المكان الذي يقيم به ، فكتب اليه : « اني لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم شتاء ولا صيفا ، فمتى أردت القدوم اليكم فاني أركب راحلتي حتى أقدم اليكم » •

وكان بين الاسكندرية والحجاز نهر النيل ، فانتقل عمرو الى حصن
بابل ، وكان القسطنطين الذي تركه هناك لا يزال باقيا وقد عشن فيه
اليام ، فخيم حوله ونصب الاعلام وبنى هناك مدينة سماها القسطنطين ،
وهي أول عاصمة للمسلمين في مصر . أما أركادوريوس فاختار الإقامة
بالاسكندرية ، وعاش مع عروسه في زغد ، ومعهما بربارة ومرقس وأهله .

سلسلة زوايا تاريخ الإسلام

تأليف جرجي زيدات



- | | |
|-------------------------|-------------------------|
| ١٢ - عروس فرغانة | ١ - فتاة غسان |
| ١٣ - أحمد بن طولون | ٢ - أرماتوسة المصرية |
| ١٤ - عبد الرحمن الناصر | ٣ - عذراء قرقيش |
| ١٥ - فتاة القيروان | ٤ - ١٧ رمضان |
| ١٦ - صلاح الدين الأيوبي | ٥ - عادة كربلاء |
| ١٧ - شجرة الدر | ٦ - الحجاج بن يوسف |
| ١٨ - الانقلاب العثماني | ٧ - فتح الأندلس |
| ١٩ - أسير الممهدي | ٨ - شاك وعبد الرحمن |
| ٢٠ - المملوك الشاذل | ٩ - أبو مسلم الخرساني |
| ٢١ - استبداد المماليك | ١٠ - القباصة أخت الرشيد |
| ٢٢ - جهاد المحبين | ١١ - الأمن والمأمون |